ستيفن كينزر

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

العودة إلى الصفر

إيران، تركيا ومستقبل أميركا

www.iqra.forumarabia.com منتدى اقرأ الثقافي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

العودة إلى الصّفر

إيران وتركيًّا ومستقبل أميركا

ستيفن كينزر

العودة إلى الصّفر

إيران وتركيّا ومستقبل أميركا

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-647-3

Originally published as: **RESET: Iran, Turkey, and America's Future.**
Copyright © 2010 by Stephen Kinzer.
Published by arrangement with Times Books, an imprint of Henry Holt and Company, LLC. All rights reserved.

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق لغوي: حبيب يونس

تصميم الغلاف: أحمد راضي

الإخراج الفني: فدوى قطيش

إلى جَدَّيَّ

أبراهام ريكاردو

١٨٨٢ (أمستردام)ـ ١٩٤٥ (برغن-بلسن)

جانيت مارغاريتا (دي جونغ) ريكاردو

١٨٩١ (أمستردام) ـ ١٩٤٥ (برغن-بلسن)

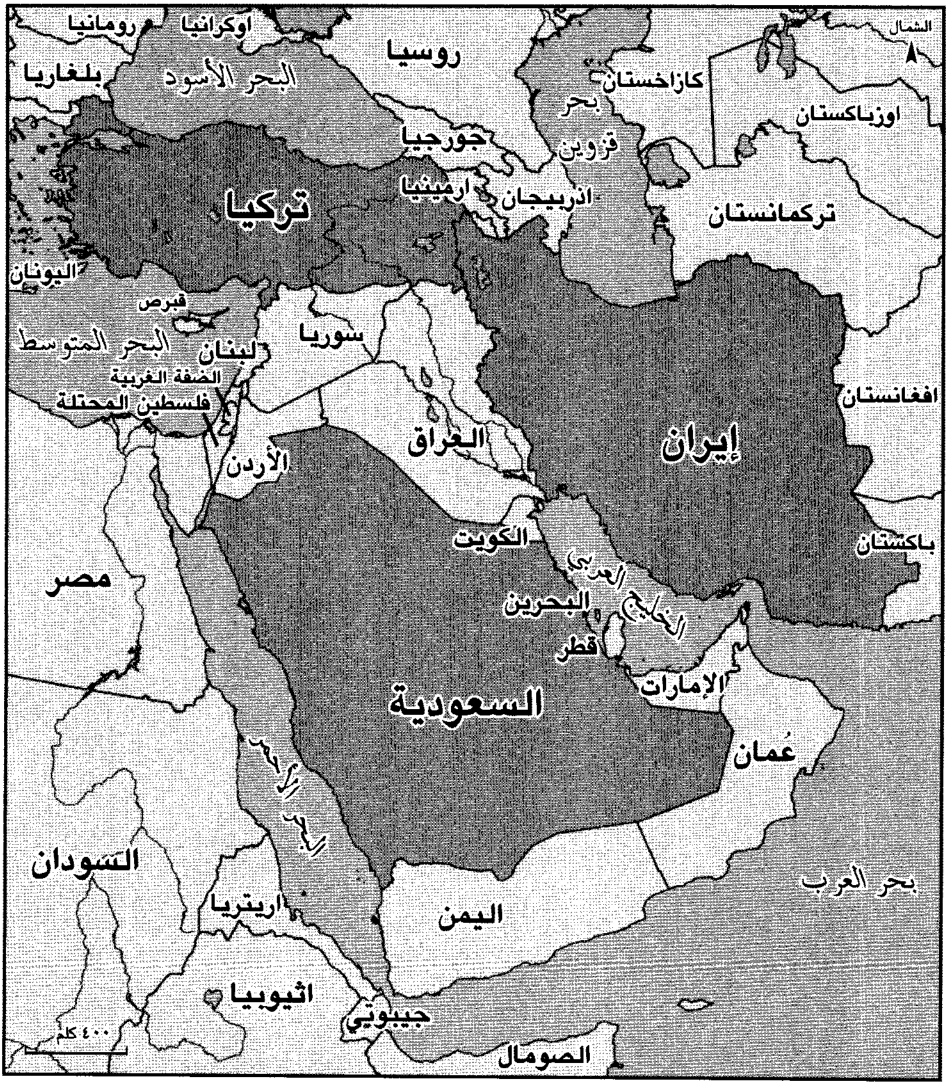
رومانيا
اوكرانيا
روسيا
الشمال
بلغاريا
البحر الأسود
كازاخستان
بحر
قزوين
اوزباكستان
جورجيا
ارمينيا
اذربيجان
تركيا
تركمانستان
اليونان
قبرص
سوريا
البحر المتوسط
لبنان
الضفة الغربية
فلسطين المحتلة
افغانستان
العراق
إيران
الأردن
الكويت
باكستان
مصر
الخليج العربي
البحرين
قطر
الإمارات
السعودية
عُمان
البحر الأحمر
السودان
بحر العرب
اريتريا
اليمن
اثيوبيا
جيبوتي
٤٠٠ كلم
الصومال

المحتويات

المقدِّمة ٩

الجزء الأوّل: من أجل الشعب، رغماً عن الشعب ٢٧

١- حياة العرض الحقيقيّة وروحه ٢٩

٢- ولّت الأحلام والظّلال! ٤٥

٣- لا خيار لنا سوى اللحاق بالركب ٨١

الجزء الثاني: لم يحظَ اسمنا بالاحترام ١١٥

٤- هذا الساحر العجوز المصاب بالدوار ١١٧

٥- المفسدون في الأرض ١٥٣

الجزء الثالث: بعيدون كلّ البعد ١٨٥

٦- أنت تكسب أيها الأصلع النحس ١٨٧

٧- متشابكة إلى حدٍّ كبير ٢٢٧

الجزء الرابع: الباب مفتوح على مصراعيه ٢٤٩

٨- من حيث أنها تأتي معًا ٢٥١

شكر ٢٧٩

المقدِّمة

انسلَّ صفٌّ غير منتظم من تلامذة المدارس المذعورين، المحمَّلين بنادق وقنابل محلِّية الصنع، عبر شوارع تبريز القديمة، مع انبلاج الفجر، إلى المدينة الجائعة. أدرك هؤلاء الشبَّان، على رغم ما يعانونه من وهن، جرّاء أشهر من الحصار الذي أصاب الكثيرين منهم بالمرض، أنهم طليعة الكفاح الإيراني من أجل الديمقراطيّة. وقد استلهموا، فوق كل شيء، الرجل الذي يتبعونه. وهو ليس، على غرار غيره من قادة حرب العصابات، ضابطًا متمرّدًا، أو لصًّا تحوّل وطنيًّا، أو من نتاج سلالة طويلة من المحاربين الفرس. بل إنه أبعد ما يمكن عن أن يكون ثوريًّا تنتجه هذه الأرض القديمة المتشامخة: فهو مدرّس من نبراسكا عمره أربعة وعشرون عامًا، واسمه هوارد باسكرفيل[١].

ولكن لم تكفِ شخصية القائد الملهمة ولا نسيم الربيع المنعش الذي يهب من جبال سهند المجاورة، لإقناع معظم هؤلاء الصبية والشبّان بأن يوم العشرين من

(١) Mark F. Bernstein, "An American Hero in Iran", *Prince ton Alumni Weekly*, May 9, 2007; Robert D. Burgener, "Iran's American Martyr", *The Iranian*, August 31, 1998; S. R. Shafagh, *Howard Baskerville 1885– 1909, Fiftieth Anniversary: The Story of an American Who Died in the Cause of Iranian Freedom and Independence* (Tabriz, Iran: Keyhan, 1959). يحدد شافاغ وفاة باسكرفيل في ١٩ نيسان/أبريل بدلاً من العشرين منه.

نيسان/أبريل ١٩٠٩ هذا، هو يوم موتهم. تبع مئة منهم باسكرفيل عند انبثاق أول شعاع ضوء. ولم يبقَ منهم، مع اقتراب طابورهم من سور المدينة، سوى أقل من دزينة. ومع ذلك واصل باسكرفيل طريقه.

شرع الوطنيون في تبريز في مواجهة ثورة مضادة تهدف إلى سحق الديمقراطية الإيرانية الجديدة وإعادة إحلال الحكم الملكي القاجاري المنحط. وقد طوّقت القوات الملكية المدينة العاصية، وتميّز حصارها بالفاعليّة المرعبة؛ أخذ الجوع والمرض يقتلان الناس، كل يوم، واضطر الكثيرون من الأحياء إلى أكل العشب. ولن يتمكّنوا من البقاء والاستمرار في المقاومة إلا إذا استطاع أحدهم، بطريقة ما، شقّ طريقه عبر خط الحصار لبلوغ القرية المحاذية والعودة بالطعام والدواء. وتطوّع باسكرفيل للمحاولة.

«إحذر» ناشده أصدقاؤه الأميركيون قبل أن ينطلق خارجًا. «أنت تعرف أنك لست مُلك نفسك».

«كلا»، أجاب. «أنا مُلك بلاد فارس».

وباسكرفيل مرشّح غير محتمل إلى الشهادة، وقد ولد في مروج بلدة نورث بلات في نبراسكا وترعرع في بلاك هيلز في جنوب داكوتا، وهو ابن وحفيد لمبشّرين مشيخيين. تمتع، وهو مراهق، بالقدر الكبير من التقوى والرصانة والاجتهاد، مما أهّله لأن يُقبل في جامعة برينستون حيث درس الدين وتميّز في الفروسية وأصبح ملاكمًا حقّق نجاحًا متواضعًا. وتابع أيضًا مقرّرين درّسهما وودرو ويلسون، أحدهما تحت عنوان «علم التشريع» والآخر «الحكم الدستوري». وحرّكت محاضرات ويلسون فيه الهوس بالديمقراطية الذي صاغ حياته القصيرة.

قرّر باسكرفيل، على أثر تخرّجه عام ١٩٠٧، تأجيل التحاقه بإكليريكية برينستون اللاهوتية والعمل مبشّرًا مدة من الزمن. ووصل، خريفَ تلك السنة إلى تبريز، وهي

مدينة عمرها ألفا عام، تقع شمال غربي إيران، ويُعتقد أنها مسقط النبي زرادشت. وتقول الأسطورة إنها بنيت في موقع جنّة عدن. ودرّس فيها التاريخ والرياضيات والإنكليزية في صفوف مختلطة في مدرسة «أميريكان ميموريال»، وقد أصرّ على استقبال الإناث كما الذكور. وأصبح كذلك مدرّب المدرسة في كرة المضرب وفي ركوب الخيل، وأخرج مسرحية «تاجر البندقية» التي قدّمها الطلاب، وأنهى عظته في عيد الشكر ببيت شعر مؤثّر للسير والتر سكوت:

هنا رجل يتنفّس لكن روحه ميت

بحيث لم يقل في نفسه مرّة،

«هذه بلادي، مسقط رأسي!»

وقد وجد تلامذة باسكرفيل في تلك الكلمات ما يؤلم المشاعر. فطوال عقود وبلادهم المُنهكة، وارثة الأمبراطورية العظمى التي قادها ملوك أبطال أمثال قورش وداريوس وأحشويرش، عرضة لفساد الحكم وللنهب على أيدي القوى الأجنبية الجشعة. وقد وقّعت بريطانيا وروسيا، عام ١٩٠٧، ميثاقًا قسّمتا فيه بلاد فارس – كما كانت تسمى إيران – «دوائر نفوذ». أخذت بريطانيا الجزء الجنوبي من البلاد، وروسيا الجزء الشمالي. ولم يشارك أي إيراني في المفاوضات التي أنتجت هذا الاتفاق، أو يعرف حتى بحدوثها.

بيد أن أوائل القرن العشرين شكّلت عصر الاضطراب والتمرّد، إضافة إلى أنها عصر القوة الاستعمارية. أطاح البور (Boers) الحكم البريطاني في جنوب أفريقيا. وأجبر المتمرّدون الروس القيصر نقولا الثاني على إنشاء هيئة تشريعية. وانتهت الحرب الروسية ـ اليابانية بانتصار اليابان، مما أوحى أن ليس مقدّرًا للأوروبيين أن يسيطروا على الآسيويين إلى الأبد.

لم يغب أي من هذه الأحداث الصادمة عن إيران. أثار الغضب من سلالة القاجار السهلة الانقياد، ومن القوى الأجنبية التي تخدمها، موجات من الاحتجاج، حققت

عام ١٩٠٦ هدفها البعيد عن التصوّر، ألا وهو الثورة الديمقراطية. أُجبر الملك، مظفر الدين شاه، على تقديم تنازلات شبيهة بتلك التي قدّمها الملك جون قبل ذلك بسبعة قرون بتوقيعه الـ«ماغنا كارتا» (Magna Carta)، أو الميثاق العظيم للحرّيات. ووافق على السماح بالإعلان عن وضع دستور وإجراء انتخابات وإنشاء برلمان. وضمن الدستور الجديد حرّية التعبير عن الرأي وحرّية الصحافة، وحظر على الملوك توقيع المعاهدات أو اقتراض الأموال من دون موافقة البرلمان، وعدّ جميع المواطنين متساوين أمام القانون.

توفّى مظفر شاه بعد أربعين يومًا على قبوله على مضض هذا الدستور – ربما لم يقوَ على شدّة الألم. كره ابنه وخليفته، محمد علي شاه، الديمقراطية الجديدة، وهو الذي وصفه أحد معاصريه بأنه «ربّما المسخ الأكثر انحطاطًا وجبنًا وإشباعًا بالرذيلة، والذي جلب العار على عرش بلاد فارس على مر الكثير من الأجيال»[1]. وصمّم على سحقها، فحلّ البرلمان وأرسل من ثمّ، في ٣ حزيران/يونيو ١٩٠٨، وحدات المدفعية التي يقودها الروس لقصف المبنى حيث يجتمع، فقُتل عدد كبير من النواب[2]. واندلعت الاحتجاجات في مختلف أنحاء البلاد، لكن الشاه سحقها من دون رحمة. والمدينة الوحيدة التي لم يمكنه إخضاعها هي تبريز التي شكّلت، بفضل موقعها القريب من الحدود مع روسيا وتركيا، البوابة التي انسابت منها الأفكار الديمقراطية إلى البلاد طَوال سنوات.

فرض الجنود الملكيّون حصارهم مطلع العام ١٩٠٩ وهوارد باسكرفيل موجود في تبريز. انجذب غريزيًا إلى القضية الدستورية وأمضى الكثير من الأمسيات مع كتائب المتطوّعين لتزويد المقاتلين المدافعين عن المدينة، الطعام. وأخذ يستنتج شيئًا فشيئًا أن هذا لا يكفي. روّعته أخبار الميثاق الأنغلو ـ روسي، ووجه أمام طلّابه

(١) Morgan Shuster, *The Strangling of Persia: A Record of Europe an Diplomacy and Oriental Intrigue* (London: T. Fisher Unwin, 1912), p. xxi.

(٢) Hamid Dabashi, *Iran: A People Interrupted* (New York: The New Press, 2007), p. 79.

انتقادات حادة استهدفت خصوصًا السير إدوارد غراي، وزير الخارجية البريطانية، وسخر منه بصفة كونه منافقًا يطنب في الحديث عن بديهيات الديمقراطية، بينما يساند ذبح الإيرانيين الذي يحاربون في سبيلها. أصبح أحد أقرب أصدقائه الإيرانيين إليه، حسين شريف زاده، قائدًا للمقاومة في تبريز، ولما اغتيل شريف زاده بلغ استياء باسكرفيل حدودًا جديدة. وقرّر ربيع العام ١٩٠٩ إنشاء قوة من المتطوعين والانضمام إلى الدفاع عن الديمقراطية الإيرانية.

أبلغ تلاميذه في يومه الأخير في المدرسة: «لا أستطيع أن أقف عند نافذة صفّي وأراقب في هدوء، بينما يحارب شعب هذه المدينة الجائع من أجل حقوقه».

طُلب من باسكرفيل، بعد ذلك ببضعة أيام، أن يخطب في عشاء يكرّم الضبّاط الذين يقودون الدفاع عن تبريز. «أكره الحرب»، قال لهم، «ولكن يمكن الحرب أن تجد مبرّرًا لها في السعي إلى خير أعظم – وفي هذه الحال حماية المدينة والدفاع عن الحرّية الدستوريّة. وأنا على استعداد للموت في سبيل هاتين القضيتين!» وانفجر الحضور بالتصفيق وبالصياح «يحيا باسكرفيل!» وردّ بإنشاد مقطع من أغنيته المفضّلة «منك يا بلادي».

أخذ باسكرفيل عند هذا الحد يمضي نهاراته يدرّب صبية المدارس على فنون الحرب فيما ينكبّ في أمسياته على المواضيع الموسوعيّة التي تشرح طرق صنع القنابل. وهو ما روّع القنصل الأميركي في تبريز إدوارد دوتي.

«أنا مجبر على تذكيرك بأنك لا يحق لك، بصفة كونك مواطنًا أميركيًّا، أن تتدخل في سياسات هذه البلاد الداخلية»، على ما أبلغه دوتي في أحد الأيام أمام مجنّديه الصغار. «أنت هنا لتتصرّف كمعلّم لا كثوري».

أجابه باسكرفيل: «لا يمكنني أن أبقى وأراقب بلا مبالاة معاناة شعب يقاتل من أجل حقوقه. أنا مواطن أميركي، وأفخر بذلك، لكنني أيضًا كائن بشري».

تشارك باسكرفيل، ليلة ١٩ نيسان/أبريل ١٩٠٩، وجبته الأخيرة مع القسيس

صامويل ويلسون، مدير مدرسة الـ«ميموريال» الأميركية وزوجته آني، المولودة في إيران وهي مشغوفة بمحبة شعبها. شربوا الحليب، وتبادلوا المزاح حيال مدى الغرابة في أن يشكّل ذلك آخر مشروب يطلبه رجل قبل أن ينطلق إلى المعركة. والتقى باسكرفيل، بعد ذلك ببضع ساعات، متطوِّعيه المئة وشرع في قيادتهم إلى ضواحي تبريز. وأخذت، مع مرور كل بضع دقائق، تفقد حفنة منهم أعصابها وتلوذ بالفرار.

تابع باسكرفيل سيره. وأزّت رصاصة قنّاص بالقرب من رأسه تمامًا وهو يعبر سور المدينة. ردّ بإطلاق النار، ثم توقّف إلى أن خُيِّل إليه أن القناص انسحب. شكّل ذلك خطأه القاتل. ولمّا وقف ليومئ لصبيته بالتقدّم، عاود القنّاص الظهور وأطلق النار مرّتين، فاخترقت رصاصة قلبه وقتلته.

«هرع الصبية إلى البوابة لنقله إلى الداخل، وجميعنا ننتحب ونندب»، كتبت آني في اليوم التالي في رسالة أليمة من ١٦ صفحة إلى أهل باسكرفيل. «حملناه إلى غرفتنا وسجّيناه على سريرنا، وغسلنا أنا والسيّدة فانمان جثمانه العزيز والدم يخرج ملطّخًا قميصه ويغطّي صدره وظهره... ألبسناه بزّة رسميّة سوداء، وبدا مع انتهاء المراسم جميلًا ونبيلًا، وقد ارتسم العزم على محياه هادئًا ومستريحًا. طبعتُ قبلة على جبينه نيابة عن أمه. وزُرعت قرنفلة بيضاء في عروته، بينما كانت تُعَدُّ له أكاليل الزهور. وصنع أولادنا صليبًا وتاجًا من أزهار اللوز الجميلة، وهي في بدء تفتحها. وحضر الحاكم على الفور معربًا عن الأسف الشديد. وقال: «لقد حفر اسمه في قلوبنا وفي تاريخنا».

تجمّع الآلاف، صامتين، للمشاهدة، بينما سار موكب نعش باسكرفيل المغطى بستة عشر إكليلًا من الزهر، عبر شوارع تبريز إلى الكنيسة المشيخية. وكان بين المؤبنين السيّد حسن تقي زاده، وهو أحد زعماء البرلمان المحاصر الذي مات باسكرفيل دفاعًا عنه.

وقال، في مهابة، إن «أميركا الفتيّة، بشخص باسكرفيل الشاب، قدّمت هذه التضحية إلى دستور إيران الحديث السن».

سقطت تبريز بعد خمسة أيام على مقتل باسكرفيل. اقتحمت القوات الملكية وحلفاؤها الروس المدينة وجرّدوا كلّ مقاتل في المقاومة أمكنهم العثور عليه من السلاح. غير أن انتصارهم لم يعمّر طويلًا. فما إن استوعب المواطنون صدمتهم حتى استأنفوا القتال من أجل الحكم الديمقراطي. وهكذا فعل غيرهم في أنحاء إيران. وكبرت مواجهتهم لتصبح حركة وطنية إلى أن انهارت في النهاية ثورة محمّد علي شاه المضادة، وتنازل عن العرش في ١٦ تموز/يوليو ١٩٠٩، بعد ثلاثة أشهر تمامًا على استشهاد باسكرفيل. عاود البرلمان الانعقاد، وأعيد تأليف الحكومة الدستورية، واستأنفت إيران مسيرتها صوب الديمقراطية.

وباسكرفيل اليوم شخصيّة تحظى بالتكريم في إيران. وقد أُطلق اسمه على عدد من المدارس والشوارع. ويتصدّر تمثاله النصفي، المصبوب من البرونز، صالون المقر الدستوري في تبريز. وكتب على لوحة تحته: «هوارد ك. باسكرفيل – الوطني وصانع التاريخ».

وباسكرفيل أكثر من مجرّد بطل إيراني. إنه تجسيد للقيم المشتركة التي تربط الإيرانيين بالأميركيين. فالثورة الدستورية جلبت الأفكار الحديثة إلى إيران قبل أن ترى دول كثيرة في الشرق الأوسط النور، بوقت طويل. وأنتجت هذه الأفكار أمّة ذات جوامع مشتركة مع الولايات المتحدة أكثر قربًا من أي من جاراتها في المنطقة الأكثر اضطرابًا في العالم.

دولة أخرى فقط في هذه المنطقة تشارك إيران تاريخها الطويل من الكفاح في سبيل الديمقراطية، هي تركيًا. فقد تمرّد الإيرانيون على نظامهم الملكي الخانع وأسقطوه في العقد الأول من القرن العشرين. وكذلك فعل الأتراك.

يعود انتشار أفكار المساواة بين الأتراك إلى أوائل القرن التاسع عشر. إذ أعلن السلطان المتنوّر عبد المجيد عام ١٨٣٩ سلسلة من الإصلاحات التي عُرفت بـ«التنظيمات»، بما فيها لائحة من الحقوق المدنية التي تشكِل حقًّا لجميع المواطنين

بغضّ النظر عن دينهم أو هويتهم الاجتماعية. وبلغت حقبة الإصلاحات ذروتها مع الإعلان عن دستور ١٨٧٦ وعن برلمان مُنتخب بعده بمدة قصيرة. بيد أن السلطان الجديد عبد الحميد علّق الدستور في غضون سنة. وحل البرلمان وحكم طوال العقود الثلاثة التالية بالفرمانات، قامعًا المعارضة، وقائدًا جيشًا من الجواسيس، فأصاب ظلّه المجتمع بالشلل.

أزكت مجموعات من الراديكاليين الأتراك في باريس وغيرها من المدن الأوروبية الشعلة الديمقراطية. فشكّلوا لجانًا، وأصدروا النشرات الإخبارية، ودرسوا تاريخ الثورات السابقة. وحاول بعضهم عام ١٨٩٦ خلع السلطان، وفشلوا، لكن أفكارهم الراديكالية استحوذت على الكثيرين من الوطنيين الشبّان.

كان أحد هؤلاء المثاليين تلميذ ضابط طموحًا اسمه مصطفى كمال، شرع، بعد دخوله المدرسة الحربية العثمانية عام ١٩٠٢، في مطالعة مناشير تُهرَّب من أوروبا إلى البلاد. بل وباشر وغيره من تلامذة الضبّاط إصدار صحيفة سرّية خاصة بهم. وسرعان ما تم اكتشافهم ولم يتخلّصوا من العقاب إلا بفضل شفاعة مدير الكلّية العسكرية غير السعيد هو أيضًا بالنظام الاستبدادي.

أوقع كمال نفسه من جديد في المشكلات بعيد تخرّجه؛ فقد أعطى أحد المخبرين اسمه كعضو في خليّة غير شرعية تتكرّس لدراسة كتب فولتير وتولستوي(١). وأمضى أسابيع عدّة في السجن العسكري، إلى أن وافق أحد القضاة المتعاطفين معه على وضع جريمته في خانة طيش الشباب. فأُطلق وعُيّن في مركز في دمشق البعيدة.

لم يعرف كمال، حتى ذلك الحين، إلا المدن النابضة بالحياة والكوزموبوليتية. فقد وُلد وترعرع في بوتقة سالونيك الثقافية – وهي اليوم مدينة تسالونيكي ثاني أكبر مدن اليونان – محاطًا بالأتراك، ولكن أيضًا باليونانيين واليهود والمهاجرين الوافدين من أصقاع أوروبا وما وراءها. وعاش، وهو تلميذ ضابط، في اسطنبول

(١) Deane Fons Heller, *Atatürk: Hero of Modern Turkey* (New York: Julian Messner, 1972), p. 39.

التي تُعدّ واحدة من أكثر عواصم العالم تألقًا في تنوّعها. وتوقف مدة، وهو في طريقه إلى مركزه الجديد، في بيروت «باريس الشرق الأوسط» التي يضج هواؤها بالطاقة وبالإثارة. وشكّلت دمشق نقيضًا تامًا لهذا كلّه، وهي القلب النائم لبلاد العرب القديمة. عاش معظم سكّانها، كما عاش أسلافهم منذ ألف عام أمّيين، عالقين في شباك التقليد الديني المضجرة، التي لم يمسّها العالم الخارجي وهي إلى حد كبير غير مدركة وجوده. أصابت دمشق كمال ابن الرابعة والعشرين بالاشمئزاز. وكتب لاحقًا أنه وجد «كل ما فيها سيّئًا»(١).

كتب أحد واضعي سيرته أنه «تعرّف للمرّة الأولى إلى مدينة لا تزال تعيش في ظلام العصور الوسطى. كانت دمشق مدينة أموات. فشوارعها الضيقة التي ذَرَعها سيرًا بعد حلول الظلام مهجورة وصامتة. ولم يصدر أي صوت من داخل أسوار المنازل العالية. وسمع، لدهشته، في إحدى الليالي صوت موسيقى ينساب من أحد المقاهي. نظر إليه ليجده يعج بالإيطاليين العاملين في خط سكة الحافظ، يعزفون الماندولين ويغنون ويرقصون مع زوجاتهم وبناتهم. لم يمكنه دخول المكان لأنه ضابط بالبزة الرسميّة. وبنزوة منه، توجه إلى منزله وبدّل ثيابه وارتدى ثيابًا خشنة وعاد للانضمام إليهم في ملذّاتهم المرحة والتي ليس فيها حرج... شعر كمال في دمشق أنه في سجن يتوق إلى كسر قضبانه، ولبث الحياة في هذا المجتمع الراكد. ووجد الترياق، طبعًا، في العمل السياسي»(٢).

وقع كمال في أحد الأيام، وهو يجول في الشوارع الخلفية لدمشق، على متجر يبيع كتبًا باللغة الفرنسية التي تعلّم قراءتها. ووُجدت بينها روايات ومجموعات من النقد الاجتماعي(٣).

وسأل صاحب المتجر وقد تولّته الدهشة: «من أنت؟ أتاجر أم فيلسوف؟»

(١) Vamik D. Volkan and Norman Itzkowitz, *Th e Immortal Atatürk: A Psychobiography* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), p. 53.

(٢) Lord Kinross, Atatürk: *The Rebirth of a Nation* (New York: William Morrow, 1985), p. 23.

(٣) المصدر نفسه ص. ٢٣-٢٤.

واتضح أن صاحب المتجر هو الاثنان معًا. ودعا، بعد نحو ليلتين، كمالًا إلى منزله، وجلب الأخير معه ضابطين يشاطرانه التفكير. وتحادثوا ساعات. وأفضى أحد الضابطين من دون تفكير بأنه على استعداد «للموت من أجل الثورة». غير أن كمالًا امتلك فكرة أخرى.

وقال، في بساطة: «ليس هدفنا الموت، بل القيام بالثورة وتحويل أفكارنا واقعًا».

شكّل كمال ومجموعة صغيرة من رفاقه خريف العام ١٩٠٥ جمعيّة «الوطن» السرّية الهادفة إلى إطاحة الحكم الاستبدادي ومنح الحكم الذاتي للأتراك. واستغلّ، طوال الأشهر القليلة التالية، أسفاره في إطار واجباته العسكرية الظاهرة لإقامة فروع لـ«الوطن» في المراكز العثمانية المتقدّمة في يافا وبيروت والقدس. وتعهّد كل عضو جديد القتال حتى الموت من أجل قضيّة الثورة، ثم قبّل مسدّسًا كرمز لالتزامه.

نُقل كمال، بعد مدة قصيرة، إلى بلدته سالونيك في إطار تشكيلات الضبّاط. ولا توجد إلا أماكن قليلة في العالم تمتلك مثل هذا التقليد التآمري. فمنذ نحو ألفي عام، أنشأ القديس بولس خلايا مسيحية سرّية في سالونيك التي رحّبت مذذاك بكل أنواع المتآمرين والحالمين والمتمرّدين. اندمجت جمعية كمال الثوريّة مع جمعيّات أخرى عدّة في ائتلاف سمي «جمعيّة الاتحاد والترقّي»، وعُرفت في الخارج بـ«تركيّا الفتاة»[1]. ووفق التقليد السالونيكي الحق، اعتمد قادة «جمعية الاتحاد والترقي»، في إدخال الأعضاء الجدد، مراسمَ مُتقنة تتضمن عصبة العين والسيف والقسم. بل إنهم صمّموا شعارًا تغلب عليه صورة كتاب وهلال يحمل عبارة «الأخوّة، الحرّية، المساواة، العدالة».

اشتعلت الأمبراطورية العثمانية، وهي على طريق الزوال، بنار الثورة. ثار الناس في عشرات المدن احتجاجًا، وأحيانًا بسبب أمور محلّية مثل فقدان الحبوب، ولكن

(١) Caroline Finkel, *Osman's Dream: The History of the Ottoman Empire* (New York: Basic Books, 2007), p. 510.

بمطالب تدعو إلى حكم أشدّ ابتعادًا وأكثر تجاوبًا. وانفجر الغضب بسبب فقدان ثلاثة أقاليم عثمانية رئيسة – بلغاريا والبوسنة ـ الهرسك، وكريت – في غضون بضعة أسابيع وحسب، ربيع العام ١٩٠٨.

وشهد ذلك الربيع نفسه تمرّد بضع مئات من الجنود في سالونيك على السلطة العثمانية، نهبوا مستودعات الأسلحة وتمركزوا في التلال. فأمر السلطان عبد الحميد قائده المحلّي بسحق التمرّد، لكن القائد اغتيل. فبعث السلطان جنودًا من الداخل التركي. لكنهم لم يفشلوا وحسب في هزم المتمرّدين بل انضمّوا إليهم في سيرهم المملوء بالتحدّي إلى اسطنبول.

حاك زعماء «تركيا الفتاة» هذه الاحتجاجات، في مهارة، في حركة موحّدة ومطلب واحد: على السلطان إعادة فتح البرلمان الذي أقفله قبل ثلاثين عامًا. وبعثت مجموعة منهم إلى السلطان بإنذارٍ مُتوعدٍ يحذّر من أن عدم موافقته سيؤّدي إلى «سفك الدماء وتعرّض السلالة الحاكمة للخطر»[1].

سئم الأتراك، على غرار إخوتهم في الجانب الآخر من الحدود في إيران، الحكم الاستبدادي وأسكرتهم الأفكار الأوروبية عن الحرّية والحكم الذاتي وحقوق الإنسان. واضطر السلطان عبد الحميد إلى مواجهة واقع أن هذه الأفكار أصابت الكثير من جسم ضبّاطه بالعدوى. ولم يشأ المخاطرة بعرشه فوافق على السماح بإجراء انتخابات للبرلمان الجديد. وشكّل هذا انهيارًا ساحقًا للسلطة الاستبدادية، فانفجرت اسطنبول بهجة.

وجاء في إحدى الروايات أن «الأولياء المسلمين والكهنة المسيحيين والحاخامين اليهود شبكوا أذرعتهم وساروا في مواكب. وتداخلت الدعوات من منارات الجوامع مع أصوات أجراس الكنائس احتفالًا بفجر ألفية «تركيا الفتاة»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥١١.

(٢) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 60.

تغيّرت الحياة التركيّة بين ما يشبه الليلة وضحاها[1]. فتوقّفت الصحف عن رفع مقالاتها إلى المراقب السلطاني لمراجعتها. وباتت الكتب الممنوعة تُعرض للبيع وأصبحت الأفكار الهدّامة التي تظهر في صفحاتها هي الشعارات التي تُطلق للحشد السياسي. وعمد العمّال الذين طال استغلالهم إلى إعلان الإضرابات. وأسست الكاتبة النسائية الشابة خالدة أديب، «جمعية رقيّ المرأة»، ولم تكتف النساء في اسطنبول وغيرها من المدن بالتجوّل في الشوارع سافرات الوجه بل شاركن في الاجتماعات السياسيّة وأنشأن مجموعات ضغط. وأخذت سلطة السلطان الذي بُجّل بصفة كونه «ظل الله على الأرض»، في التقوّض.

لم يسمح لأبناء الشعب التركي بالتصويت لأكثر من جيل كامل. لكنهم تدفقوا نحو صناديق الاقتراع عام ١٩٠٨. وانعقد البرلمان الجديد بالكثير من الأبهة. وبعد ذلك ببضعة أشهر قمعت القوات العسكرية الموالية للنظام الديمقراطي، والتي تطلق على نفسها اسم «حركة الجيش»، الثورة المضادة التي قام بها أنصار الملكية. وهو ما زاد في إلهاب الحركة الإصلاحية اندفاعًا.

في ٢٨ نيسان/أبريل ١٩٠٩، وبعد سلسلة من الخطب الوطنية الحماسية، كلّف البرلمان أربعة من أعضائه، هم أرمني، ويهودي، ومسلمان، مهمّة تاريخية[2]. توجّهوا إلى قصر يلدز، وطلبوا دخول حرمه الداخلي، وأعلنوا أن «الشعب» قرّر أن على السلطان التنازل عن العرش. ولم يكن أمامه من خيار سوى الانصياع.

اعتقد السلطان عبد الحميد، طوال ساعات قليلة، أنه سيُنقل وحسب إلى قصر سيراغان الأصغر حجمًا، ولكن الفخم، والذي استُخدم، سنوات، سجنًا ذهبيًا لغير المرغوب فيهم من أفراد الأسرة المالكة. بيد أن الجيش أبلغه، ليلتذاك، أن عليه المغادرة على الفور إلى المنفى. صعد، برفقة اثنين من أبنائه وعدد قليل من خليلاته،

(١) Finkel, *Osman's Dream*, p. 514.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥١٧؛ Andrew Mango, Atatürk: *The Biography of the Founder of Modern Turkey* (London: John Murray, 1999), p. 88.

في عربة نُقلوا فيها إلى محطّة القطار وأُرسلوا إلى المنفى في سالونيك. وانتهى بذلك ثلاثون عامًا له في السلطة خسرت خلالها الأمبراطورية العثمانية حروبًا وقمعت الديمقراطية وأصبحت «رجل أوروبا المريض». وحلّ محلّه شقيقه الأحمق، ولن يصبح بعد ذلك أي سلطان عثماني أكثر من مجرّد رئيس صوري.

أطلقت ثورة «تركيا الفتاة» عام ١٩٠٨، وقد أعقبها بعد ذلك بسنة خلع السلطان عبد الحميد، دفعة من الإصلاحات التي لم يسبق للأتراك أن عرفوها قبلًا. ظهرت الأحزاب السياسية، وفرّخت مجلات جديدة وصحف، وصودرت ثروة العائلة المالكة، وأُبطلت القوانين التي تقيّد الأعمال، وفُتحت المصارف في الكثير من المدن، وبُنيت الطرق والجسور، وزيدت موازنة التربية ستّة أضعاف، وشُجّعت الفتيات على الالتحاق بالمدارس. وعُدّل الدستور لإعطاء البرلمان المزيد من السلطة. بيد أن عناصر «تركيّا الفتاة» الحرصاء، فوق كل شيء، على إنقاذ الدولة، حذِروا من الديمقراطية ولم يتردّدوا في تقييد الحريّات العامة كلّما رغبوا في ذلك. ومع ذلك تميّزت ثورتهم بالعمق. وقد يكون أفضل ما أنجزته هو إلهام جيل من الوطنيين من أصحاب الرؤية ممن سينتجون، على مرّ السنوات التالية، نظامًا جديدًا في شكل جذري.

جاءت هذه الأحداث الصاخبة نتيجة التاريخ التركي، ولم ترتبط مباشرة بانتفاضات إيران المجاورة. بيد أن تزامن نجاح البلدين في ثورتيهما الديمقراطيتين يشكّل أكثر من مجرّد مصادفة. فيوم قُتل هوارد باسكرفيل في تبريز، شرع جنود «حركة الجيش» الأتراك في محاربة سلطة السلطان في اسطنبول. وأمكن الأتراك والإيرانيين، في غضون نحو شهرين وفي شكل لا يكاد يُصدّق، تحرير أنفسهم من نظامين ملكيين فاسدين. وأضيئت طريقهم إلى الحرّية في شكل مفاجئ ورائع.

مرّ قرن على تحوّل إيران وتركيّا إلى الديمقراطية. وهو قرن من التقدّم غير الثابت. حقّق الإيرانيون والأتراك انتصارات ملحمية، لكنهم عانوا أيضًا هزائم دامية. وكوّن الشعبان، من خلال كفاحهما الطويل، فهمًا للديمقراطية وتوقًا إليها مما يجعل منهم رفاق روح للأميركيين.

ويوحي تاريخ تركيا وإيران الحديثتين أن الديمقراطية يمكنها أن تضرب جذورها في أي مكان، ولكن بتوالي الأجيال، فحسب. ولا يمكن بثّ الحياة فيها بمجرّد الإعلان عن دستور أو إجراء انتخابات. فالديمقراطية ليست حدثًا بل أسلوب في مواجهة العالم، ومقاربة شاملة للحياة. ولا يمكن إلا سنوات طويلة من التجربة أن تحوّلها واقعًا. وهي تجربة لا يمتلكها في الشرق الأوسط المسلم إلا دولتان: تركيا وإيران.

أضحت تركيا الدولة المسلمة الأكثر ديمقراطية في العالم، وفي هذا إثبات حيّ على أن في إمكان الإسلام والحريّة أن يزدهرا جنبًا إلى جنب. وهي منذ عقود عضو في منظمة حلف شمال الأطلسي وعلى علاقة وثيقة بالولايات المتحدة. وها هي تنطلق في المشروع الدبلوماسي الأكثر طموحًا في تاريخها وفي مسعى إلى بسط سلطتها عبر حل النزاعات الإقليمية بالحوار والتسوية. ويتناسب هذا الأسلوب جيّدًا مع المقاربة الأميركية الجديدة للسياسة العالمية والأكثر تعاونًا معها.

ولا ينبض القلب الديمقراطي، في حماسة، على غرار تركيّا إلا في دولة مسلمة واحدة أخرى في الشرق الأوسط، هي إيران، الدولة الوحيدة التي قد تبرز فجأة كمنافس لتركيا، بل وحتى تتفوّق عليها على صعيد الحرّيات السياسية. استجلب انفجار الاحتجاجات على أثر انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية الإيرانية المتنازع عليها قمعًا عنيفًا، لكن ذلك شكّل أيضًا تأكيدًا مثيرًا أن المُثُل الديمقراطية تجذّرت عميقًا في تلك البلاد. فمن تحت الطبقة السميكة من حكم رجال الدين، يزدهر مجتمع مدني حيّ. وما من جيل في العالم يفهم الديمقراطية أفضل مما يفهمها الشباب الإيراني أو يتمنّاها بقدر أكبر من الحرارة. وتشكّل حميّتهم جزءًا من جسر القيم الذي يربط بين إيران والولايات المتحدة ويوفّر الأساس لشراكة مستقبلية سليمة.

ولهذين البلدين مصالح حيوية مشتركة، على رغم حال العداء المستمرة بينهما منذ أكثر من ربع قرن. كلاهما يريد عراقًا مستقرًّا، وكذلك أفغانستانَ مستقرّة وباكستانَ مستقرّة. وكلاهما يكره الحركات الراديكالية السنّية مثل القاعدة والطالبان. ويودّ

كلاهما الحد من النفوذ الروسي في الشرق الأوسط. وتحتاج إيران إلى استثمار ضخم في بنيتها النفطية المتهاوية؛ والشركات الأميركية في موقع مثالي لتقديم ذلك.

توجد أسباب ثقافية وأخرى سياسية تحول دون سهولة الوصول إلى اتفاق مع إيران. وقد يتطلّب الأمر أيضًا ظهور نظام جديد في طهران. بيد أن المنطق يدفع بهذين البلدين أحدهما في اتجاه الآخر، لأن ثقافتيهما السياسيتين ومصالحهما الاستراتيجية تتقاطع تمامًا.

وللشّركة التي تجمع بين تركيا وإيران والولايات المتحدة مغزاها، لسببين هما أن لهذه البلدان الثلاثة مصالح استراتيجية مشتركة فضلًا عن أن القيم المشتركة تجمع بين شعوبها. وهذا هو «مثلّث القوّة» الجذّاب للقرن الواحد والعشرين.

أما المثلّث القديم – وهو في الواقع علاقتان ثنائيتان مزدوجتان تجمعان بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وبين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية – فقد خدم جيّدًا مصالح واشنطن إبان الحرب الباردة. لكنه لم ينتج عنه شرق أوسط مستقر. بل على العكس فإن المنطقة تتمزّق جرّاء العنف والكره والإرهاب والحرب. بيد أن على الولايات المتحدة مواصلة انخراطها في هذه المنطقة للأسباب الاقتصادية والاستراتيجية معًا. ويمكن التعريف بمأزقها في شكل بسيط: تريد أميركا استقرار الشرق الأوسط، لكن سياساتها تحدث التأثير المعاكس. فما هي السياسات الجديدة التي يمكن أميركا تبنّيها لتستبدل بها تلك التي فشلت؟

هاكم أحد الأجوبة: أوّلًا، بناء علاقة شركة مع تركيّا أكثر وثوقًا من ذي قبل، وفي المستقبل مع إيران الديمقراطية. وثانيًا إعادة صياغة العلاقات مع إسرائيل والسعودية بطرق تخدم مصالحهما البعيدة الأمد ومصالح الولايات المتحدة – حتى لو أثار ذلك الاحتجاجات.

تستحق إسرائيل معاملة أميركية خاصة لكل من الأسباب التاريخية، ولأن من غير الممكن الوصول إلى سلام إقليمي من دون ضمان أمن إسرائيل. غير أن أميركا

عاملت إسرائيل أحيانًا في شكل أضعف أمن الدولة العبرية. وأصبح الرابط بين البلدين مشوّهًا. وفشلت الولايات المتحدة، نتيجة لذلك، في تسويق سياسات تضمن استقرار إسرائيل على المدى الطويل. وترنّحت بدلًا من ذلك من أزمة إلى أزمة وقد أضحت رهينة التركيبة الصاخبة للسياسات الداخلية الإسرائيلية. ومن الصواب أن تساند أميركا إسرائيل، ولكن ليس بالطريقة التي تقوم بها الآن.

أضحى النزاع الطويل الأمد بين إسرائيل والفلسطينيين، في أفضل الحالات وفي أسوإها، نزاع العالم. فهو يقوّض، في استمرار، استقرار الشرق الأوسط، ويعرقل تسوية الأزمات الملحّة، ويزيد في حدّةِ ما يلوح في الأفق من تهديدات للغرب. ولكن يتضح مع ذلك، وفي شكل مؤلم، أن السلام لن يحدث، إذا تركت مهمة الوصول إليه للأطراف المتحاربين. ولا يمكن تسويةَ النزاع أن تخرج من الداخل. إذ لا يمتلك أي من إسرائيل والفلسطينيين الوسائل الثقافية والسياسية والنفسية أو المؤسّاتية للقيام بالتسويات التي يتطلّبها السلام. فقد استقرّ نموذج النزاع عميقًا جدًّا في الكثير من الأذهان.

وليس من الصداقة في شيء السماح لصديق بأن يترنّح صوب دمار الذات. وهذه عادة تحتاج الولايات المتحدة إلى كسرها فيما تستمر في متابعة علاقة أغنى وأكثر دعمًا بكثير مع إسرائيل.

أما السعودية فتشكّل لأميركا تحدّيًا مختلفًا كلّيًا. ويُعدُّ قرار الولايات المتحدة احتضان المملكة الدينية واحدًا من أغرب رهانات القرن العشرين.

تعتمد الأسرة التي حكمت السعودية منذ إنشائها عام ١٩٣٢ على دعم حليفين حيويّين: الولايات المتحدة، ورجال دين الطائفة الإسلامية الوهّابية. وهي بالنسبة إلى أميركا توفّر إمدادًا ثابتًا من النفط وسوقًا غنيّة لمتعهّدي الدفاع. ويحصل الأصوليون الوهّابيون على أمر مختلف كلّيًا: نظام ديني خانق في البلاد، ودعم لشبكة عالمية من الجوامع والمدارس الدينية يتعلّم فيها جيل من الصبية الضائعين ترتيل القرآن وكره أميركا. ولا يمكن مثل هذه السياسة المتناقضة إلّا أن تولّد انفجارًا. وهو ما

حدث في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. فمن أصل الخاطفين التسعة عشر الذين استولوا على الطائرات في ذلك اليوم، إضافة إلى القائد الإرهابي الذي أوفدهم لِيَقتُلوا، كان خمسة عشر من السعوديين.

بدت شِرْكة واشنطن مع السعودية منطقيّة خلال الحرب الباردة. فالسعوديون هم في الوقت نفسه من المناهضين المناضلين للشيوعية ويتمتّعون بثروة لا يمكن تصوّرها. فأغدقوا المال حيثما احتاجت إليه الولايات المتحدة لمحاربة الماركسية، من أنغولا إلى نيكاراغوا فأفغانستان. ولم يمكن مقاومة الرسالة التي وجّهوها إلى الولايات المتحدة ومفادها: نمتلك مبالغ عظيمة من المال، ويمكنكم الحصول على القدر الذي تريدونه منه، إنما لا تنظروا، في دقة شديدة، إلى ما يحدث في داخل مملكتنا.

أدّت نهاية الحرب الباردة، في شكل حتميّ، إلى تباعد لطيف بين الولايات المتحدة والسعودية. وأصابت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر العلاقة بصدمة حادة أخرى. وصعُبت على الأميركيين مواصلة التغاضي عن دور السعودية في التحريض على الإرهاب الدولي.

تمتلك السعودية والولايات المتحدة بعض المقاربات المشتركة للسياسات الدولية؛ فكلاهما يرتاب بالعالم الخارجي، وكلاهما يزدهر على وجهات النظر المبالغ فيها حيال قوتهما الذاتية، ولا يُعرف عن أي منهما اعتماده الدبلوماسية اللطيفة. ولكن لا يوجد، لناحية القيم، ما يربط أميركا بالمملكة الصحراوية حيث المواعدة محظورة، وتُمنع النساء من قيادة السيارات، وتحكم العائلة المالكة بالمراسيم. فتحالف المصلحة هو الذي جمع الولايات المتحدة والسعودية، في شِرْكة زواج من دون حب. وستستمرّان، في القرن الواحد والعشرين، في التعاون، سوى أن كلًّا منهما ستزدهر بإبعاد نفسها عن الأخرى.

لا يمكن إعادة صياغة العلاقات التي تربط أميركا بإسرائيل وبالسعودية بجرَّة

قلم. ولا يمكن «مثلّث قوة» جديدًا – الولايات المتحدة وتركيّا وإيران – أن يظهر بين ليلة وضحاها. فعلى إيران أن تتغيّر جذريًّا من أجل أن تصبح شريكًا أميركيًّا ذا ثقة. وعلى تركيّا أيضًا أن تتغيّر وإن ليس بالقدر نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الولايات المتحدة. بيد أن عالمنا لا يتقدّم إلا نتيجة للرؤية الاستراتيجية. ويأتي في المقام الأول المفهوم الكبير، أي الغاية؛ وما إن تتضح الغاية حتى يمكن جميع الأطراف التركيز على إيجاد الوسيلة لبلوغها.

لا يوجد مكان في العالم تنتفي فيه، في شكل مؤكّد، الاستراتيجية الجامعة، أو يحتاج يائسًا إليها، أكثر من الشرق الأوسط. فعلى مدى سنوات كثيرة، تخبطّت القوى الخارجية – وبخاصة الولايات المتحدة – في صحارى المنطقة المانعة وسهوبها وحقول نفطها بسياسات شكّلت فشلًا واضحًا. وباتت التهديدات الخارجة، في ثبات، من الشرق الأوسط، خلال تلك الحقبة، أكثر إلحاحًا ورعبًا. ولم يعد الاستمرار في الارتباط بالسياسات الفاشلة أمرًا أحمق وحسب، بل وخطر أيضًا. وهو ما تفعله الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. فما هو البديل؟ هذا الكتاب يطرح واحدًا.

تسعى الصفحات التي تلي إلى شرح الماضي لتقترح من ثمّ طريقة لإعادة تصفير عدّاد السياسة الأميركية في المنطقة الأكثر تقلّبًا في العالم. وتأتي في البداية رواية للتاريخين الحديثين لتركيا وإيران، وهي تُظهر كيف عمل هذان البلدان، طويلًا وفي حماسة، في اتجاه الديمقراطية. ثم تليها عمليّة تنقيب في العلاقتين الأكثر قدمًا في الشرق الأوسط: تلك التي تربط الولايات المتحدة بالمملكة العربية السعودية، وتلك التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل. ويؤدّي هذا إلى استنتاج منطقي، ولو أنه استنتاج قد يبدو مُذهلًا لأنه يدفع إلى ما هو أبعد من الخيارات السياسية الضيقة التي كثيرًا ما تطغى على المخيّلة الأميركية العالمية. وهي تستجمع منطق التاريخ لمخاطبة المستقبل.

الجزء الأوّل

من أجل الشعب، رغماً عن الشعب

١
حياة العرض الحقيقيّة وروحه

فجر الثاني عشر من أيار/مايو ١٩١١، وصل السيّد الذي كوته الشمس وغطّاه الغبار ونزل من العربة غير المريحة في طهران، وصول رجل القانون إلى مدينة أصابها الرعب. جاء لمساعدة البلاد التي عاشت العزّ وتهاوت أمجادها السابقة في صورة بائسة. فقد وقّعت قوّتان أجنبيتان، هما روسيا وبريطانيا، «ميثاقًا» يتقاسمان فيه إيران. واحتاجتا، لإنجازه، إلى سحق البرلمان الإيراني الوليد. وبحث أعضاء البرلمان يائسين عن طريقة للمقاومة وإنقاذ ديمقراطية بلادهم. وقرّروا أن ليس لديهم إلا أمل واحد، هو استخدام أميركي.

وافق مورغان شوستر، الرجل الذي عثروا عليه، على أن يتولى طوال ثلاث سنوات المركز الذي ابتدعه البرلمان خصّيصًا له: أمين صندوق الأمبراطورية الفارسية. وقُصد من تعيينه، من دون أن تتوافر لذلك أي أداة أخرى غير القانون، إجبار الروس والبريطانيين على الانصياع لمشيئة البرلمان.

شكّل الاستنجاد بأميركي خطوة منطقية بالنسبة إلى الديمقراطيين الإيرانيين. فقد استلهموا من الولايات المتحدة بصفة كونها المستعمرة البريطانية السابقة التي تخلّصت من قيودها واتجهت إلى الحكم الذاتي الرائع، تمامًا كما أملت إيران في فعله.

دوائر النفوذ في إيران: الميثاق (الأنجلو-روسي) في ١٩٠٧

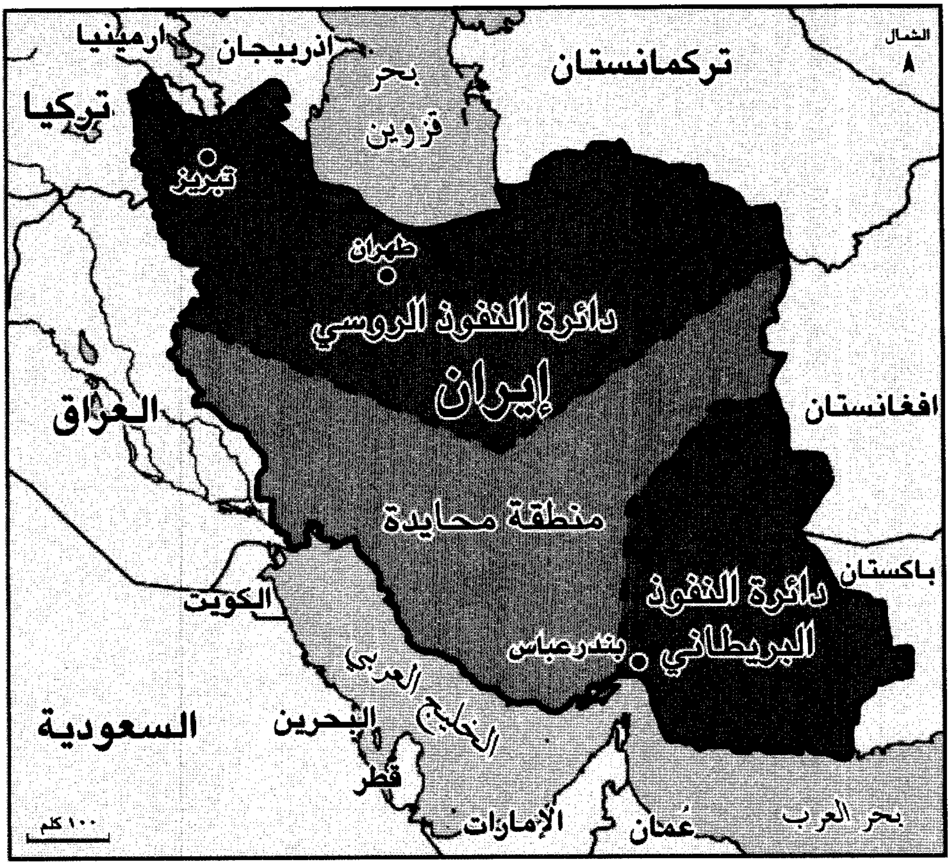

وكتب أحد المؤرّخين أن «الولايات المتحدة بدت، في هذه المرحلة، الشريك الذي طالما أملت إيران في إيجاده في الغرب – معاديًا للإقطاع، مناهضًا للاستعمار، حديثًا لكنه ليس إمبرياليًّا – قوّة أجنبية متعاطفة حقًّا تُعامل إيران، لمرّة، في احترام. وإذا عَدَدْنا بريطانيا وروسيا القرن التاسع عشر الشقيقتين الشريرتين، يصبح مورغان شوستر والولايات المتحدة، في تلك الحقبة، بمثابة الأمير الساحر»[١].

(١) Michael Axworthy, *A History of Iran: Empire of the Mind* (New York: Basic Books, 2008), p. 209.

امتلك شوستر، على الرغم من أنه لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من العمر، خبرة مثيرة للإعجاب في فن تنظيم البلدان الفوضوية، وهو الفن القاصر على فئة قليلة من الناس. فقد صمّم النظام الضريبي في الفيليبين حيث عمل تحت إمرة الحاكم العام وليام هوارد تافت، وأصبح بعد ذلك مديرًا لجهاز الجمارك الكوبي. واكتسب، في المنصبين، سمعة بصفة كونه يعمل في اجتهاد كلّي وغير قابل قط للإفساد.

وكتب لاحقًا: «لم أحلم قط، قبل تعييني، بأن أذهب إلى بلاد الفرس. سوى أن فصاحة القائم بالأعمال الفارسي في واشنطن، ميرزا علي كولي خان، بدّدت مخاوفي السابقة، وقرّرت في النهاية القيام بما أمكنني لمساعدة الشعب الذي قدّم الدليل المؤكّد إلى إيمانه الراسخ بمؤسساتنا ومناهجنا التجارية»[١].

أعطى شوستر، لدى وصوله إلى طهران، انطباعًا فوريًا ومذهلًا، ليس لأمر فعله بل لما لم يفعله. إذ يقوم الأجانب، عادة، بزيارة دبلوماسيين من روسيا وبريطانيا – وهما البلدان اللذان اقتطعا إيران، قبل ذلك بأربعة أعوام «منطقتي نفوذ» – يرجونهم السماح لهم بالشروع في العمل. وتجاهل شوستر هذه العادة. وأعلن أنه لن يقدّم الطاعة إلى أحد بما أنه لا يعمل إلا لمصلحة البرلمان.

شكّلت تلك بداية صعوده وسقوطه.

خطت إيران، في السنوات الخمس التي أعقبت ثورتها الدستورية، خطوات ملحوظة في اتجاه الديمقراطية. فأجري انتخابان. وهُزمت الثورة الملكيّة المضادة – تلك التي قُصف فيها مبنى البرلمان وقُتل هوارد باسكرفيل. وأُعطي حق الاقتراع العام للذكور. وخُصصت مقاعد للأقليات الدينية في البرلمان. وبرز حزبان سياسيّان قويّان، أحدهما يؤيّد حقوق المرأة والتعليم العام، والآخر يسوّق للقيم الدينية المحافظة.

بيد أن هذه الديمقراطية الحيويّة لم تكن إلا ظلًّا. فلم يملك البرلمان سلطة على

(١) Morgan Shuster, *The Strangling of Persia: A Record of Europe an Diplomacy and Oriental Intrigue* (London: T. Fisher Unwin, 1912), p. 4.

معظم البلاد، وتجاهل المحتلّون البريطانيون والروس قوانينه. وباتت المواجهة حتمية بين القوى الإمبريالية الحاكمة والبرلمان الذي يحاول تأكيد نفسه في اضطراد.

بعد أيّام قليلة على وصول شوستر إلى طهران، زاره زعماء البرلمان في قصر أتاباك، وهو كناية عن دارة حجرية مؤلفة من ثلاثين غرفة أعطيت له لتشكّل مكتبًا ومقرًّا للإقامة. وأبلغهم أنه سيتبع المبدأ نفسه الذي وجّه عمله في الفيليبين وكوبا: فالنظام الضريبي أساس لا غنى عنه للدولة المستقرّة، ويجب بالتالي جباية الضرائب، في فاعلية وعدم انحياز. بيد أن الكثيرين من ملّاكي الأراضي الأثرياء في إيران عاشوا تحت الحماية البريطانية أو الروسية لا يدفعون أي ضريبة للحكومة المركزية. وهم لن يفعلوا ذلك إلّا مكرهين.

طلب شوستر من البرلمان إنشاء قوة شرطة مؤلفة من ١٢ ألف رجل مكرّسين حصرًا لفرض القوانين الضريبية. وافق البرلمان وبدأت عملية التجنيد. وأرسلت القوّة المُدرَّبة الأولى لمصادرة أملاك المتخلّفين عن دفع الضرائب في دائرة النفوذ الروسية. وهو ما أشعل أزمة فادحة.

ثارت ثائرة القيصر نيكولا الثاني فبعث آلاف الجنود إلى القواعد الروسية في شمال إيران وهدّد باحتلال طهران إذا لم يوقف البرلمان انتهاكاته. وشاركت بريطانيا في صليل السيوف ودعمت حامياتها في الجنوب.

لم يُحجمْ شوستر، وكتب لاحقًا أن البرلمان «مثّل أفضل تطلّعات الفرس بما هو أصدق من أي جهاز آخر وُجد أبدًا في تلك البلاد. وله صفة تمثيلية بقدر ما تتيحه له الظروف الصعبة التي تحيط بوضع الحكومة الدستورية. وقد حظي بالدعم المخلص من الجمهور الفارسي العريض، الذي يكفي وحده لتبرير وجوده. بيد أن الحكومتين الروسية والبريطانية عمدتا دائمًا إلى إصدار التوجيهات لممثليهما في طهران بالعمل على الحصول على امتياز ما أو عرقلة آخر، وقد أخفقتا تمامًا في أن تدركا أن الأيام

التي كانت فيها شؤون ١٢ مليون نسمة وحياتهم ومصالحهم في أيدي حاكم مستبد تسهل إخافته وقابل طوعًا للرشوة، قد ولّت»[١].

بدأت المواجهة النهائية منتصف يوم التاسع من كانون الأول/ديسمبر ١٩١١، بإنذار أخير وجّهه السفير الروسي في طهران إلى البرلمان بإنهاء خدمات شوستر في غضون ٤٨ ساعة – وبتعهده أيضًا «ألا يستخدم رعايا أجانب في خدمة بلاد فارس من دون أن يحصل على موافقة مسبقة من المفوّضيتين الروسية والبريطانية»[٢].

استفظع الكثيرون من الإيرانيين هذا الطلب الصريح، وهم الذين استحوذ عليهم إصرار شوستر على الدفاع عن الديمقراطية ووجد نفسه فجأة يجسّد أحلام الأمة. وارتفعت صيحات الوطنيين دفاعًا عنه. ونفّس واحد من أحب الشعراء إلى نفس الأمة، عارف قزويني، عن هواه في «تصنيفٍ»، أو أغنية شعبية:

السارق خرج ليسرق وقاطع الطريق ليسلب، يا صديقي،

سيصبح تاريخنا أضحوكة العالم إذا سمحنا

لشوستر بأن يغادر إيران،

بأن يرحل شوستر من إيران.

يا حياة الجسد، يا روح العالم، يا كنزًا حقًا، يا متعة أبدية – يا شوستر!

أبقاك الله هنا... أنت جزء منّا، فكيف نحيا بالانفصال عنك، يا شوستر؟[٣]

وتعني موافقة البرلمان على إنهاء خدمات شوستر أنه يقبل حكم القوى الأجنبية لإيران. وسيؤدّي رفضه إلى نتائج مجهولة لكنها رهيبة بالتأكيد. ولمّا التأم البرلمان صباح الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر، عرف جميع أعضائه أن ديمقراطية إيران

(١) المصدر السابق، ص. ٢١٩.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٦٧.

(٣) Yahya Aryanpour, *Az Saba ta Nima: Tarikh- e 150 Sal Adab- e Farsi [From Saba to Nima: A History of 150 Years of Persian Literature]*, vol. 2 (Tehran: Jibi, 1350 [1971]), pp. 167– 68.

الوليدة تواجه أول خياراتها الحاسمة. وقد حضر شوستر الاجتماع، ووصف المشهد في مذكّراته المُحرّكة للمشاعر، «خنق بلاد فارس: (The Strangling of Persia)».

بقيت ساعة على حلول الظهر، وامتلأت أرضية البرلمان ومبانيه بالحشود التوّاقة والمتحمّسة، فيما اكتظّت أروقة المجلس بالأعيان الفرس من كل المستويات وبممثلي الكثير من المفوضيات الأجنبية. وسيتقرّر ظهرًا مصير بلاد فارس كأمّة...

تُلي الاقتراح وسط صمت عميق. وما إن انتهت القراءة، حتى خيَّم السكون على التجمّع. واستوى ٧٦ نائبًا، كبار السن منهم والشبّان، والكهنة والمحامون والأطباء والتجّار والأمراء، في مقاعدهم، متوترين.

نهض رجل دين مسلم محترم، وقد أخذ الوقت ينفد، إذ ما إن يحل الظهر حتى لا يعود لتصويتهم تأثير في المسألة. وتحدّث خادم الربّ هذا، في اختصار، وفي صميم الموضوع: «إذا انتُزعت حرّيتنا وسيادتنا منّا، قد تكون هذه إرادة الله، لكن دعونا لا نوقّع بأيدينا على التنازل عنهما!» وعاود الجلوس في مقعده بعد إشارة واحدة من يديه.

كلمات بسيطة، هذه، لكنها كلمات ذات أجنحة. يسهل التلفّظ بها في النقاشات الأكاديمية، لكن قولها صعب، صعوبة مرّة، على مرأى من مستبدّ قاس وطاغية راقب مبعوثوه في الأروقة المتحدّث وسجّلوه في أذهانهم لإخضاعه مستقبلًا للتعذيب والسجن أو لما هو أسوأ.

أعقبه نوّاب آخرون حذوا حذوه. وساندوا، بمناشدات وقورة ومختصرة، بسبب ضيق الوقت، شرف الأمّة وأعلنوا حقّهم الذي اكتسبوه، في صعوبة، في الحياة وفي حكم أنفسهم.

تم الاقتراع قبل حلول الظهر ببضع دقائق... ومع انتهاء المناداة على الأسماء للتصويت ألقى كل نائب، رجل الدين والعلماني، الشاب أو الثمانيني، بقرعته التي تحتّم مصيره، وراهن بسلامته الشخصية وسلامة عائلته، وأعادوا رشق أسنان الدب الشمالي الكبير بالجواب الإجماعي لشعب يائس ومسحوق فضّل

مواجهة مستقبل من الرعب المجهول على التضحية طوعًا بكرامته الوطنية وما اكتسبه حديثًا من حق في استنباط طرق خلاصه[1].

شكّل التحدّي الذي أطلقه البرلمان دعوة إلى دماره. زحف الجنود الروس على طهران واحتلّوها. ثم وجّه قائدهم أمرًا إلى الخاضع أحمد شاه – بل في الواقع إلى الوصي عليه ذي الثقافة البريطانية بما أن الشاه كان في الرابعة عشرة من العمر فقط – بحل البرلمان وبإنهاء خدمات شوستر. وصدرت الأوامر في سرعة. وبعد ذلك بقليل صعد المحاسب العام للأمبراطورية الفارسية وهو محبط إلى إحدى السيارات ليبدأ رحلة العودة الطويلة إلى الديار.

وكتب شوستر: «انتهت مهمتنا التي تطلّعنا إليها، في سرور وفخر في بلاد فارس، نهاية فجائية وكريهة جدًّا. ولم أتمكن، وأنا أقف وسط حلقة من الأصدقاء الأميركيين والفرس المتجهّمين وعلى وشك الصعود إلى السيّارة، إلّا أن أتذكّر عشيّة وصولي إلى الموقع نفسه قبل ذلك بثمانية أشهر بالتمام، فاجتاحني حينذاك الإدراك، أن جيوش ما يُسمّى بالأمة المتحضّرة والمسيحية سحقت، من دون أي شفقة، آمال شعب محمّدي صبور، عانى طويلًا، في استعادة موقعه في العالم»[2].

انتهت تجربة إيران الأولى مع الديمقراطية وقد سحقتها قوّة أجنبية. لكن ذلك خلّف طبعة حيّة في الروح الجماعية للأمة. اكتشف الإيرانيون ماهية الديمقراطية في سياق سنوات القرن العشرين الأولى. أرادوها – وكادوا يحصلون عليها لو لم يكتشفوا أن بلادهم تقبع فوق محيط من النفط.

يبدو وليام نوكس دارسي في الصور أشبه بالمحامي الفيكتوري الذي هو عليه: بدين، مستدير الوجه، ذو شاربين كثيفين، يضع الغليون، عادة، في فمه فيما تتدلى سلسلة ساعته من سترته. جمع في شبابه ثروة من مساندته عمّال مناجم الذهب

(١) Shuster, *Strangling of Persia*, p. 182.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٢٢٦.

في أستراليا، ثم قام بما يفعله أكثر من رجل في ظروف مماثلة: انتقل إلى أوروبا للتمتّع بأمواله. تزوّج من إحدى الممثلات، وقام بجولات باذخة، وأقام في القصور، واستقدم إنريكو كاروسو للغناء في حفلات العشاء التي أقامها في جادة غروسفينور (لندن). سوى أن ثروته أخذت، مع مطلع القرن العشرين، في النفاد.

بدأ فجر النفط للتو بالبزوغ، ولكن سبق لعلماء الجيولوجيا أن تكهّنوا بالفعل بأن الشرق الأوسط سيصبح مصدرًا غنيًّا بالنفط. وأراد الزعماء البريطانيون معرفة هل تملك إيران أيًّا منه أو لا؛ وفتّش دراسي عن مشروع تخميني يعيد إليه ثراءه. وأصبح الطرفان شريكين مثاليين.

احتاج دارسي، للحفر في إيران، إلى إذن من مظفر الدين شاه، المنحط والمنحرف الصحّة، والذي حكم بمساعدة من المداهنين، وموّل نظامه من خلال بيع الامتيازات من الأجانب. وساعده الدبلوماسيون البريطانيون في ضمان الأمر الملكي اللازم. ورشا، برعايتهم، جميع من في البلاط الملكي من رئيس الوزراء إلى الخادم الذي يأتي الشاه، كل صباح، بغليونه وقهوته. وأعطى اتفاق الامتياز، الموقّع عام ١٩٠١، الحق الحصري لدارسي في التنقيب عن النفط في مختلف أنحاء إيران تقريبًا، ومن ثم، في حال العثور عليه، الحق الحصري في استخراجه وتكريره وبيعه. ودفع، في مقابل هذا الامتياز الذي يمتد ستين عامًا، مبلغ عشرين ألف جنيه استرليني نقدًا، ما يوازي يومذاك حوالى ٩٥ ألف دولار؛ ووعد بدفع مبلغ مشابه عند البدء بالانتاج؛ ووافق على إعطاء إيران ١٦ في المئة من أرباحه المستقبلية[١].

وكتب أحد الباحثين: «ذاك كان العقد الذي تبيّن أنه واحدة من أكثر وثائق القرن العشرين دلالة. ولم يكن في وسع الموقعين عليه توقّع مصيره اللاحق، وما أدى إليه من بروز للمجمّع الصناعي الكبير، وما أثاره من حقد انفعالي، وما استعجله من

(١) Daniel Yergin, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power* (New York: Simon and Schuster, 1991), pp. 119– 21; Mostafa Elm, *Oil, Power, and Principle: Iran's Oil Nationalization and Its Aftermath* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1992), pp. 6– 7.

نزاعات، وهم الذين أدّوا في مدينة بعيدة عن مراكز القوى العالمية، وفي ما يشبه السرّية التامة، دراما لم يدركوا حتى نصف تداعياتها»[١].

الرابعة من صباح السادس والعشرين من أيار/مايو ١٩٠٨، وبعد سنوات عدة من الإحباط، أفاق علماء الجيولوجيا الذين يعملون لمصلحة دارسي على صوت انفجار ضخم في مركز أمامي صخري يُسمى مسجد السليمان. أخذ النفط يتدفق عاليًا في الفضاء. إنه الاكتشاف الأكبر في تاريخ الصناعة النفطية الحديثة.

استوعب ونستون تشرتشل مغزى الأمر تمام الاستيعاب، وهو الذي أصبح القائد الأعلى لبحرية بريطانيا العظمى بعد وقت قصير على هذه الضربة المذهلة. أدرك أن بحريّات البلدان واقتصاداتها الوطنية ستعمل في الحقبة التي ستلي على النفط. وبريطانيا لا تمتلك أيًا منه، ولا أي من مستعمراتها تنتجه. وأدرك تشرتشل، لدى علمه بالدفق الظاهر في مسجد السليمان، أن السيطرة على إيران حاسمة لاستمرار القوة البريطانية في القرن الجديد. وعمل، عشية الحرب العالمية الأولى، على تحويل امتياز دارسي، شركة، هي الشركة الأنغلو ـ فارسية للنفط، على أن تشتري الحكومة البريطانية ٥١ في المئة من أسهمها.

وكتب تشرتشل لاحقًا: «جاءنا الحظ من أرض الأساطير بجائزة أكبر من أكثر أحلامنا غرابة»[٢]. وأضاف: «شكّلت الهيمنة، في حد ذاتها، الجائزة لتلك المجازفة»[٣].

وثبت أن ليس في الأمر أي مغالاة. ولاحظ رجل الدولة البريطاني اللورد كرزون أن الحلفاء، في الحرب العالمية الأولى، «طافوا إلى النصر على موجة من النفط»[٤]. وهو ما جعل الزعماء البريطانيين أكثر تصميمًا من ذي قبل على السيطرة

(١) Firuz Kazemzadeh, *Rus sia and Britain in Persia, 1864– 1914: A Study in Imperialism* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1968), pp. 357– 58.

(٢) Winston S. Churchill, The World Crisis (New York: Scribner, 1928), p. 134.

(٣) المصدر نفسه، ص. ١٣٦.

(٤) «التايمز» (لندن) ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨.

على إيران. وبدا أن البريطانيين يملكون اليد الطولى مع مغادرة الروس – الذين تخلّوا عن مطامعهم في إيران على أثر ثورة العام ١٩١٧ البلشفية. وأرسلوا، أواسط العام ١٩١٨، خمسة وعشرين ألف جندي للانتشار في مختلف أنحاء إيران[١]. وما إن اتخذوا مواقعهم حتى كشف كرزون النِّقاب عن «اتفاق أنغلو ـ فارسي»[٢] مذهل، أحادي الجانب، تُحوّل بريطانيا بموجبه إيران محميّة من خلال السيطرة على جيشها وماليتها وأنظمة اتصالاتها، وشبكة مواصلاتها. وأسهمت الرشاوى السخيّة في إقناع المسؤولين الإيرانيين الثلاثة الذين وقّعوا على هذا الاتفاق، وتلقوا وعدًا بالحصول على الملجأ في الأمبراطورية البريطانية «في حال اقتضت الضرورة ذلك».

عدَّ اللورد كرزون، الحاكم السابق للهند والذي أصبح عام ١٩١٩ وزيرًا للخارجية، أن إيران «واحدة من القطع على رقعة الشطرنج التي تدور عليها مباراة السيطرة على العالم»[٣]. وحاجج، في بلاغة، أن على بريطانيا التمسّك بها مهما كلّف الأمر:

> إذا سئلنا عن سبب تولّينا هذه المهمّة في الأساس، ولماذا يجب ألا ندع بلاد فارس وشأنها ونتركها تتعفّن وتضمحل في شكل مذهل، فالجواب هو أن موقعها الجغرافي، وحجم مصالحنا الكبير في البلاد، والسلامة المستقبلية لأمبراطوريتنا الشرقية تجعل من المستحيل علينا الآن – تمامًا كما استحال علينا الأمر في الأعوام الخمسين الماضية – غسل أيدينا مما يحدث في بلاد فارس. وعلاوة على ذلك، وفيما نحن الآن على وشك تولّي الانتداب على بلاد ما بين النهرين مما سيضعنا في جوار الحدود الغربية لآسيا، لا يمكننا السماح بأن توجد بين

---

(١) Mohammad Gholi Majd, *Great Britain and Reza Shah: The Plunder of Iran, 1921– 1941* (Gainesville: University Press of Florida, 2001), p. 25.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧؛ Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (New York: Cambridge University Press, 2008), pp. 61– 62; Axworthy, *History of Iran*, pp. 215– 16; Cyrus Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power (London: I. B. Tauris, 1998), pp. 44– 46, 76– 77, 89, 113.*

(٣) Foreign and Commonwealth Office, *Documents on British Foreign Policy 1919– 1939*, first series, vol. 4 (London: Government Printing Press, 1971), pp. 1119– 21.

حدود أمبراطوريتنا الهندية وبالوشستان وحدود محميتنا الجديدة، بؤرة من سوء الحكم، والدسائس المعادية، والفوضى المالية، والاضطراب السياسي. لا بل إن كل الأسباب موجودة للخوف من أن يجتاح النفوذ البلشفي إيران من الشمال في حال التخلّي عنها. ثم إننا، في النهاية، نمتلك في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد فارس أصولًا عظيمة تتمثّل في حقول النفط التي تعمل لمصلحة البحرية البريطانية مما يوفّر لنا مصلحة أساسية في ذلك الجزء من العالم.

وما إن ظهر الاتفاق الأنغلو ـ فارسي إلى العلن حتى انفجر الشعب الإيراني مستفظعًا الأمر في شدة. طالبت الصحف البرلمان برفض إبرامه. وندَّد به السياسيون في حقد وضغينة. وأصدر الملاّت فتوى تعلن أن كل إيراني يؤيّده عدوّ للإسلام. وتعهَّد أسياد الحرب محاربة أي نظام يوافق عليه. وشكّل الوطنيّون في طهران «لجنة للعقاب» مكرّسة لاغتيال المسؤولين الذي يساندونه. وقتلوا أربعة من مساعدي رئيس الوزراء الذي قدّم استقالته.

وكتب القائد العسكري البريطاني في برقيّة إلى لندن: «لا يبدو أنّ من هم في الوطن أدركوا مدى الحدّة في عدم شعبيّة الاتفاق في بلاد فارس. فالسرّية التي أنجز فيها، وواقع دعوة [البرلمان] إلى الانعقاد، وما بُذل من محاولات لترتيب [البرلمان] باللجوء إلى أكثر الوسائل خداعًا في إجراء الانتخابات، أضافت كلّها إلى الاقتناعات، أن بريطانيا العظمى... ليست في الواقع أفضل من عدوّها الوراثي، روسيا»(١).

لا يُعرف الكثير عن طفولة جندي اسمه رضا، سوى أنه وُلد في مقاطعة مازندران القزوينية، ربما أوائل ربيع العام ١٨٧٦. مات أبوه، الجندي، وهو ما زال رضيعًا، فأخذته أمه من قريتهم الجبلية للإقامة مع عائلتها على مقربة من طهران. وتقول الأسطورة إن عاصفة ثلجية هبّت عليهما خلال رحلتهما. وتجمّد رضا، حتى الموت

(١) Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah*, p. 95.

كما بدا، لكنه عاد إلى الحياة بعدما تمكنت والدته من العثور على ملجأ ووضعته قرب النار[1].

ولما قارب رضا الخامسة عشرة توجه، بإلحاح من خاله، إلى أحد المراكز المتقدّمة للواء القوزاقي الشهير بحثًا عن عمل. كان فتًى ضخمًا فوظّفه الجنود. وعمل، باختلاف الرواية، فتى اسطبل أو خادمًا؛ وتظهره إحدى الصور في الخدمة حارسًا على السفارة البلجيكية.

أنشئ اللواء القوزاقي الفارسي عام ١٨٨٥ بعدما أعجب الملك الفارسي نصر الدين شاه، بالقوزاق الروس خلال زيارته لسانت بيترسبورغ. وتولّى تقليديًّا ضباط روس قيادته على رغم أن جنوده وبعضًا من ضبّاطه من الإيرانيين. وقد بلغ تعداده، زمن التحاق رضا به، عشرة آلاف، وتألف من وحدات قوية من المشاة والفرسان والمدفعية. وارتدى مقاتلوه بزّات على الطريقة القوزاقية ميّزتهم تمامًا عن الجيش النظامي الرث الثياب. وشكّل هذا اللواء القوة الإيرانية المقاتلة الأولى، وكان أيضًا مركزًا للسلطة السياسية، ويتبع قائده للشاه مباشرة.

وما أمكن الضباط البريطانيين الذين تولّوا قيادة لواء القوزاق عام ١٩١٧، إلا ملاحظة رضا. فقد نما ليصبح عملاقًا، وربما الأطول قامة في إيران. وجهه كالح ومجدور، لكنه مع ذلك لافت للنظر، يظلله حاجبان كثيفان داكنان، وشاربان كاملان، وفك بارز وصارم. مضى عليه زمن طويل وهو جندي، وما إن أصبح في أوائل عشريناته حتى شرع في قيادة الهجمات ضد المتمرّدين وأسياد الحرب واللصوص، وجيش حرب العصابات على الطريقة الاشتراكية الذي أقام شبه دولة في مقاطعة جيلان الشمالية. واشتهر بحصد أعدائه برشاش من طراز «ماكسيم» يطلق ستمئة رصاصة في الدقيقة. وأطلق عليه رجاله اسم «رضا ماكسيم». وقد أثار، علاوة على ذلك، الإعجاب ببسالته. فهو دائم الحركة، ودومًا في موقع الانطلاق، يتوق في استمرار إلى

(١) المصدر السابق، ص. ١٦٢.

الهجوم. ووصفه أحد الضباط البريطانيين، في برقية، بأنه «جندي من الطراز الأول يستوعب الأمور سريعًا»[١]. وعدَّه آخر «حياة العرض الحقيقية وروحه»[٢]. ووصل بعيد ذلك الجنرال الأسطوري إدموند أيرونسايد لتولّي قيادة القوات البريطانية في إيران، وتناهى إليه أن وحدة القوزاق التابعة لرضا سحقت المتمردين في معركة على مقربة من تبريز، فطلب لقاءه.

كتب أيرونسايد أن «طول قامته فاق كثيرًا الأقدام الستة، وهو عريض الكتفين، وذو وجه مميّز جدًّا. وأضفى عليه أنفه المعقوف وعيناه المتلألئتان مظهر الحيويّة... ارتجف من نوبة حادة من الملاريا، لكنه لم يمرض قط»[٣].

عقد هذا الاجتماع في اللحظة المؤاتية. فقد تخلّى البريطانيون، في مواجهة المعارضة المريرة، عن محاولة فرض الاتفاق الأنغلو ـ فارسي الذي أمكن بموجبه الضباط البريطانيين والمسؤولين الاستعماريين حكم إيران. وقرّروا بدلًا من ذلك تسليم العملية إلى الإيرانيين المتعاطفين مع المصالح البريطانية. وسعوا إلى إيجاد ما سماه الوزير البريطاني المفوّض في طهران «رئيس وزراء رجعيًّا»، واستقرّ الرأي على سيّد ضيا طبطبائي، وهو صحافي خانع مضت عليه سنوات وهو على جداول رواتبهم[٤]. وجل ما احتاجوا إليه، شخص يتمتع بالعضلات العسكرية لوضعه في السلطة. وامتلك أيرونسايد الرجل المناسب.

في السابع عشر من شباط/فبراير ١٩٢١، استدعى أيرونسايد رضا قبل يوم على مغادرته، للاجتماع مع ونستون تشرتشل (وقد أصبح الآن وزيرًا للمستعمرات) في

(١) F. A. C. Forbes- Leith, *Checkmate: Fighting Tradition in Central Asia* (London: G. G. Harrap, 1927), p. 22.

(٢) Karl E. Meyer and Shareen Blair Brysac, *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East* (New York: W. W. Norton, 2008), p. 312.

(٣) Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah*, p. 147.

(٤) Majd, *Great Britain and Reza Shah*, p. 62.

القاهرة وأبلغه أن بريطانيا لن تعارض إذا أراد القيام بانقلاب وخلع حكومة الشاه - ولكن ليس الشاه نفسه.

وكتب في يومياته: «أجريت مقابلة مع رضا وسلّمته نهائيًّا مسؤولية اللواء القوزاقي. وأوضحت له أمرين عندما وافقت على السماح له بالمضي: ١) ألا يطلق عليّ النار من الخلف وأنا أمضي؛ فسيؤدي هذا إلى الإذلال ولن يفيد أحدًا إلا الحزب الثوري. ٢) ألا يتم في أي حال خلع الشاه. وقطع رضا وعده بما يكفي من العفوية»[١].

هذا هو الفريق الذي رغبت بريطانيا، حينذاك، في تركه وراءها في إيران: سيّد ضيا كرئيس للوزراء، ورضا كقائد للواء القوزاق. هذا، على الأقل، كان المخطط الرسمي. وشعر أيرونسايد بما يمكن وقوعه بالفعل.

وكتب في واحدة من آخر مدوّنات يومياته قبل مغادرة إيران: «لقد شاهدت رجلًا واحدًا فقط قادرًا على قيادة الأمة، هو رضا»[٢].

تهيّأ المسرح للحركة. وفي العشرين من شباط/فبراير، ظهر سيّد ضيا في معسكر رضا حاملًا أكياسًا من الفضّة أرسلها البريطانيون لتوزيعها على رجاله. وزّع رضا المال مع أحذية جديدة أرسلها البريطانيون أيضًا، ثم أمر رجاله بالتجمّع للعشاء. ولما انتهوا من تناول الطعام، نهض للكلام فيهم.

قال لهم: «يا رفاقي الأعزاء. أنتم شهود على الوضع في جيلان. لقد غرقنا حتى أعناقنا في الوحول والقذارة. لم يعطونا ثيابًا ولم يدفعوا لنا معاشاتنا. أصبحنا عرضة للنسيان. ويجب علينا أن نضع حدًّا لهذه الأوضاع! لقد أوحى لي الله بوضع حدّ لذلك»![٣]

(١) Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah*, pp. 153– 54.

(٢) Edmund Ironside, *High Road to Command: The Diaries of Sir Edmund Ironside, 1920– 1922* (London: Leo Cooper, 1972), pp. 177– 78.

(٣) Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah*, p. 167.

بدأ رضا، منتصف الليل، زحفه على طهران مع ستمئة إيراني من لواء القوزاق. كانوا على أهبة القتال، ولكن لم تظهر أي قوّة لمواجهتهم لدى دخولهم المدينة مع انبثاق الفجر. وكانوا اعتقلوا، مع حلول منتصف النهار، معظم وزراء الحكومة وطالبوا أحمد شاه بأن يعترف بهم بصفة كونهم حكومة إيران الجديدة، فلم يمتلك أي وسيلة للمقاومة. وأصبح سيّد ضيا رئيسًا للوزراء. وأزاحه رضا بعد ذلك بثلاثة أشهر وتولّى منصبه بعدما أجبره على مغادرة طهران.

لا يزال المؤرخون يتجادلون في دور بريطانيا في المجيء برضا إلى السلطة. ولم يوافق أي من الوزير البريطاني المفوّض في إيران أو وزارة الخارجية على مناورة أيرونسايد ولم يعرفا بها، وأُلقيت ظلال من الشك على توزيع رضا الفضّة البريطانية على رجاله. وفي أي حال، على ما كتبه أحد الباحثين، «كانت إيران مهيّأة لوصول زعيم قوي ومستبد إلى السلطة، وتاقت يائسة إلى الحصول على مخلّص».

ضرب رضا ضربته، وأيرونسايد موجود في القاهرة. وكتب الأخير في يوميّاته: «أتخيّل أن جميع الناس يعتقدون أنني مهندس الانقلاب. وأعتقد أنني كذلك، بالمعنى الدقيق للكلمة»(١).

(١) Richard Ullman, *The Anglo- Soviet Accord, vol. 3 of Anglo- Soviet Relations 1917– 1921* (Princeton, N.J.: Prince ton University Press, 1973), p. 388.

٢
ولّت الأحلام والظِّلال!

كرّس مصطفى كمال الشاب، على غرار الكثيرين من الضباط المتململين في الجيش العثماني، أو أي أحد غيرهم، الكثير من طاقته للشراب والانغماس في معاشرة النساء. وقدّمت اسطنبول إمكانات لا حدود لها في الأمرين. سوى أن أمرًا آخر استحوذ على كمال. فمنذ أيام مطلع فتوته، حين تمرّد على رغبة والدته في إرساله إلى مدرسة دينية، وهو ينفر من التقاليد الإسلامية والعثمانية والشرق الأوسطية. بيد أنه بقي غير متيقّن من البديل. وهكذا فإن رفيقته المثالية، لدى عودته عام ١٩١٢ إلى اسطنبول، لن تكتفي بأن توفّر له مكانًا للشرب ومخدعًا للملذّات، بل ستفتح له أيضًا نافذة على عالم الأفكار والعمل الحديث.

وتلك كانت كورين[١].

وُلدت كورين لطفو في جَنَوَة، وتعلّمت العزف على البيانو في كونسرفاتوار باريس، وأتقنت لغات عدّة، وهي ابنة طبيب وأرملة شابة لضابط تركي، ونموذج

(١) Lord Kinross, *Atatürk: The Rebirth of a Nation* (New York: William Morrow, 1985), pp. 60– 61, 97, 100; Vamik D. Volkan and Norman Itzkowitz, *The Immortal Atatürk: A Psychobiography* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), pp. 74– 75.

للشهوانية المحنّكة. أقامت في بيرا، في المنطقة الأوروبية من اسطنبول، وهي عبارة عن تركيبة من الملذات الغربية. لم تنسحب إلى العزلة بعد وفاة زوجها، بل حوّلت، على العكس، منزلها صالونًا يجتمع فيه كوزموبوليتيو المدينة المحنّكون في أمسيات طويلة من الغناء، وموسيقى الحجرة، والطعام، والشراب، وفوق ذلك كلّه المحادثات الحادة والمتحررة. رحّبت دارها أيضًا بالمتنوّرين من الأتراك ولو أن معظم ضيوفها كانوا من الأوروبيين. وجلب أحد الأصدقاء كمالًا إلى واحدة من تلك الحفلات، فأفتتن على الفور، بكل من جاذبية كورين المفعمة بالحيوية، والأفكار المسكرة التي ملأت هواء صالونها العابق بالدخان.

وانجذبت الأخرى إليه بالقدر نفسه. فهو، في النهاية، رجل حسن الطلعة - أشقر، أبيض البشرة، ساحر جدًّا على رغم أنه خجول مع النساء، خصوصًا، ويطفح بالرجولة. وقد طوّر بالفعل هوس الاهتمام بمظهره وبنظافته الشخصية، مما سيطبع حياته كلّها؛ حتى إنه سيعمد في السنوات اللاحقة إلى أخذ استراحة من المعركة للاستحمام. أما ميزته الاستثنائية فهي، بكل المقاييس، حين يحدِّق. وتحدّث أجنبي قابله عن أن عينيه «زرقاوان جليديتان ثاقبتان». وقال آخر إنهما «أبرد عينين وأثقبهما» رآهما في حياته. وكتبت امرأة أغواها أن لون بؤبؤي عينيه «أزرق فاتح جدًّا حتى يكاد يختفي منهما اللون؛ الأمر أشبه بالنظر إلى أعمى ومع ذلك تخترق عيناه كيانك»[1].

اشتهى كمال ما تمثّله كورين: أي البديل الجذري من الخمول الكئيب الذي شهده في الأقاليم العثمانية. وطالع، تحت رعايتها، الروايات وتعلّم حبّ الموسيقى الغربية وحسّن لغته الفرنسية، والتقى، إلى ذلك كلّه، رجالًا ونساء فتحت أفكارهم وتجاربهم أمامه عالمًا جديدًا مبهرًا. عرّفته كورين إلى مجتمع اسطنبول الراقي، وهو عالم لذّة، لكنه أيضًا عالم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأوروبا حيث أخذت الانفجارات السياسية في نسف الممالك.

(١) Gordon Taylor, *The Pasha and the Gypsy: Writings on Turkey, Kurdistan, and the Eastern Mediterranean,* part 4, April 6, 2008, accessible at http://pashagypsy.blogspot.com/2008/04/pasha-and-gypsy-part-iv.html.

مرت سنوات، وكمال يستشيط غضبًا لما رأى من جهل وتخلف في شعبه. وهنأه مرّة ضابط ألماني أدار معه مناورة تدريبية على تمكنّه من التكتيكات الميدانية. فأجابه أن القيمة الوحيدة لمهاراته العسكرية هي في تمكّنه من استخدامها لتحرير الأتراك من «التعصّب والعبودية الفكرية». وأضاف بعد ذلك ملاحظة شكّلت خلاصة من بضع كلمات لاذعة لكل ما يؤمن به.

قال إن «الأمة التركيّة تأخرت كثيرًا جدًّا عن الغرب. ويتمثّل الهدف الأساس في قيادتها إلى الحضارة الحديثة»(١).

عانى الجيش العثماني، في أولى سنوات القرن العشرين، هزائم ساحقة. وقاد كمال بنفسه وحدات خاضت محاولات قتالية فاشلة للاحتفاظ بليبيا وألبانيا. ثم أطاح اليونانيون والمقدونيون والبلغاريون والصرب الحكم العثماني في انتفاضة صاعقة خلال حرب البلقان عام ١٩١٢. وشكّلت هذه خسائر مذهلة أدت إلى انفصال معظم الأراضي الأوروبية للسلطنة، بما فيها مناطق بقيت أكثر من خمسمئة سنة تحت الحكم العثماني.

تدفّق سيل من اللاجئين المسلمين البائسين على اسطنبول، وأثارت محنتهم احتجاجات عنيفة. وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩١٣، أحاطت الجماهير الغاضبة بمجمّع المباني الحكومية وهي تطلق الشتائم في حق النظام الليبرالي الحسن النيّة، ولكن العاجز الذي تولّى السلطة بعد انتخابات عام سبق. واقتحمت مجموعة من المشاغبين المبنى وعثرت على وزير الحرب وقتلته وأجبرت رئيس الحكومة، وعُرف يومذاك بالصدر الأعظم، على الاستقالة.

ملأ العناصر الثوريون التابعون لـ«تركيا الفتاة» الفراغ الناتج عن الانتفاضة التي نظّمها عملاؤهم. استولوا على السلطة ونصّبوا زعيمهم أنور باشا، الجنرال الكاريزماتي

(١) Andrew Mango, *Atatürk: The Biography of the Founder of Modern Turkey* (London: John Murray, 1999), p. 95.

والعديم الرحمة، مكان وزير الحرب الذي اغتيل. وسرعان ما برز أنور بصفة كونه ديكتاتور الأمبراطورية المتهاوية، وحكم على رأس مجلس ثلاثي تحت سلطة سلطان صُوَري، وأمسك بالمفاصل الأساسية للسلطة.

أصيب مصطفى كمال بالذهول والضياع، وهو الذي لم يبلغ قط منصبًا رفيعًا في حركة «تركيا الفتاة»، وقد عدَّ أنور رجلًا متوحّشًا ضيّق الأفق. ولمّا عُيّن أحد أصدقائه، فتحي بك، سفيرًا عثمانيًّا في بلغاريا، دعاه إلى الذهاب معه بصفة ملحق عسكريّ، فوافق. وتكشّفت الحقبة المقبلة من حياته في العاصمة البلغارية، صوفيا، في وقت أخذت الأمة الشابة تتمتع بحرّيتها الجديدة. أخذت صوفيا تنبض بروح من الحماسة والامكانات التي دغدغت كمالًا وصديقه.

أثار هذان الدبلوماسيان الشابان المندفعان الكثير من الفضول، ولقيا الترحيب في مجتمع النخبة الناشئة التي لم تعرف عن الأتراك حتى الآن إلا القمع. وشاهد كمال بعيد وصولهما أوبرا «كارمن». وأسره الأمر إلى حد أنه حين تم تعريفه في الاستراحة إلى الملك فرديناند الذي سأله عن رأيه في العرض، لم يتمكن إلا أن يتفوّه بكلمة واحدة: «رائع»[١]!

لم ينشغل كمال، خلال أشهره الخمسة عشر في صوفيا، بالدوّامة الاجتماعية وحسب، بل أدهشه أيضًا عدد البلغاريين الأتراك الذين امتلكوا الأعمال وتتجوّل نساؤهم غير محجّبات ويختلطون، في حرّية، مع جيرانهم المسيحيين. وهنا أيضًا عاش تجربته الأولى مع السياسة، وهو يمضي أيامًا كثيرة في أروقة البرلمان يراقب النقاشات ويدرس التكتيكات الحزبية، مبديًا اهتمامًا خاصًّا بالمهارة التي اعتمدها النواب من أبناء الإثنية التركية في دعم وجهات نظرهم[٢]. وأخذت اقتناعاته تزداد، يومًا بعد يوم، بأن على الأتراك ألّا يعيدوا اختراع أنفسهم كأمّة وحسب، بل وبأن القدر قد اختاره شخصيًّا لحملهم على القيام بذلك.

(١) Kinross, Atatürk, p. 60; Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 77.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 63.

وكتب في إحدى رسائله الكثيرة إلى كورين: «لدي طموحات، بل وطموحات كبيرة جدًّا... وأسعى إلى تحقيق هذه الطموحات عبر النجاح في فكرة عظيمة»[1].

صاغت الثقة التي لا تتضعضع بالنفس، والتي تبلغ أحيانًا حدودًا قصوى تجاور المرض، روح كمال منذ أوائل سنواته. ويصف واضعو السيرة فتى مشاكسًا، صريحًا، ومتباهيًا يجاوب أساتذته، ومقاومًا شرسًا للانضباط. وقد توفّي والده، الموظف المعدم، وهو في السابعة، وأصبح، لمّا تزوّجت والدته من جديد، «يغار كالعشيق من وجود رجل آخر في حياة أمه»، بحسب أحد المؤرّخين[2]. غادر منزل العائلة وأقام عند أحد أقاربه، وأغرق نفسه طوال سنوات عدّة في عالم داخلي تغمره التخيّلات المفرطة[3]. واكتسب كمال، حينذاك، بحسب باحثَيْن كتبا «سيرته النفسية»، «مفهوم الذات المُضخّم والطنّان» الذي أطلق رحلته الجامحة إلى قلب التاريخ[4].

وكتبا أنه «اعتقد نفسه رجلًا فريدًا من نوعه، يفوق جميع الآخرين، وقد أُنعم عليه بالحق في فرض إرادته». وتابعا: «ووضع الآخرين في منزلتين – من هم من المعجبين به ومن أتباعه، ومن ليسوا كذلك وهم بالتالي، في ما يتعلّق به، ممن ليس لهم وجود على الإطلاق».

كان كمال في صوفيا عندما اغتيل وارث عرش النمسا ـ المجر، الأرشيدوق فرانز فرديناند في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩١٤ في مدينة عثمانية سابقة أخرى هي سراييفو. ولم يمتلك أي سبيل للتأثير في ردّ فعل حكومته، فالأمر يعود إلى أنور باشا الذي قام، من مكتبه الضخم في الباب العالي، بتقدير تاريخي خاطئ. فهو، ومنذ سنين، يعتمد

---

(١) المصدر السابق، ص. ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص. ١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٦ – ١٠؛ H. C. Armstrong, *Grey Wolf: An Intimate Study of a Dictator* (London: Arthur Barker, 1932), pp. 18– 20; Mango, Atatürk, pp. 32– 38; Barbara K. Walker et al., *To Set Them Free: The Early Years of Mustafa Kemal Atatürk* (Grantham, N.H.: Tompson & Rutter, 1981), pp. 13– 80.

(٤) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk, p. xxiii.*

على الضباط الألمان لإسداء المشورة العسكرية إليه، ولمّا اندلعت الحرب العالمية الأولى دفعته ثقته اللامحدودة بالقوة العسكرية الألمانية إلى الافتراض بأن القيصر سيحرز انتصارًا سريعًا(١).

وفي الثاني من آب/أغسطس، وقّع أنور، في حفلة رسمية سرّية في أحد القصور المجاورة للبوسفور، على معاهدة التحالف بين الأمبراطورية العثمانية وألمانيا. واستدعى، في الأيام التي تلت، أعدادًا كبيرة من الضباط، بينهم مصطفى كمال، للعودة من الخارج وأمرهم بالاستعداد للقتال. وستغيّر المهمّة التي أوكلها أنور إلى كمال حياة الرجل والتاريخ التركي.

شكّل الاستيلاء على اسطنبول أحد الأهداف المركزيّة التي حددها القادة البريطانيون لأنفسهم مع تطوّر الحرب الكبرى.

وسهل على القائد الأعلى للأساطيل البحرية البريطانية ونستون تشرتشل، إقناع رفاقه في مجلس الحرب بأن الجيش العثماني، الذي يسير على درب طويلة من الخسارة، سيتقوّض قبل الهجوم الذي تقوده بريطانيا. وقضى مخططه باستيلاء السفن الحليفة على مضيق الدردنيل الاستراتيجي والإبحار من ثمّ شمالًا لإخضاع اسطنبول، وهو ما سيفتح خطوط إمداد جديدة إلى روسيا وربّما يغيّر في دينامية الحرب.

بذلت السفن الحرب الحليفة جهودها الأولى لشق طريقها بالقوّة إلى الدردنيل، لكنها انسحبت بعد تعرضها لنيران المدفعية التركية(٢). وبات على البريطانيين القضاء على هذه المدافع لتأمين العبور الآمن، وهو ما يعني شن هجوم برّي على شبه جزيرة غاليبولي التي تشرف على المضيق الضيّق. عيّن أنور جنرالًا ألمانيًّا لقيادة الدفاع عن شبه الجزيرة يسانده قادة ست فرق تركية، على أن يتوّلى العقيد مصطفى كمال قيادة «الفرقة المتحرّكة» الرئيسة.

(١) Kinross, *Atatürk*, pp. 65– 66; Mango, *Atatürk*, p. 68.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 72; Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 86.

اقتحمت موجات من الجنود البريطانيين والأستراليين والنيوزلنديين، في واحدة من أكثر عمليّات الإنزال البحري دموية في الحرب العالمية الأولى، شواطئ غاليبولي مع شروق شمس يوم الخامس والعشرين من نيسان/أبريل ١٩١٥. واستطاعوا، تحت النيران التركية الكثيفة وبكلفة رهيبة – لم يتمكن إلا واحد وعشرون فقط من أول ١٥٠٠ جندي من بلوغ مكان الاحتماء، وستشهد الأيام الثلاثة التالية سقوط عشرة آلاف بين قتيل وجريح – تأمين رأسي جسر. وشرعوا في الاندفاع شمالاً في اتجاه القوة التركية الرئيسة[١]. ومع تقدّمهم، طلب قادة الفرقة التركية المساعدة العاجلة. وأمر كمال، المتمركز في مكان قريب، رجاله بالهجوم على التلال المتنازع عليها. وركض أمامهم، والتقى، وهو يقترب، فصيلة من الأتراك المنسحبين الذين نفدت منهم الذخيرة وأصيبوا بالرعب، فأمرهم بالاستدارة ومواجهة العدو، بالحراب إذا اقتضى الأمر. ولمّا تردّدوا، أصدر ما أصبح يُعرف بأكثر أوامره شهرة.

وصاح بهم: «أنا لا آمركم بالهجوم، بل آمركم بالموت!» وتابع: «وما إن نصبح في عداد الموتى حتى تصل وحدات أخرى وقادة آخرون للحلول محلنا»[٢].

صدّ المدافعون الأتراك الهجوم الحليف، وتحوّل في الأشهر التي تلت ما تصوّر تشرتشل أنه سيكون نزهة إلى زمالة بشعة مع الموت. أطلقت مئات الآلاف من القذائف، وأمضى الرجال أشهرًا في خنادق نتنة على بعد عشرات الأمتار وحسب من العدو. وقتل الكثيرون وهم يحاولون الهجوم بالحراب المغروزة في بنادقهم. وازداد كمال شهرة مع استمرار القتال.

وبحسب إحدى الروايات عن حملة غاليبولي، «قاتل مصطفى كمال كرجل مسكون. كان حاضرًا في كل مكان، لا يكل ولا يتعب على رغم فورات الملاريا التي عاناها... بارع في تشخيصاته، سريع في اتخاذ القرارات، ونشيط في تنفيذها. ووضَعَه أداؤه في هذه الحملة في منزلة العبقري العسكري. ويتفق الخبراء على أنه

(١) http://samilitaryhistory.org/vol064sm.html.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 146.

لمع هنا أكثر حتى من إنجازاته اللاحقة في الكفاح التركي من أجل الاستقلال، نظرًا إلى أنه كان في غاليبولي وحده واضطر إلى الارتجال بدلًا من تنفيذ مناورات اعتُني بالتخطيط لها»(١).

بدأ الحلفاء في ١٩ كانون الأول/ديسمبر انسحابًا مُذلًا بعد نحو تسعة أشهر على اقتحامهم شواطئ غاليبولي وهم يتوقّعون انتصارًا سريعًا. وتركوا وراءهم شبه جزيرة ضيّقة مشبعة بالدماء. مات أربعة وأربعون ألف جندي حليف في المحاولة الفاشلة للاستيلاء على غاليبولي، وهو ضعفا عدد الأتراك الذين ماتوا دفاعًا عنها.

شكّل الانتصار في غاليبولي نقطة التحوّل في حياة كمال. فهو الضابط التركي الوحيد الذي خرج من الحرب العالمية الأولى بطلًا: مخلّص اسطنبول. وها إن الواقع يتطابق أخيرًا مع تخيلاته الغريبة.

وجاء في واحدة من سير حياته أنه «وقبل أن تجرفه الإنجازات العسكرية، داوم على قرع أي بابٍ أَمَلَ في أن يوفّر له فرصة الحصول على الإطراء الذي يحتاج إليه يائسًا ويسعى... وأخيرًا حوّلت غاليبولي مصطفى كمال بطلًا، لكنه يخطئ إذا تصوّر أنه بلغ وسط المسرح... فلا يزال الآخرون في حاجة إلى الاقتناع بتفوّقه الواضح جدًّا بالنسبة إليه»(٢).

ربيع العام ١٩١٥، وفيما كمال منشغل، في شكل محموم، في غاليبولي، واجه ثلاثي أنور أزمة أخرى في الطرف المقابل لأمبراطوريتهم التي مزّقتها الحرب. فقد عاش الأرمن قرونًا تحت الحكم العثماني في ما هو اليوم شرق تركيّا، وقرر بعضهم، مع انهيار الأمبراطورية، اغتنام فرصتهم التاريخية. شكّل المناضلون مجموعات مسلّحة وانطلقوا، بمساندة من روسيا، في انتفاضة تهدف إلى تحويل خمس مقاطعات عثمانية دولة أرمنية تدعمها روسيا. واستولوا على مدينة ڤان المهمة وهاجموا مدنًا

(١) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 88.
(٢) المصدر نفسه، ص. ٩٣.

أخرى. وقرر الثلاثي الحاكم أن الطريقة الوحيدة لسحقهم هي إجبار جميع الأرمن، من تورّط منهم في التمرّد ومن لم يتورّط، على مغادرة الأناضول. سُلخت العائلات عن ديارها وأُجبرت على الهرب. ومات مئات الألوف أو قُتلوا. فقد أرتكب قادة «تركيا الفتاة»، في ما سيسمّيه مصطفى كمال لاحقًا بـ«العمل المخزي»[1]، واحدة من أكثر جرائم القرن العشرين بشاعة.

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، كان كمال رقّي إلى رتبة جنرال، ما خوّله أن يحمل لقب مصطفى كمال باشا. وشكّل ذلك ترضية زهيدة في أرض خراب. فالأتراك هم مِن الذين خسروا الحرب. وبعد انتهائها بأيام، فرّ قادة «تركيا الفتاة» الثلاثة المسؤولون عن هذه الكارثة عبر البحر الأسود في غواصة ألمانية. وقُتل أنور بعد سنوات قليلة في آسيا الوسطى، وهو يتابع حلمه المجنون في إقامة أمبراطورية تركيّة. وطارد مسلحون أرمن، بتوجيه من أجهزة الاستخبارات البريطانية والسوفياتية، الاثنين الآخرين واغتالوهما.

ومع رحيل قادة «تركيا الفتاة»، عين السلطان محمد السادس وحيد الدين، المهزوم والذي حلّ للتو محل شقيقه قبل ذلك بأربعة أشهر، صدرًا أعظم جديدًا وأوفده للتفاوض مع البريطانيين على شروط الاستسلام. التقى الطرفان على متن السفينة الحربية الملكية «أغاممنون»، الراسية قبالة مدينة مودروس اليونانية. أمْلت بريطانيا شروطًا قاسية وافق عليها مبعوثو السلطان اعتقادًا منهم بعدم وجود بديل. تطلّبت الهدنة تسريح معظم الجيش العثماني. وأعطت أيضًا الحلفاء السيطرة على اسطنبول والسيادة على كل الأراضي العثمانية في شبه الجزيرة العربية، والحق في احتلال أي مدينة تركية أو منطقة تبرز فيها «مشكلات أمنية»[2].

(١) Taner Akçam, *A Shameful Act: The Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility* (New York: Holt Paperbacks, 2007), p. 12.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 128; Mango, *Atatürk*, p. 190.

وتقول إحدى الروايات إن «الأخبار عن شروط الهدنة صدمت كمالًا... وقد أُبلغ، بعد ثمانية أيام على توقيعها، أن مجموعته العسكرية لم يعد لها وجود... ولم ينزل مرة أخرى إلى محطة حيدر باشا إلا بعد ١٣ يومًا. وأضحت عودة القائد العسكري الفخور إلى الديار بمثابة يوم أسود»(١).

ارتفعت محطة حيدر باشا الجديدة للقطارات، وقد بناها الألمان أشبه بقصر توتوني (ألماني)، فوق الشاطئ الآسيوي للبوسفور المهيب وأحاطت بها المياه من ثلاثة جوانب وارتكزت على ألف ومئة عمود خشبي، وكانت واحدًا من أكثر المباني روعة في اسطنبول كلّها. ويوم وصول مصطفى كمال باشا من برّ الأناضول، فغرت أفواه الجمهور هلعًا لمشهد مذهل يتكشّف في الخارج(٢). أخذ عرض للسفن الحربية بطول ١٦ ميلًا، وهو الأكبر من نوعه يُشاهد في البوسفور، في الوصول لشروع الحلفاء في احتلال اسطنبول. وشقّت خمس وخمسون سفينة من الخط الذي يحمل ثلاثة آلاف وخمسمئة جندي ومارينز، معظمهم من البريطانيين، طريقها متجاوزة الحشود المصطفة على ضفتي المضيق. ورست السفن متلازمة فحجبت رؤية المياه بينها.

عُلّق سير المعديات على البوسفور فيما قامت تلك السفن بعبورها المظفر إلى المدينة المهزومة. وبين الذين اضطروا إلى الانتظار والمشاهدة الركّاب الواصلون إلى حيدر باشا والراغبون في العبور إلى الجانب الأوروبي، ومصطفى كمال واحد منهم. بيد أنه لم يشعر، وهو ينتظر، بأي من الكرب والاشمئزاز أو العجز الذي استولى على الحشد. فالتاريخ يعمل لمصلحته. راقب طويلًا، وهو صامت، فيما البوارج الحربية البريطانية تعبر من أمامه. ثم استدار صوب مساعده.

(١) Alan Palmer, *Kemal Atatürk* (London: Sphere, 1991), pp. 43– 44.

(٢) Sina Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic: The Emergence of the Turkish Nation from 1789 to Present* (New York: New York University Press, 2007), pp. 120– 21; Kinross, *Atatürk*, p. 136; Mango, *Atatürk*, p. 190; Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 110; Turkish Ministry of Press Broadcasting and Tourism, *The Life of Atatürk* (Istanbul: Dizerkonca Matbaazi, 1961), p. 48.

وقال: «سيعودون كما أتوا».

وبلجاجته المعتادة وبعدم رغبة منه في انتظار استئناف خدمة المعدية، أمر كمال مساعده بالعثور على زورق تجذيف يمكنه حملهما عبر البوسفور. وما إن بلغ الجانب الأوروبي حتى توجّه إلى أفخم فنادق اسطنبول، بيرا بالاس، ونزل فيه. اكتظ الفندق بضباط الحلفاء، وجميعهم في مزاج المنتصر. فجيوشهم لم تنتصر وحسب في الحرب الكبرى، بل يبدو أنهم، بوصولهم إلى اسطنبول، ختموا إلى الأبد مصير «الترك»، الأمة الراكعة التي هددت في السابق باجتياح الأرض المسيحية، «وتمزيق كل مقاطعاتها»[١]، بحسب تعبير كريستوفر مارلو.

شكّلت اسطنبول كل ما يمكن المرء توقّعه من عاصمة أمبراطورية تعاني سكرات الموت. انهار النظام العام وأخذ اللصوص في التجوّل في حرّية. أظلمت الشوارع. وصعب الحصول على الغذاء. وفقدت العملة قيمتها. ونامت العائلات اللاجئة في الشوارع وفي المتنزَّهات. وقد استحوذ على الأتراك، طوال سنوات عدّة، الخوف من اقتراب القدر الغاشم؛ وها هو الآن في متناول اليد. فكيف يمكنهم قلب الطاولة؟

امتلك مصطفى كمال الجواب وهو: اتبعوني.

وكتب في يومياته: «أعتقد أنني، إذا حصلت على السلطة والقوة، أحقق بانقلاب – فجأة وفي لحظة واحدة – الثورة التي نحتاج إليها في حياتنا الوطنية... لأنني، وعلى عكس الآخرين، لا أؤمن بإمكان تحقيق هذا الأمر من خلال رفع ذكاء الآخرين في بطء إلى مستوى ذكائي. فروحي تتمرّد على مثل هذا السياق. ولماذا عليّ، بعد سنوات تعليمي، وبعدما درست الحضارة والاجتماع، وبعدما أمضيت حياتي أسعى إلى الحرية، أن أنزل إلى مستوى عامة الشعب؟ سأجعلهم يرتفعون إلى مستواي. ليس عليّ أن أشبههم؛ بل عليهم أن يشبهوني»[٢].

(١) Christopher Marlowe, *Tamburlaine* (London: Ernest Benn, 1971), p. 9.

(٢) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 104.

أمل كمال، مدة، في أن يعيّنه السلطان وحيد الدين وزيرًا للحرب ليتمكّن من تنظيم المقاومة للاحتلال، غير أن السلطان رفض تعيينه اعتقادًا منه بعدم جدوى المقاومة. وهذا من حسن حظه لأن الإنكليز ما لبثوا أن أوقفوا الكثيرين من كبار مسؤولي الحكومة وأرسلوهم إلى المعتقل في مالطا. وكان هذا ليصبح مصير كمال مع تبعات تاريخية لا يمكن إحصاؤها.

ما إن اتضح لكمال أن لا مكان له في حكومة السلطان، حتى شرع يتخيّل البدائل. واتفق، بداية العام ١٩١٩، في شكل غير رسمي مع حفنة من الضباط الذين يوافقونه الرأي على مخطط ثوري. قرروا أن يهربوا، بطريقة ما، من اسطنبول ويشقّوا طريقهم إلى بر الأناضول، فيحشدون هناك جيشًا لهم ويقودون التمرّد على أسيادهم الجدد.

لماذا اختاروا مثل هذا المسار الراديكالي؟ ليس لأن بلادهم مُحتلّة وحسب. فمعظم الأتراك كانوا على استعداد لقبول الاحتلال المنظّم، ودفع التعويضات، والانصياع لغير ذلك من العقوبات التي يفرضها، عادة، المنتصرون في الحرب على المهزومين. لكن جيشهم لم يُهزم في الميدان ولم يصدّقوا أن زعماءهم وافقوا على الاستسلام غير المشروط – وبالتأكيد ليس واحدًا سيؤدي إلى تقطيع أوصال موطنهم التقليدي، مساحة بر الأناضول العظيم، الذي وصفه الشاعر ناظم حكمت بأنه «يشكّل نتوءًا في المتوسط يشبه رأس الفَرس»[١].

وتقطيع الأوصال، هو بالتحديد ما دار فعلًا في أذهان الحلفاء.

خلال شتاء ١٩١٨-١٩١٩ أقنع رئيس وزراء بريطانيا ديفيد للويد جورج، الذي يَعدُّ الأتراك بمثابة «سرطان بشري»[٢]، زعماء الحلفاء الآخرين بدعم التقسيم الشامل

(١) أشعار مختارة لناظم حكمت متوافرة على موقع http://www.nazimhikmetran.com/english/pages/siirleri/davet.shtml.

(٢) H. W. V. Temperley, ed., *A History of the Peace Conference of Paris*, vol. 4 (New York: Oxford University Press, 1969), p. 24.

للأناضول، هذه المنطقة الشاسعة، التي تعادل مساحتها مساحة بريطانيا وفرنسا معًا، وظلّت موطنا تركيًا لأكثر من ألف سنة. رغب للويد جورج في أن يشكّل منها دولة يونانية أو اثنتين، ودولة أرمنية، وربما دولة كردية، ومستعمرات كبيرة لفرنسا وإيطاليا.

«تعدّى الأمر كونه احتلالًا عسكريًا أوروبيًا»، بحسب ما كتبه أحد المؤرخين، «سوى أن احتمال خسارة البلاد لمصلحة الأقليات المسيحية المحلّية، شكّل، بعد انقضاء الصدمة الأولى، دعوة إلى المقاومة الشعبية التركية»(١).

لم يتمكن كمال من تحمّل تكاليف إيجار جناحه في بيرا بالاس، فانتقل إلى منزل من ثلاث طبقات على بعد نحو ميلين منه. وأمضى فيه شتاء تآمريًا حاسمًا. احتفظت الشرطة العسكريّة برقابة غير منهجية في الخارج، وبذل ما في وسعه لتمويه تآمره. فجاء بوالدته وشقيقته للإقامة معه، ووضعهما في الطبقة الثالثة كما يفعل أي ابن أو شقيق يتحسس بالواجب. ولم يدعُ قط إلى أي اجتماع واسع. بل جاء الضباط الوطنيون، الواحد تلو الآخر، وهم يرتدون، عادة، الثياب المدنية، للشراب والتأمّل والتخطيط.

أخذ الحلفاء يشدّون الخناق على الأناضول، فاحتل الجنود الفرنسيون ميناء أضنة المتوسطي، ونزل الإيطاليون في أنطاليا على بعد بضع مئات من الأميال غربًا، وسيطر الروس على قارص وغيرها من المقاطعات الشرقية. وانفجر التوتّر بين المسيحيين المنتصرين والمسلمين المذلولين، حوادث عنف في مناطق عدّة.

أثارت كل خطوة اتخذها الحلفاء في اتجاه تقسيم الأناضول المزيد من الغضب. وأخذ الأتراك يتقبّلون أكثر فأكثر فكرة التمرّد.

وإذا وُجد من وقت بدأت فيه هذه الفكرة الغريبة تصبح واقعيّة، فهو، بلا شك، مساء الحادي عشر من نيسان/أبريل ١٩١٩. كان الجنرال كاظم قره-بكر، أحد أرفع الجنرالات العثمانيين، سيغادر اسطنبول، صباح اليوم التالي لتولّي قيادة آخر

(١) Mango, *Atatürk*, pp. 193–94.

جيش عثماني لم يُمس، وهو كناية عن قوة من ١٢٥٠٠ رجل واثنتين وعشرين قطعة مدفعية متمركزة في مدينة أرضروم في الشرق. وانسل، بعد زياراته الوداعية في وزارة الحرب، بعيدًا، وجاء إلى منزل كمال. سبق للجنرالين أن قاتلا معًا في غاليبولي ولدى واحدهما ثقة مطلقة بالآخر. أسرّ قره- بكر إلى كمال بما لم يسعه قوله لأحد آخر: فهو ماض إلى أرضروم ليس لخدمة السلطان وأسياده الحلفاء، بل للقطيعة معهم. وطلب من كمال إيجاد طريقة للانضمام إليه.

«إنها لفكرة»، أجاب كمال.

بعد ذلك بنحو يومين زار عصمت باشا، أحد نواب وزير الحرب، كمالًا طارحًا نسخته الخاصة من الفكرة نفسها. وأفاد أن الكثيرين من الضباط توّاقون إلى مقاومة تقطيع أوصال بلادهم، وأن بعضهم على استعداد لاتباع أي زعيم ثوري يظهر. وانكب الرجلان على خارطة للأناضول يعينان عليها مواقع القواعد العسكرية ومستودعات الأسلحة.

وأخيرًا طرح كمال السؤال على عصمت: «ما هي الطريقة الفضلى للوصول إلى هناك؟»

"هل صممت الرأي إذًا؟»

«نحن لا نتكلّم على ذلك بعد».

«يوازي عدد الطرق عدد الإجراءات التي يمكننا اتخاذها. المشكلة هي في أن نقرر ما الذي نريد فعله. متى ستخبرني بقرارك؟»

«عندما يحين الوقت»[1].

حاول كمال عبثًا، سنوات كثيرة، اختراق نخبة السلطة في اسطنبول. وها هو الآن في الموقع المعاكس، عالق في اسطنبول ويتوق إلى إيجاد وسيلة للخروج منها. وعثر على واحدة بفضل البريطانيين.

---

(١) المصدر السابق، ص. ٢٠٨-٢٠٩.

شكّل مرفأ سامسون على البحر الأسود أحد الأماكن التي انتفض فيها الأتراك على إملاءات الحلفاء. ولم يمكن قادة الحلفاء تخصيص قوة للمضي إليها وإعادة الأمن، لذا أمروا السلطان بإرسال بعض من رجاله. وسبق أن تزايد انزعاج الصدر الأعظم من وجود مصطفى كمال في اسطنبول، فأقنع السلطان بتعيينه «مفتّشًا» على سامسون وبمنحه صلاحية قيادة القوات العثمانية فيها.

«يا للشعور الرائع!»[١] كتب كمال لاحقًا عن اللحظة التي أمر فيها بالمضي إلى سامسون. «ابتسم لي الحظ، ويصعب وصف مدى سعادتي لما وجدت نفسي أتمتع بابتسامته. أذكر أنني عضضت على شفتي انفعالًا. فقد فُتح القفص. ارتسم الكون كلّه أمامي. وصرت أشبه بطير على وشك التحليق عاليًا».

سجل بعض التذمّر من مدى انتداب كمال في عشاء الوداع مع الضباط ووزراء الحكومة. لكنه تدارك الأمر بتأكيده أنه ينوي العمل في «منطقة صغيرة» فحسب. إلا أن أحد الحضور، وهو جواد باشا الذي سيصبح رئيسًا للأركان، لم يشعر وحسب أن ذلك غير صحيح، بل أمل أيضًا في ألا يكون كذلك. وانتحى، بعد العشاء، بكمال جانبًا.

وسأله بصوت خافت: «هل تقوم بشيء ما؟»

«نعم»، أتى الجواب، «سأقوم بشيء ما»[٢].

وبعد ظهر اليوم التالي، وبينما كان كمال يقوم بالتحضيرات الأخيرة للرحيل، وصلت أخبار مذهلة من أزمير، المدينة الأناضولية الرئيسة على شاطئ بحر إيجه، ويعرفها اليونان باسم سميرنا. شططت السفن البحرية اليونانية وأنزلت قوة احتلال من عشرين ألف جندي. وجابت البوارج البريطانية والفرنسية الشاطئ دعمًا لهم. صُعق الأتراك في البداية، ثم تملّكهم الاستياء.

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 151.

(٢) Turkish Ministry, *Life of Atatürk*, p. 55.

كتب المؤرخ البريطاني اللورد كينروس في روايته لهذا الانزال: «اجتاح السكان المدنيون اليونانيون الشوارع يكيلون الشتائم للمسلمين. رفع الجنود الأتراك الراية البيضاء، وسيقوا وضباطهم، وأيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم، صوب الواجهة المائية إلى سفينة للجنود، فيما أخذ رعاع من المدنيين يطلقون في اتجاههم صرخات عدائية ويضربونهم بالعصي ويمزّقون طرابيشهم. وأطلقت النار على عقيد تركي رفض خلع طربوشه والدوس عليه، وقُتل. وسيق الحاكم أيضًا إلى الرصيف على رؤوس الحراب، وجُرَّ غيره من الأعيان من منازلهم. ثم خرج الجنود اليونانيون عن السيطرة وقُتل، حينذاك، بضع مئات من الأتراك. ورُميت جثثهم من فوق السور البحري إلى المرفأ»(١).

أبلغ كمال والدته وشقيقته، في ليلته الأخيرة في اسطنبول، أنه يغادر في «مهمة خطيرة». ألحّتا عليه بالتفاصيل، فاكتفى بالقول إنه أودع لهما بعض المال في مصرف مجاور. التقى في الصباح التالي ضباط أركانه عند المرفأ المزدحم وصعدوا إلى متن «بانديرما»، وهي فرقاطة خشبية قديمة بُنيت في بريطانيا وبيعت من العثمانيين بعدما بدا أن حياتها العملية قد انتهت.

رفعت «بانديرما» المرساة مساء السادس عشر من أيار/مايو ١٩١٩، وأبحرت في اتجاه سامسون. خشي كمال أن يعمد البريطانيون إلى إغراقها، فأمر القبطان بالبقاء على مقربة من الشاطئ فيمكنه ورفاقه التجذيف أو السباحة إلى برّ الأمان إذا هوجموا. لم يقع الهجوم، لكن القادة البريطانيين في اسطنبول علموا متأخرين بتعيين كمال وراودتهم الشكوك. أوفدوا مبعوثًا لتحذير الصدر الأعظم من إيكال مثل هذه المهمة الدقيقة إلى بطل غاليبولي.

«جئت متأخرًا جدًّا، يا صاحب السعادة»، أجاب الصدر الأعظم، وهو يميل إلى الوراء على كرسيه ويشبك أصابع يديه بعضها ببعض. «فالعصفور قد طار»(٢).

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 154.
(٢) المصدر نفسه، ص. ١٥٨.

لاطمت الأمواج العاتية الـ«بانديرما» وهي تقترب من سامسون تحت غيوم بعد ظهر التاسع عشر من أيار/مايو. وأرساها قبطانها في الميناء المتلاطم الموج بدلاً من المخاطرة بالإبرار. وأرسلت القوارب للمجيء بكمال ورجاله – وعددهم ٥٤ – إلى استقبال ترحيبي.

أخذ كمال، في السنوات التالية، يجيب عندما يُسأل عن تاريخ ميلاده، بأنه «١٩ أيار/مايو ١٩١٩». وقد وافقته أمته الرأي، وبات التاسع عشر من أيار/مايو الآن عيدًا وطنيًا في تركيا.

أوفدت الحكومة كمالًا إلى سامسون وأمرته بقمع الاضطراب، لكنه خطط للقيام بالعكس: تحويل الغضب التركي البدائي حركة ثورية على ما يكفي من القوة لطرد الجيوش الأوروبية المحتلّة.

كتب اللورد كينروس أن «مصطفى كمال الذي انطلق الآن في مرحلة حاسمة من حياته وحياة بلاده، مناضل محنّك وواثق من نفسه وعلى قاب سنتين من الأربعين، وقد أثبت نفسه كجندي خلال ١٤ عامًا من الخدمة القاسية. وبات عليه الآن أن يثبت نفسه كسياسي ورجل دولة. وها إن التحدّي الذي سعى إليه خلال سنوات الإحباط الحارقة تلك عاد ليواجهه في جرأة وإثارة ووضوح»[١].

أمكن سامسون أن تكون مكانًا منعزلًا لولا أن السلطان عبد الحميد المصاب بجنون الشك والحريص على البقاء على اتصال مع ألوية جواسيسه، بنى قبل ذلك بعشرين عامًا شبكة من التلغراف تربط كل المدن التركية. وأدرك كمال أن هذه الشبكة تشكّل جائزة كبرى. وأمضى ساعات، كل يوم، في مكتب التلغراف في المدينة يملي برقيات وطنية، ورسائل ازدراء إلى وزراء السلطان، وخطابات تنديد باحتلال الحلفاء. وبعث بنسخ عنها إلى الصحف والسفارات الأجنبية والحكّام ورؤساء البلديات والقادة العسكريين.

(١) المصدر السابق، ص. ١٦٣.

ارتاع البريطانيون لوقاحة كمال وأصرّوا على الصدر الأعظم أن يستدعيه. إلا أن كمالًا كان، مع صدور الأمر، انتقل إلى الداخل الأناضولي. ووضع التصوّر للمرحلة الثانية من تمرّده في بلدة أماسيا ذات البساتين الخضر، حيث قام يوليوس قيصر بإعلانه الشهير: «جئت، رأيت، وانتصرت». فسيستدعي قادة المقاومة من مختلف أنحاء الأناضول ويضمن إعلانهم، باسم الشعب التركي، أن حكومة اسطنبول سقطت تحت السيطرة الأجنبية وباتت بالتالي غير شرعية.

والتقى كمال في أماسيا سرًّا ثلاثة من أوثق رفاقه – رؤوف أورباي، القائد السابق للبحرية العثمانية؛ وعلي فؤاد، سليل عائلة عسكرية قديمة وبطل حرب البلقان؛ ورأفت بك الذي سبق له أن قاد الجيش العثماني في فلسطين – وأطلعهم على مخططه. واتفقوا جميعهم على دعمه؛ وكذلك فعل العضو الأخير في الحلقة الداخلية، قره ـ بكر، الذي يقود الجنود في منطقة أبعد إلى الشرق لكنه بعث بموافقته برقيًّا. وأصدر خمستهم بيانًا عامًّا، عُرف لاحقًا بتعميم أماسيا[١]، يُعلن للمرة الأولى كتابة ما سيصبح المطلب الرئيس لهذه الثورة: على الأتراك أن يحكموا الأناضول كاملًا. ولن يقبلوا أي تقسيم، أو انتداب، أو احتلال أجنبي، ولا حكم المسيحيين.

وتضمّن هذا الإعلان أيضًا ملحقًا سرّيًا أبلغه الموقعون عليه شفهيًا إلى الرفاق الموثوق بهم. وأمر بألا تسمح أي مجموعة مقاومة بأن تُحلّ، وألا يتخلّى أي ضابط عن قيادته لأجنبي، وألا يُسلَّم أي سلاح أو ذخيرة. فالحرب تلوح في الأفق.

ردّت الحكومة، في صرامة، على تعميم أماسيا وأمرت الحكّام ورؤساء البلديات بعدم التعاون مع «المنظمات العاصية والعديمة الاحترام وغير الشرعية»[٢]. وحاولت بعد ذلك بأسبوعين اعتماد سياسة جديدة عرضت فيها العفو عن ارتكابات كمال إذا عاد إلى اسطنبول.

(١) المصدر السابق، ١٧١-١٧٢؛ Armstrong, Grey Wolf, p. 130; Mango, Atatürk, pp. 230–31.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 232.

وأجاب كمال برقيًا: «سأعود من الأناضول عندما نحصل على الاستقلال»(١).

أصبح بذلك فصل كمال من الجيش أمرًا محتمًا. ووصلت برقية إعفائه من الخدمة بعد لحظات على إرساله واحدة باستقالته. فودّع الجيش في خطاب في أرضروم – عاصمة الحثّيين والأراراتيين في عصور ما قبل التاريخ المكتوب وجائزة الفاتحين من أحشويرش إلى تيمورلنك – وأخذ على نفسه عهدًا «بتحقيق هدفنا الوطني المقدّس»(٢).

صباح الثالث والعشرين من تموز/يوليو ١٩١٩، اجتمع مندوبون لما أُطلق عليه اسم «مجلس أرضروم» المفخّم، في مبنى من طبقة واحدة كان في ما مضى مدرسة أرمنية. ومعظمهم من قادة مجموعات المقاومة من مدن البحر الأسود وشرق الأناضول. ودعا كمال، وهم مجتمعون، إلى تلاوة الصلوات الإسلامية والتضحية بأحد الخراف. واقترح أيضًا إرسال برقية ودّية إلى السلطان في ما شكّل جزءًا من حيلته، إذ يجب، كي يتمكن من تشكيل جيش، أن يُنظر إليه مدافعًا عن مؤسستين يستعد الأتراك للموت في سبيلهما وهما: الإسلام والسلطنة. وهو في الواقع يرفض كليهما.

تمكن كمال، على رغم بعض المعارضة، من تأمين انتخابه رئيسًا لمجلس أرضروم. وندد في خطابات ألقاها في الأيام القليلة التالية بالحلفاء وبحكومة اسطنبول المطواعة التي تنفّذ رغباتهم. وحذا بقيّة المندوبين حذوه.

وأكّدوا في بيانهم الختامي أنه «أمر أساس أن تنصاع حكومتنا المركزية لإرادة الأمة». وأضافوا أن «لا شرعية للقرارات التي لا ترتكز على إرادة الأمة»(٣).

---

(١) Armstrong, *Grey Wolf,* p. 133.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 177.

(٣) Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2: Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey 1808– 1975* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), p. 345.

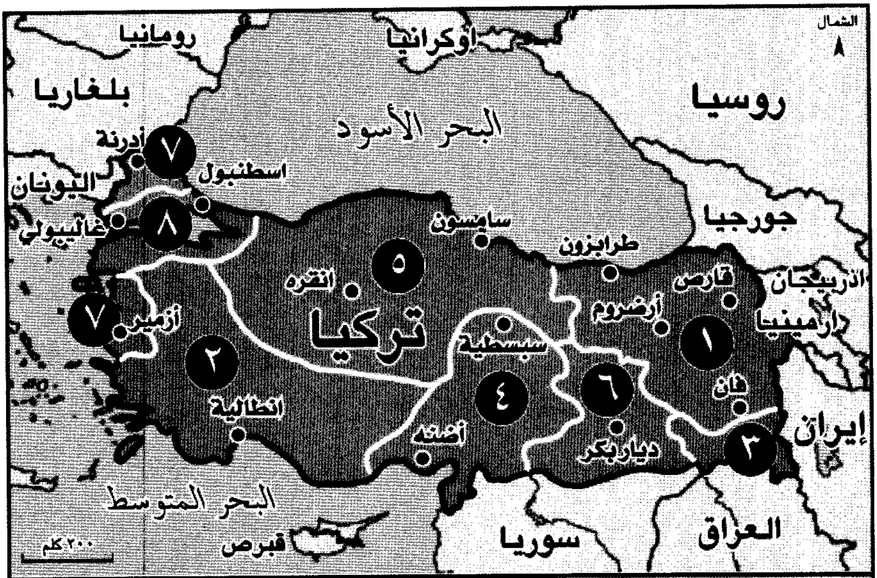

التقسيم المقترح للأناضول: معاهدة (سيفر) في ١٩٢٠

- ١ أرمينيا
- ٢ إيطاليا
- ٣ بريطانيا
- ٤ فرنسا
- ٥ الأراضي التركية المتبقية
- ٦ إقليم كردي محتمل
- ٧ اليونان
- ٨ سيطرة دولية (منزوعة السلاح)

دعا كمال، بعد ذلك بستة أسابيع، إلى «مؤتمر» ثان، على أن يُعقد هذه المرّة في سبسطية، على بعد ٣٥٠ ميلًا إلى الغرب. وقرر الصدر الأعظم أنه الوقت المناسب لتوقيف كمال، وأمر الحاكم المحلّي باقتحام المدينة بقوة من رجال القبائل الأكراد. جُمعت القوة. لكن الحاكم أحجم في اللحظة الأخيرة عن الهجوم.

«صعاليك، قتلة، خونة!» انفجر كمال في برقية إلى وزراء الحكومة بعد معرفته بالمؤامرة المجهضة. «أنتم تتآمرون مع الأجانب على الأمة»[١].

وحذا المندوبون الثمانية والأربعون إلى مؤتمر سبسطية مثال أرضروم وتبنّوا قرارات تؤكّد عدم تقسيم الأناضول. وبعد أيام قليلة على ذلك، دخل مسلحون وطنيّون مكتب حاكم مدينة طرابزون على البحر الأسود واعتقلوه. أخذت سلطة اسطنبول في الانهيار. وأُجبر الصدر الأعظم على الاستقالة.

تمكّن كمال من إسقاط الحكومة بعد أربعة أشهر على نزوله من «بانديرما» لإطلاق تمرّده. وأخذت السلطة تنساب من النظام العثماني إلى يديه، ولم تخرج منهما قط.

وقال كمال بعد علمه باستقالة الصدر الأعظم: «شارفت المرحلة الأولى النهاية»[٢].

مرّت بعثة أميركية تدرس الظروف في الأناضول بسبسطية، وكمال فيها. وأصبح رئيسها الجنرال ج. غ. هاربورد، واحدًا من أوائل الأميركيين الذين أجروا محادثة طويلة مع كمال. وقد وجد أمامه «شابًا ذا ذكاء قوي وحاد» توحي بشرته البيضاء «بوجود دم شركسي أو غيره في سلالته». تحادثا طوال ساعتين. ولما سأله الجنرال هاربورد عما يأمل في تحقيقه بالجيش الذي يجمعه، فكّر كمال، لحظة، ثم قطع، في قوة، خيط السبحة التي كان يلعب بها بيديه. وتناثرت حبّاتها على الأرض. وانحنى كمال من ثم وجمعها، ثم وضعها كلّها في راحة يده وأراها لضيفه. وقال: هذا ما سنفعله بهذا الوطن المقطّع الأوصال.

وأبلغه الجنرال هاربرود، صراحةً، أن الأمل في هزيمة القوة الحليفة بعد هذا الوقت القصير على انتصارها في الحرب الكبرى يسير «بعكس المنطق، وبعكس الوقائع العسكرية».

(١) Mango, *Atatürk*, pp. 250– 51.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 196.

أجابه كمال: «ما تقوله صحيح، أيها الجنرال. ولا يمكن في حالنا هذه شرح ما ننوي القيام به، لا بالعبارات العسكرية ولا بغيرها. لكننا سنقوم به على رغم كل شيء»(١).

تعاطف النظام الجديد في اسطنبول مع القضية الوطنية. وأوفد مبعوثًا إلى كمال يسأله عن رأيه في الدعوة إلى انتخاب برلمان جديد. تكهّن كمال بفوز الكثيرين من الوطنيين فأعطى الفكرة دعمه الكامل. وجاءت نتيجة الانتخابات كما توقّعها تمامًا. ولما يكد يمضي أسبوع على التئام البرلمان الجديد حتى أصدر قرارًا يرفض أي تقسيم للأناضول ويصرّ على «الاستقلال التام». وتبع ذلك المزيد من القرارات. وفي النهاية عيل صبر الإنكليز، فبعثوا جنودهم لاعتقال زعماء البرلمان واحتلّوا مكاتب الحكومة، وأعلنوا أن عاقبة المزيد من التحدّي ستكون الإعدام(٢).

أعلن كمال، في برقية عامة وجدانية، أن «الأمة التركية مدعوّة اليوم إلى الدفاع عن قوّتها الحضارية، عن حقها في الحياة والاستقلال – عن مستقبلها كلّه»(٣)!

بعد ذلك ببضعة أيام، في ١٨ آذار/مارس ١٩٢٠، اجتمع البرلمان سرًّا وصوّت للبدء بتعليق جلساته، مدة غير محدّدة، تفاديًا للتعاون مع الاحتلال الأجنبي. ووثب مصطفى كمال لتحويل هذا التصويت لمصلحته. وحثّ أعضاء البرلمان على إعادة الاجتماع، ليس في اسطنبول، بل في أنقرة المدينة الأناضولية التي جعل منها مقرّ قيادته.

شكّلت تلك ضربة متألّقة الذكاء. وسلك أكثر من ثمانين عضوًا في آخر برلمان عثماني الطريق الوعرة إلى أنقرة. وانضموا فيها إلى عدد يكاد يكون مماثلًا من مندوبي المجموعات المقاومة لتشكيل هيئة جديدة، هي الجمعية الوطنية الكبرى، التي امتلكت حقًّا معنويًا قويًا – ولو غير شرعي – للتحدّث باسم الأمة التركية.

(١) المصدر السابق، ص. ١٨٩.

(٢) Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, pp. 149–50; Kinross, *Atatürk*, pp. 202–9.

(٣) Mango, *Atatürk*, p. 272.

لم يكن البريطانيون، بالتأكيد، مستعدين لتسليم جائزة أمبراطورية رائعة إلى زمرة من رجال حرب العصابات ومن الضبّاط المطرودين. وأوعزوا إلى السلطان الضعيف الإرادة بإعادة الصدر الأعظم إلى موقعه، ثم عملوا على أن يُصدر كبير رجال الدين العثمانيين، شيخ الإسلام، فتوى تدين الزعماء الوطنيين بأنهم كفّار وتُشجّع المؤمنين الحقيقيين على قتلهم. ردّ كمال بجمعه ٢٥٠ رجل دين من مختلف أنحاء الأناضول لتوقيع فتوى مضادة تعلن أن الأجانب يحتفظون بالسلطان سجينًا، وأن على المسلمين الصالحين إنقاذه بالتمرّد على الحكم الأجنبي، على أن يتم في الوقت نفسه تجاهل أي فتوى تصدر من اسطنبول[١].

كانت أنقرة مدينة بعيدة، موحلة، عندما التأمت الجمعية الوطنية الكبرى في أول جلسة لها فيها. وانتُخب مصطفى كمال رئيسًا لها بمئة وعشرة أصوات من أصل مئة وعشرين، على رغم بعض الاستياء الناتج عن ولعه المعروف بالنساء السهلات المنال وبالكحول. استحضر، في خطابه الافتتاحي، المبدأ الإسلامي القائل إن الكتلة الأكبر من المؤمنين هي التي يجب أن تتولى السلطة، وحثّ الجمعية على المطالبة بالسلطة التنفيذية كما بالسلطة التشريعية على الأمة. وافق المندوبون، وعيّنوا لجنة من عشرة أعضاء تكون بمثابة حكومة ظل. وسرعان ما برز كمال، وهو ما لم يفاجئ أحدًا، زعيمًا لها.

أمكن حتى ذلك الحد عدُّ كمال ورفاقه بما هو أقل من متمرّدين – قوة منشقّة بالتأكيد، لكنها قوّة تهدف، فحسب، إلى إعادة الحكومة إلى رشدها. إلا أن أي شكّ انتفى مع انعقاد الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة ومطالبتها بسلطات الدولة. ردّت الحكومة في اسطنبول بالإعلان أن كمالًا وخمسة وطنيين آخرين غيره حوكموا غيابيًّا وصدرت في حقّهم أحكام بالإعدام.

أخذت الثورة التركية شكلها بطرق مشابهة للثورة الأميركية قبل ذلك بمئة

(١) المصدر السابق، ص. ٢٧٥؛ Aksin, Turkey from Empire to Revolutionary Republic, p. 155.

وخمسين عامًا. تلاحم المتمردون بعضهم مع بعض لقلب السلطة البريطانية. وشكّلوا هيئات غير شرعية لتوجيه كفاحهم، وأنتجوا زعيمًا لهم جمع بين المهارة العسكرية والكاريزما الشخصية العظيمة. وبين مبادئهم حق تقرير المصير واعتراف موسّع - ولو غير شامل - بحقوق كل مواطن. ولما انطلقوا في تمرّدهم بدت احتمالات الانتصار مبهمة. ودفعتهم الحماسة الوطنية إلى القتال على رغم الاحتمالات المرعبة.

رأى قادة الحلفاء أن الأتراك عاجزون عن المقاومة، وفشلوا تمامًا في إدراك قوّة تمرّد هذا التجمّع. واجتمع في العاشر من آب/أغسطس ١٩٢٠، دبلوماسيون مرموقون في ضاحية سيفر الباريسية للتوقيع على معاهدة تملي بالتفصيل المؤلم تقسيم الأناضول. وسيصبح الساحل الإيجي الرائع حول أزمير، في غضون خمس سنوات، جزءًا من اليونان على أن يكون عرضة للاستفتاء. وستصبح المقاطعات الشرقية بمثابة الدولة الأرمنية الجديدة. وسيحصل الأكراد أيضًا على منطقة خاصة بهم. وستقع اسطنبول والمضائق تحت «الإشراف الدولي». ولن يبقى للأتراك إلا مساحة صخرية في وسط الأناضول مع منفذ على البحر الأسود، ولكن ليس على بحر إيجه أو البحر المتوسط. وسيحدد عدد جيشهم بخمسين ألف رجل. وسيشرف مصرفيون بريطانيون وفرنسيون وإيطاليون على ماليتهم.

وصف كمال بكلمة واحدة معاهدة سيفر(١) بأنها «أشبه بحكم مشؤوم بالإعدام»(٢). وفهمها، كما فعل الكثيرون من الأتراك، فرمانًا من أوروبا الاستعمارية يعيد تركيب البلاد وتقاسمها بين الأعداء. غير أن مثل هذا الشعب الفخور - وارث الفرسان المحاربين الذين اجتاحوا آسيا بإمرة الخانات المخيفين، والفاتحين العثمانيين الذين بنوا إحدى أقوى الأمبراطوريات في التاريخ - لن يستسلم لقدره خانعًا.

(١) Sèvres Treaty: Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, pp. 156– 58; Deane Fons Heller, *Atatürk: Hero of Modern Turkey* (New York: Julian Messner, 1972), pp. 179– 81; Harry N. Howard, *The Partition of Turkey: A Diplomatic History, 1913– 1923* (Norman: University of Oklahoma Press, 1931), pp. 242– 49; Kinross, *Atatürk*, pp. 230– 32; Mango, *Atatürk*, pp. 284– 85.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 223.

وقد كتب ونستون تشرتشل لاحقًا: «لا يزال التركي حيًّا على رغم أنه مثقل بالحماقات، وملطّخ بالجرائم، ومتعفّن من سوء الحكم، وقد حطّمته المعارك، وأنهكته الحروب الكارثية الطويلة، وأمبراطوريته تتهاوى من حوله». وتابع: «ففي صدره ينبض قلب سلالة تحدّت العالم، وانتصرت، طوال قرون، في صراعها مع جميع الوافدين. وها إن بين يديه، من جديد، تجهيزات الجيش الحديث، وعلى رأسه قائد يحتل، بكل ما هو معروف عنه، مرتبة تضعه بين الشخصيات الأربع أو الخمس البارزة من شخصيات هذا الزلزال. وقد اجتمع في غرف باريس الفاخرة المفروشة بالسجاد مُشرّعو العالم. وفي القسطنطينية، تحت مدافع أسطول الحلفاء، تعمل الحكومة التركية الدُمية. ولكن، وبين التلال القاسية ووديان «مواطن الأتراك» في الأناضول، تقيم فرقة من الرجال الفقراء... ممن لا يريدون للأمور أن تُسوّى على ذلك الشكل. وتجلس في هذه اللحظة روح العدل، بأسمال اللاجئ، عند نيران مخيماتهم»[1].

واستخدم «القائد» مصطفى كمال، كما أشار إليه تشرتشل، معاهدة سيڤار وسيلة للحشد. فكرّس، في ثبات، قاعدة سلطته السياسية، ورسّخ قيادته على جيش المتمردين الآخذ في الازدياد، بتهميش الجنرالات الآخرين. وكان، مع اقتراب الحرب، وطّد سلطته.

وكتبت خالدة أديب، المرأة الوحيدة في حلقة كمال الداخلية، عنه أنه «كان بالتناوب عيّابًا، متشكّكًا، خدّاعًا، وداهية شيطانيًّا. [...] تنمّر. انغمس في بطولات الشارع الرخيصة... بدا، في لحظة، الديماغوجي المثالي، وفي أخرى جورج واشنطن، وتصرف في اللحظة التالية كنابليون. بدا أحيانًا ضعيفًا وجبانًا بائسًا؛ وأظهر في أحيان أخرى قوة وجرأة هائلتين... ويمكن المرء أن يعرف دومًا أنه محاط برجال يتفوقون عليه كثيرًا فكرًا وثقافة وعلمًا. وعلى رغم أنه لم يُجارِ أيًّا منهم براعة أو أسلوبًا، لم يتمكن أي منهم من مساواته في حيويّته. فهم، ومهما بلغت كفاياتهم، في

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 184.

مستوى عادي إلى حد ما. غير أنه لم يكن عاديًّا في ما تعلّق بالحيوية. وهذا وحده ما جعله الشخصية الطاغية»[1].

شعر كمال، وهو يتحضّر للحرب، بأفضلية حاسمة. فرجاله وطنيون يائسون اعتقدوا أن أمتهم على شفير الموت. وهم على استعداد لبذل حياتهم دفاعًا عنها. أما جيوش الاحتلال فمنهكة على أثر حرب طويلة، وليست متشوقة إلى القتال.

هذا هو تبصّر كمال: نحن على استعداد للموت، وأنتم لا. ونرغب، في حماسة أكثر منكم، في أن ننتصر، وسنفعل.

بدأ ما يُطلق عليه الأتراك اسم حرب الاستقلال على ثلاث جبهات، بدءًا من أواسط العام ١٩٢٠. ففي الشرق، قاد قره-بكر الواسع الحيلة القوات التي استولت على حامية قارص، ثم استطاع، في شكل منهجي، دحر الروس والأرمن إلى خارج شرق الأناضول. وتولت قوات أخرى مضايقة حاميات فرنسا وإيطاليا، بلا هوادة، على طول المتوسط، مما دفع البلدين في النهاية إلى السعي من أجل السلام.

وترك ذلك اليونانيين وأسيادهم البريطانيين وحدهم.

عرف القادة اليونانيون أنهم لن يضمنوا احتلالهم، ما دام متمرّدو كمال يتجوّلون، في حرّية. وقرروا مطلع العام ١٩٢١ الشروع في الهجوم، والزحف على أنقرة، وسحق القوة المتمرّدة. وجاء الملك قسطنطين من أثينا ليقود الهجوم شخصيًّا. وضع في الميدان جيشًا مؤلفًا من ١٢٦ ألف رجل، أكبر بقليل من القوة التركية التي ينوي هزمها. وتمتع بتفوّق حاسم في مجال العتاد: ٦١٠ قطع مدفعية في مقابل ٤٠٠ للأتراك، أربعة آلاف مدفع رشّاش ضد سبعمئة، عشرون طائرة في مقابل أربع[2]. ومع

(١) المصدر السابق، ص. ٢٣٧.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 315.

اقتراب هذه القوة الفاعلة من أنقرة، وضع الزعماء الوطنيون خططًا للهرب في حال اقتضت الضرورة ذلك[١].

قرّر كمال ورفاقه المواجهة على بعد ستين ميلًا شرق أنقرة، عند انعطافة نهر سخاريا العريض. وطلبوا، وهم ينشرون قواتهم، المساعدة من جميع المقيمين في الجوار[٢]. وكان على كل ذكر قوي البنية أن يتقدّم للخدمة، وعلى كل من يملك وسيلة نقل أن يسلمها للجيش، وعلى كل عائلة أن تسلّم الجيش كل أسلحتها النارية إضافة إلى زوجين من الأحذية وأربعين في المئة من ثيابها وجلودها وطحينها وشموعها وصابونها. ووصلت في الوقت المناسب أسلحة من الاتحاد السوفياتي الناشئ حديثًا والذي وجد في تمرّد كمال وسيلة لإضعاف بريطانيا؛ أفرغت الشحنات سرًّا في خلجان البحر الأسود ومن ثم، وفي فصول لا تزال تُروى في الأسطورة، نُقلت بالعربات التي كثيرًا ما جرّتها النساء، إلى المعسكرات التركية على طول سخاريا.

أمضى الجنود اليونانيون شهرًا عند الجانب الغربي من النهر وهم يعدّون لهجومهم. وبلغت بهم الثقة بالنصر حدّ دعوة قادتهم الضباط البريطانيين إلى مأدبة النصر في أنقرة. وفيما هم يخططون لاحتفالاتهم، أخذ رجال كمال يحفرون في شكل محموم الحصون والخنادق.

كتبت خالدة أديب: «كان الجيش اليوناني كناية عن تنين طويل أسود، يتلولب صوب أنقرة لالتهامها». وأضافت: «وشكّل الجيش التركي لولبًا طويلًا آخر، يمتد على خط مواز شرق سخاريا لبلوغ أنقرة أوّلًا ومنع التنين الأسود من ابتلاعها»[٣].

شنّ الجنود اليونانيون هجومهم في ٢٣ آب/أغسطس ١٩٢١. واستولوا في اندفاعتهم الأولى على إحدى القمم الاستراتيجية. وتفيد خالدة أديب أن القادة

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٦؛ Erik J. Zürcher, *Turkey: A Modern History* (London: I. B. Tauris, 3991), p. 261.

(٢) Zürcher, *Turkey*, p. 162; Mango, *Atatürk*, p. 318.

(٣) Kinross, *Atatürk*, p. 277.

الأتراك أصيبوا بصدمة، وأنهم توقّعوا «أبشع أنواع المصير»، وأنها شعرت، وهي تراقب مصطفى كمال يمتص الصدمة، «كما لو أن ستارة حديدية من القدر الغاشم، أشبه بستارة النار في المسرح، تنزل متمهّلة، في بطء شديد جدًّا لكنه محتوم»[1]. ولكن، وعلى مرّ الأيام التي تلت، شعر القائد الميداني عصمت باشا خللًا في المقاربة التكتيكية لندّه اليوناني الجنرال أنستاسيوس بابولاس؛ إذ وجد أن بابولاس حذر، غير مثابر، ومتردّد في التقدّم إلى النصر. وقلب عصمت مسار المعركة بعدما صاغ تكتيكاته انطلاقًا من هذا الإدراك. وبعد عشرين يومًا من القتال الضاري على جبهة بعرض ستين ميلًا، انكسر الجيش اليوناني وهرب.

تُعدُّ الخسائر في سخاريا متواضعة بمعايير الحرب العالمية الأولى، غير أنها تبقى، مع ذلك، رهيبة: نحو أربعة آلاف قتيل وعشرين ألف جريح في كل جانب. لم يشكّل الأمر وحسب انتصارًا تركيًّا، بل أيضًا نقطة تحوّل حاسمة في الحرب. فقد غرق في نهر سخاريا، خريف العام ١٩٢١، أي أمل واقعي بإمكان احتفاظ جيوش الاحتلال بموطئ قدم في الأناضول.

طلب ضابطان تركيان، بعد هذا النصر، من الجمعية الوطنية الكبرى أن تمنح مصطفى كمال لقب «الغازي» التاريخي المخصص لكبار المحاربين المسلمين والمدافعين عن الإيمان. ولم يلق الطلب أي معارضة. وكثيرًا ما أطلق على كمال، حتى نهاية حياته، اسم غازي باشا، أو الغازي وحسب.

نجح الأتراك في الدفاع عن أنقرة، إلا أنهم، وعلى غرار أعدائهم اليونانيين، أصيبوا بالإعياء وعجزوا عن مطاردتهم. وحافظت جبهة سخاريا على سكونها ما يقارب السنة. وأخيرًا شن الأتراك في ٢٦ آب/أغسطس ١٩٢٢ موجة مُنسّقة من الهجمات على المواقع اليونانية في مختلف أنحاء منطقة الاحتلال. أُخذ الضباط اليونانيون على حين غرّة، إذ إنهم لم يستوعبوا لا حجم القوة التركية ولا الحماسة التي لا تزال تقودها.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٧٩.

يقول كاتبو سيرة مصطفى كمال إن «نظام شخصيته النرجسيّة شكّل، على غرار غاليبولي، صفة من صفاته الهائلة، إذ قاد بنفسه الهجوم الكبير... وسمحت له عظمته بتجاهل «الوقائع» المُحبطة وبتصوّر نجاح ما أمكن الآخرين تصوّره. وسمح له ذلك أيضًا بالنظر إلى نفسه تجسيدًا لكرامة جميع الأتراك، وقد لُف بوشاح واق أنعم به عليه الوطن الأم. وأمكن مصطفى كمال، وقد برز بمظهر من لا يُقهر، أن يشبع نفسه وجنوده بشعور مفرط من الأمل والعزم»[1].

بلغ هجوم كمال ذروته في ٣٠ آب/أغسطس، عندما دمّرت المدفعية التركية المواقع اليونانية حول مدينة دوملوبينار. وتبعت ذلك هجمات شنّها المشاة بالحراب مما دفع الجيش اليوناني إلى الفرار مذعورًا. ويعيّد الأتراك، اليوم، الثلاثين من آب/ أغسطس بصفة كونه يوم النصر.

«أيتها الجيوش!» صاح كمال بضباطه في ذلك اليوم وقد اجتاحوا دوملوبينار. «هدفك البحر المتوسط! إلى الأمام!».

وطوال الأسبوع التالي، دحر الجنود الأتراك المندفعون المدافعين اليونانيين من مدينة تلو أخرى. ووقع جنرالان يونانيان في شرك الأتراك وأجبرا على الاستسلام مع جيوشهما كاملة، وقد بلغت أعدادها خمسة آلاف جندي وخمسمئة ضابط ومئات عدّة من المدافع الرشاشة. وانهار الجيش اليوناني في غضون خمسة أيام، بعدما مزّقته الخلافات بين فصائله وأضعفه الانتشار الطويل الأمد في أرض معادية.

وهكذا تحوّل حسن حظ اليونان فجأة، وبما لا يُصدّق، كارثة. وسقطت الحكومة في أثينا. وبعد ذلك بقليل دخل أول الفرسان الأتراك المنتصرين أزمير وهم يترنّحون. فقد مرّت عليهم تسعة أيام من دون توقّف وهم يمتطون جيادهم، ولم يتناولوا إجمالاً أي طعام لأن اليونانيين الهاربين أحرقوا، خلال انسحابهم، القرى ومؤن الغذاء.

---

(1) *Immortal Atatürk*, p. 193.

وكتبت خالدة أديب: «بدا الجنود وأحصنتهم كالأشباح، لا تظهر أوقية لحم واحدة على أي منهم»[1].

وصل الغازي نفسه في اليوم التالي إلى أزمير وهو يرتدي ثيابًا مدنية ويركب سيّارة مكشوفة، ورحّب به سكّان المدينة الأتراك بهتافات الابتهاج الحماسية. غير أن الفوضى الدامية خيّمت على معظم المدينة. ارتفع الحقد الطائفي ليبلغ درجة الحمّى. واندفع المسلمون الذين شهدوا أولادهم يُقتلون بأيدي السفّاكين اليونانيين والأرمن، من منازلهم وشرعوا في قتل اليونانيين والأرمن انتقامًا. وبُترت أعضاء مطران الروم الأرثوذكس، الذي تماهى عن كثب مع الاحتلال، ثم قُتل من دون محاكمة. وتسابق عشرات الآلاف من المسيحيين كالمجانين صوب المرفأ حيث ترسو سفن الحلفاء. واندلعت النيران واجتاحت المدينة كما لو في تكملة للمشهد الجهنمي.

وكتب أحد مراسلي الصحف الذي راقب المشهد من إحدى البواخر الحربية البريطانية: «سطع وجه البحر أشبه بالنحاس المحترق... عشرون بركانًا مختلفًا من اللهب العنيف الذي ينفث ألسنته فتندفع مسرعة وملتوية إلى علو مئة قدم. وتحوّلت أبراج الكنائس اليونانية، وقبب الجوامع، وأسطح المنازل المسطحة، ظلالًا وراء ستار من اللهب»[2].

أُجلي في الساعات التي تلت أكثر من مئتي ألف رجل وامرأة وطفل - غالبية سكان أزمير - إلى اليونان. صُعق اليونانيون، ومعهم البريطانيون. لم يعتقد أحد أن في وسع الأتراك إحراز مثل هذا النصر.

صدرت الأوامر للدبلوماسيين البريطانيين بتفادي أي اتصال بمصطفى كمال، لكن القنصل البريطاني في أزمير التقاه مصادفة في أحد الشوارع، بعد وقت قليل على انتصاره. وقال له القنصل إنه يمتلك سلطة توقيف أي تركي في المدينة بما أن بريطانيا وتركيا لا تزالان تقنيًا في حال حرب. غير أن كمالًا لم يتأثّر.

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 321.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٣٢٥.

وسأله ساخرًا: «ألستم من أنزل الجيش اليوناني في الأناضول؟ ونحن الشعب الذي هزم الجيش اليوناني وطرده من أراضيه؟»[١].

لم تمضِ على الغازي سوى بضعة أيام في أزمير عندما علم أن شابة اسمها لطيفة أوشاكي ترغب في رؤيته. خذلها في البداية، غير أنه عاد ودعاها إلى الدخول بعدما وجدها شابة وترتدي ثيابًا معاصرة. تبيّن أنها ابنة أحد رجال الأعمال المحليين، وتتمتع بذكاء متوقّد وتتقن الفرنسية والإنكليزية، وهي في عطلة من دراستها في كلّية الحقوق في باريس، فضلًا عن أنها وطنيّة متحمّسة تحمل صورة لكمال في القلادة التي تضعها في عنقها. تحادثا طويلًا. وقَبِل لاحقًا دعوتها إلى نقل مقر قيادته إلى منزل أهلها خارج المدينة. وأصبحت سكرتيرته ورفيقته.

وكتب اللورد كينروس: «اهتمت، بأسلوبها الفاعل، بصحته وبراحته المنزلية... وحفّزت ذهنه بفصاحة حديثها، وحججها، ونصائحها، وأفكارها المتولدة من ثقافتها الأوروبية الواسعة. وهي امرأة يستطيع الكلام معها كما يستطيع ذلك مع قلة من الرجال المحيطين به. وهي علاقة سبق له أن تذوّقها... مع امرأة أوروبية مماثلة هي كورين لطفو... سوى أن لطيفة من طينته نفسها، وأثارت حماسته كما لم يفعل الآخرون إلا في شكل سطحي... حاول، في قوة، إغواءها، هو المتعوّد على النساء «المتوافرات»، اللواتي ينصعن في سهولة. لكنها صدّته حازمة. فهي قد تصبح زوجته لكنها لن تصبح أبدًا عشيقة له. فهي امرأة متحرّرة، وهذه هي مبادئها»[٢].

وكان من الأسهل التفاوض مع الإنكليز. وردّ للويد جورج على كارثة أزمير بالتعهّد أن بريطانيا «لن تهرب أبدًا من أمام مصطفى كمال»[٣]. لكن الكثيرين من مواطنيه أرادوا القيام بذلك وحسب. والتقط عنوان في «الديلي ميل» المزاج العام:

(١) المصدر السابق، ص. ٣٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص. ٣٢٩.
(٣) المصدر نفسه، ص. ١٣٩؛ Mango, *Atatürk*, p. 351.

«أوقفوا هذه الحرب!»[1] ومع ذلك مضى للويد جورج قدمًا. وأدت الارتدادات السياسية إلى إسقاط حكومته.

أدرك البريطانيون، بعد خمس سنوات على إبحار سفن الحلفاء الحربية منتصرة إلى اسطنبول، أنهم لن يتمكنوا في النهاية من حكم الأتراك.

أوفد الغازي واحدًا من أمناء أسراره، رأفت بك، الذي تولى منصب رئيس الحكومة في النظام الثوري، إلى اسطنبول سرًّا حاملًا رسالة إلى السلطان وحيد الدين. والتقيا في جناح السلطان المصمّم على الطريقة السويسرية في قصر يلدز الرابض على تلّة تشرف على البوسفور. ووجد رأفت الرجل العجوز ممتقع الوجه وخائفًا.

قال له رأفت: «سيدي، لا يمكن الوضع الراهن أن يستمر. لا يمكن وجود حكومتين في تركيا، واحدة في اسطنبول وأخرى في أنقرة. جئت أناشدك أن تنحني أمام قوة الأحداث وتضع حدًّا لهذه الازدواجية التي لا تصب في مصلحة الأمة، بالطلب من حكومتك أن تستقيل».

اعترض السلطان؛ وأفاد رأفت في برقية إلى أنقرة أنه «بعيد كل البعد عن طريقتنا في التفكير». وهو كل ما أراد كمال سماعه. فدعا الجمعية الوطنية الكبرى إلى الانعقاد وطالبها باتخاذ خطوة جذرية يتعذّر فهمها: فصل السلطنة عن الخلافة الإسلامية التي عُهد بها، قرونًا، إلى العاهل نفسه؛ وإلغاء السلطنة؛ ومنح موقع الخلافة «لعضو الأسرة العثمانية الأكثر أهلية بعلمه وطبعه»[2].

عارض بعض النوّاب ممن لا يتمكّنون من استيعاب فكرة الدولة التركية من دون سلطان.

فردّ كمال بموجز لاذع للتاريخ التركي والدروس التي تعلّمها منه.

(١) *Daily Mail* (London), September 15, 1922.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 348.

وقال لرفاقه النوّاب: «أيها السادة، لم تُعطَ السيادة والسلطنة لأحد، لأن العلم أثبت أنه يفترض بهما ذلك. فالسيادة والسلطنة تؤخذان بالاقتدار والسلطة والقوة. فبالقوة استولى أبناء عثمان على سيادة الأمة التركية وسلطنتها. واستمرّ هذا الاغتصاب ستة قرون. وها إن الأمة التركيّة قد تمرّدت ووضعت حدًّا لهؤلاء المغتصبين، وأمسكت بيديها بالفعل بالسيادة والسلطنة. هذا أمر مقضي... والمسألة الوحيدة المتبقيّة هي طريقة التعبير عنه»(١).

لم يوافق النوّاب جميعهم. وحاجج بعضهم بعدم إجبار الأمة المتعوّدة على السلطنة العثمانية على إلغائها بهذا الشكل الفجائي من دون معرفة البديل منها. واحتدم النقاش. ولما شعر كمال أن التيار لا يعمل لمصلحته، اجتمع مع مؤيديه في إحدى زوايا المجلس. ثم تقدم من المنصة ودعا إلى تصويت فوري - بالتزكية. وهو ما أثار عاصفة من الاحتجاجات.

«طالب نوّاب»، بحسب إحدى الروايات، «بالتصويت عبر المناداة بالأسماء. لكن كمالًا رفض الموافقة. وكان أتباعه مسلّحين؛ وبعضهم قادر على أي عمل؛ وسيطلقون النار إذا أمر بذلك. «أنا واثق من أن المجلس سيجمع على القبول»، قال وفي صوته نبرة تهديد، وحرَّك أتباعه مسدساتهم في أجربتها. عمل رئيس [المجلس] بالاقتراح وعينه على مصطفى كمال. ارتفع بعض الأيدي. وقال الرئيس «تمت الموافقة بالإجماع!» قفز نحو عشرة من النواب إلى المنصة للاعتراض: «هذا غير صحيح! فأنا ضدّه!» وصاح آخرون وصفّروا احتجاجًا «اجلسوا! أقفلوا أفواهكم! خنازير! حقيرون!»؛ وأخذوا يتبادلون الشتائم والإساءات. وحدث هرج ومرج. وبإيماءة من رأس كمال، كرّر الرئيس قراره، صائحًا وسط الضجيج... وختم الاجتماع. وغادر مصطفى كمال المجلس محاطًا بأتباعه»(٢).

(1) Kinross, Atatürk, p. 348; Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London: Oxford University Press, 1961), p. 258.

(٢) Armstrong, *Grey Wolf,* pp. 226–27.

ما إن علم السلطان المُربك بأن ثوريي أنقرة ألغوا وظيفته حتى استدعى المندوب السامي البريطاني السير هوراس رامبولد، وطلب نصيحته. فأبلغه السير هوراس، بما أمكن من الرهافة، أن ليس أمام البريطانيين من خيار آخر سوى الشروع في التعامل مع نظام أنقرة الظافر.

وتلك كانت النهاية.

بعث السلطان في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٢ برسالة إلى السير هوراس يبلغه فيها أنه يرغب في الهرب. وفي السادسة من صباح اليوم التالي وصلت سيارة إسعاف بريطانية تحت زخات المطر إلى قصر يلدز وولج إليها السلطان الذي وصفه مختلف الروايات بأنه «مجرّد ظلّ لملك» و«كليل وهامد كإنسان آلي»[(١)]. ونُقل إلى أسفل التلة إلى ضفة البوسفور، ومن هناك بزورق بخاري إلى السفينة الحربية البريطانية، مالايا. وانطلق قبطانها ووجهته إلى مالطا. وما إن غابت اسطنبول في البعيد حتى انتهت السلطنة العثمانية التي استمرّت ٦٣٤ عامًا.

«ولّت الأحلام والظلال!» صاح الغازي بعد سماعه النبأ. «لقد ألغيتُ السلطان وعفن الأمبراطورية العثمانية»[(٢)].

سبق للزعماء الثوريين أن فكّروا في توقيف السلطان، سوى أن رحيله شكّل حلًّا أفضل. تحرّك رأفت، بعدما علم بذلك، وقام بخطوته التالية، فاستدعى أحد أنسباء السلطان الأمير عبد المجيد، وهو رسّام وموسيقي ومنسّق حدائق استُبعد عن السياسة لأن عائلته خشيت غرائزه الليبرالية، وطلب منه أن يصبح خليفة المسلمين. فوافق وتولّى منصبه، يوم الجمعة التالي. وارتدى، بدلًا من الثوب التقليدي والسيف، معطفًا على الطراز الأوروبي. والموسيقى الوحيدة التي عُزفت في الاحتفال كانت

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 349.

(٢) Heller, *Atatürk*, p. 111.

نشيد الاستقلال المؤلّف حديثًا. ورتّل أحد الأئمة الصلوات ولكن بالتركيّة بدلًا من اللغة العربية التقليدية(١).

لم يكتف كمال بهز العالم الإسلامي بهذه الطريقة، بل اتخذ أيضًا خيارًا شخصيًّا مثيرًا. ففي أحد أيام كانون الثاني/يناير، وبعد أربعة أشهر على لقائه لطيفة، أخبرها أن عليهما الزواج على الفور– بعد ظهر ذلك اليوم. لكنّها تمكّنت من إرجاء المناسبة يومين. وأجريت المراسم، في بساطة، وحضرها كاظم قره ـ بكر وحفنة من رفاق الغازي المقرّبين الآخرين، كشهود. وقد تشارك الزوجان في شغفهما الحار بالمشروع العصري لتحديث تركيا، وظهر بالتالي أنهما مناسبان جدًّا أحدهما للآخر. ولكن وُجدت هوّة واسعة في فارق العمر بينهما – هي في الرابعة والعشرين وهو في الثانية والأربعين – خصوصًا أن سنوات من الحياة الصعبة كعازب وقائد عسكري جعلته فظًّا، وأقل من زوج مثالي.

بدا أن مصطفى كمال، بحسب أحد كاتبي سيرته، «لم ينظر إلى لطيفة في أي لحظة على أنها شخص بل رمز لنجاحه... وهي سُرت كثيرًا بالطبع بزواجها من بطلها المثالي، لكنها لم تمتلك أي رغبة، او امتلكت القليل منها في التعرّف إليه ككائن بشري»(٢).

تزوجا، فيما كمال يواصل استعداداته لإيفاد بعثة تضمن سلامًا نهائيًّا مع بريطانيا. فقد أدّت الانتصارات التركية في ساحة المعركة إلى سقوط معاهدة سيفر الكريهة، واقترح الأتراك أن يجتمع المتحاربون السابقون في أزمير للتفاوض على واحدة جديدة. غير أن اللورد كرزون رفض إجراء محادثات على الأرض التركية. واتفق المتفاوضون في النهاية على الاجتماع في مدينة لوزان السويسرية. وتمتع رئيس الوفد التركي عصمت باشا، بموقع قوي. فقد انتصر الأتراك في حرب استقلالهم، وحُقَّ لهم إملاء شروطهم للسلام.

(١) Mango, *Atatürk*, p. 366.

(٢) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 223.

اعترفت بريطانيا على مضض بهذا الواقع، ووافقت في ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٣ على معاهدة لوزان التي منحت الأتراك جائزتهم: السيطرة المطلقة على الأناضول كاملًا. وتخلوا عن سيادتهم على معظم جزر بحر إيجه القريبة من سواحلهم ولم يصرّوا على المطالبة بالمنطقة المحيطة بالموصل التي أصبحت لاحقًا جزءًا من العراق. بل أخذت تركيا بدلًا من ذلك قضمة من شرق تراقيا وحصلت معها على موطئ قدم في أوروبا.

أبحر آخر جنود الحلفاء من اسطنبول في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣. وخلفوا وراءهم أمة مدمّرة ومقتلعة من جذورها لكنها متحرّرة من أي قوّة خارجية ومستعدة لإعادة بناء نفسها. حاول العالم أن ينتزع من الأتراك وطنهم. لكنه فوجئ بالأتراك يتمرّدون وينتصرون.

وقال الغازي لأحد أصدقائه بعد كسب حرب الاستقلال: «يعتقدون أنها النهاية وأنني قد حققت هدفي... غير أن عملنا الحقيقي لم يبدأ إلّا الآن»(١).

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 343.

٣
لا خيار لنا
سوى اللحاق بالركب

أيقظ صوت المدافع ملايين الأتراك قبيل بزوغ فجر يوم الثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣. بشّرت الطلقات التي مزّقت الظلمة ببزوغ شمس لم يسبق لها أن أشرقت قبلًا على المسلمين. فقد وُلدت للتو، من أطلال الأمبراطورية العثمانية، أمة لا تشبه أي أمّة في التاريخ الإسلامي.

قبل ذلك بساعات قليلة، أذهل بطل حرب الاستقلال الغازي مصطفى كمال الجمعية الوطنية الكبرى بإعلانه قرارًا اتخذه قبل سنوات وأبقاه حتى تلك اللحظة طي الكتمان. قال إن على الأتراك أن يحظوا بنظام سياسي حديث إذا أرادوا الانضمام إلى العالم المعاصر. وهو ما يتطلّب تعديل الدستور، واقترح الطريقة.

جاء في التعديل الذي اقترحه كمال «أن شكل الحكم في الدولة التركية جمهوري... على أن تنتخب الجمعية الوطنية الكبرى رئيس الجمهورية».

سبقت ذلك إشاعات عن أن الغازي سيتخذ مثل هذه الخطوة الجذرية، لكنها أثارت مع ذلك الاستفظاع الشديد. فقد تكيّف الأتراك مع قرون من الولاء للسلطان. وافترض الجميع، بعد خلع السلالة العثمانية، أن واحدة جديدة ستأخذ مكانها. فقد

خاضوا حرب الاستقلال لطرد الأجانب، لا لإقامة جمهورية لم تردها سوى القلّة. بل إن البعض منهم عدَّ الفكرة مناهضة للإسلام. إلا أن مصطفى كمال تجاهلهم جميعًا. ودفع، من خلال سلسلة من المناورات الحاذقة، بتعديله عبر الجمعية المُربكة.

ومنح بذلك الحياة لأول جمهورية تنشأ في بلاد إسلامية، على الإطلاق.

وما إن تقرّر أن تركيا ستحظى برئيس حتى أدرك الجميع هويّة هذا الأوّل، فمصطفى كمال هو المرشّح الوحيد. وجاءت النتيجة ١٥٨ صوتًا لكمال، ولا شيء لغيره، ولكن، وهذا هو اللافت، مع امتناع ١٠٠ عن التصويت. خشي الكثيرون من النواب ما سيأتي، سوى أن كمالاً هو البطل التركي البارز، وأن مواطنيه مستعدون للسير وراءه أينما قادهم.

أما بالنسبة إلى إرادة الشعب، فأمر لم يهتم به كمال البتة. إذ إن نسبة مئوية صغيرة جدًّا من الشعب التركي تدعم المشروع الجذري الذي تصوّره. ولم يبالِ؛ فهو يعرف ما على الأتراك القيام به، وقد صمم على جعلهم يفعلونه. فشعار حزب الشعب الجمهوري التابع له هو: «من أجل الشعب، على رغم الشعب».

وعد كمال، في خطاب موجز أعقب انتخابه رئيسًا، بأن «الحظ والنجاح والنصر» ستُكتب للجمهورية التركية. ثم أمر بأن تُنشر أخبار هذا الحدث العظيم برقيًا في كل أنحاء البلاد وبأن يستيقظ الشعب على أصوات مئة تحيّة مدفعية ترحيبًا بالعصر الجديد[1].

لم يتسنَّ إلا لقلة من الأتراك إدراك معنى هذا التغيير المفاجئ. وكتب مسافر عبر

(١) Feroz Ahmad, The Making of Modern Turkey (London: Routledge, 1993), pp. 53– 54; Sina Akşin, Turkey from Empire to Revolutionary Republic: The Emergence of the Turkish Nation from 1789 to Present (New York: New York University Press, 2007), p. 190; Lord Kinross, *Atatürk: The Rebirth of a Nation* (New York: William Morrow, 1985), p. 381; Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London: Oxford University Press, 1961), pp. 261– 62; Andrew Mango, *Atatürk: The Biography of the Founder of Modern Turkey* (London: John Murray, 1999), pp. 396– 97.

الأناضول بعيد إعلان الجمهورية أن مجموعة من القرويين قاربته في إحدى الليالي بعد العشاء ورغبت في أن تطرح عليه «بعض الأسئلة».

قال أحدهم: «سمعنا أن الجيش التركي الظافر قد دخل اسطنبول، فما الذي حلّ بسلطاننا؟»

قلت: «لقد تنازل عن العرش وغادر اسطنبول على متن بارجة حربية بريطانية».

أعقب ذلك صمت عميق، إذ شرع القرويون في التفكير مليًّا في كلامي. «ومن إذًا سيصبح سلطانًا؟»

«لن يكون هناك سلطان، بل خليفة، فحسب، وهو عبد المجيد، نسيب السلطان».

«وكيف يعقل أن تصبح البلاد من دون سلطان؟»[1]

«ستكون هناك جمهورية».

«ما الذي يعنيه ذلك؟» وحاولت أن أشرح لهم، لكنهم لم يفهموا، أو لم يريدوا أن يفهموا، وواصلوا القول: «ولكن لا يمكن وجود دولة من دون سلطان!».

مع تسلم كمال السلطة في تركيا، شرع رضا في إحكام قبضته على إيران. لم يرضه أن يصبح رئيسًا للوزراء. ووضع نصب عينيه سلالة القاجار الحاكمة التي احتقرها بالقدر نفسه الذي احتقر فيه كمال العثمانيين. وأجبر، نهاية ١٩٢٣، أحمد شاه، البسيط البدين، على المغادرة في رحلة إلى أوروبا، على أن يُفهم من ذلك، أنه لن يعود منها أبدًا.

من نزوات التاريخ الملحوظة – ولو أن ليس في الأمر مصادفة – أن يُنتج كل من تركيا وإيران، أوائل عشرينات القرن العشرين، زعيمين مهووسين بفكرة الحداثة العلمانية. فهما ينتميان إلى موجة بناء الأمة نفسها التي أنتجت في القرن السابق بسمارك في ألمانيا، وكافور في إيطاليا، وميجي في اليابان. فالتغييرات الساحقة

(١) Hassan Arfa, *Under Five Shahs* (London: John Murray, 1964), pp. 150–51.

التي قاداها، والتي لا تشبه إطلاقا شيئًا مما شهده العالم الإسلامي من قبل، اقتلعت الأتراك والإيرانيين من جذورهم الشرق الأوسطية وجذبتهم إلى القرن العشرين، فيما بقي شعوب الأمم الأخرى في المنطقة عالقين في التقليد والإذعان.

وقال كمال في إحدى مجموعات الحضور الكثيرة في المدن التركية والتي تحدّث إليها خلال سنته الأولى في السلطة: «إن العالم المتحضّر يسبقنا بكثير... ولا خيار لنا سوى اللحاق بالركب»(١).

قرار كمال تحويل تركيّا جمهورية أوحى لرضا بمحاولة الأمر نفسه في إيران. فعمد إلى رشوة أعضاء في البرلمان وإلى تملّقهم للفوز بدعمهم، حتّى إنه كلّف كتّابًا ورسامي كاريكاتير بنشر أعمال متعاطفة مع المثال الجمهوري. وتضمّنت إحدى القصائد هذا المقطع:

وجه الحرّية الحبيب محاط بالشَعر الأسود

فأي قوة، غير الجمهورية، تستطيع أن تغريه بالخروج من عزلته؟(٢)

لكن أخبارًا مذهلة وردت من تركيا قبل أن تُعطى الحياة للجمهورية الإيرانية الجديدة: ألغى الرئيس مصطفى كمال الخلافة الإسلامية، وأرسل الخليفة إلى المنفى(٣). وفعل ذلك بما يشبه عدم الاكتراث، من خلال تمرير القوانين اللازمة عبر الجمعية الوطنية الكبرى اللينة العريكة. وقال بعد ذلك إن القوانين الجديدة تعبّر عن «إرادة الأمة»، و«لا داعي» بالتالي لـ«عدِّها أمرًا استثنائيًّا». غير أنها بدت، من إيران، بمثابة استخدام لا يُعقل للسلطة السياسية – كما لو أن الرئيس الإيطالي أخذ على نفسه إلغاء البابوية وطرد البابا. ارتاع الملاّت الإيرانيون وقرروا أن عليهم،

(١) Mango, *Atatürk*, p. 438.

(٢) Donald N. Wilber, *Iran Past and Present* (Princeton, N.J.: Prince ton University Press, 1975), p. 77.

(٣) Kinross, *Atatürk*, pp. 404–5.

مهما كلّف الأمر، منع إقامة جمهورية في بلادهم. وجرّوا عشرين ألف مؤمن غاضب إلى تجمّع احتجاجي في طهران، ولما ظهر رضا وحاول تهدئتهم رشقوه بالحجارة وبالعصي. ومن فوره، أعلن رضا أن «من الأفضل لحسن حال الأمة تجميد كل جهود تسويق شكل الحكم الجمهوري»[١].

ولكن، كيف يمكن إيران أن تُحكم في غياب الجمهورية؟ امتلك رضا الجواب: إصنعوا منّي ملكًا. تردّد البرلمان، لكنه لم يجد أمامه خيارًا آخر. فإيران آخذة في الانهيار وبدا أن رضا هو أملها الوحيد. ووافق البرلمان على إلغاء ١٣٢ سنة من حكم سلالة القاجار ووضع رضا على عرش الطاووس، ولم يعارض إلا أربعة فقط – صوت أحدهم يعود إلى المحامي ذي الثقافة السويسرية محمّد مصدّق الذي حذّر من أن منح هذا القدر من السلطة لرجل واحد سيحوّل إيران بلدًا «أكثر تخلّفًا من زنجبار»[٢].

انتقل العاهل الجديد بعد هذا التصويت على عربة تجرُّها ستة أحصنة بيض إلى احتفال تتويجه في قصر غليستان في طهران في وقت متقدم من بعد ظهر الخامس والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٢٦.

ولطالما اكتسى الشاهات، طوال قرون، حللًا في احتفالات تفيض بالتقاليد الإسلامية، لكن رضا ازدرى هذا التقليد وأراد تتويجًا على الطريقة الغربية. لم يعرف أي إيراني طريقة القيام بذلك، فكلّف رضا أقرب مستشاريه إليه والمحنك بأمور الدنيا، عبد الحسين تيمورتاش، اكتشاف الأمر. واستشار تيمورتاش بدوره عميدتي مجتمع المهاجرين، الليدي لورين زوجة السفير البريطاني، وفيتا ساكفيل-وست، زوجة دبلوماسي بريطاني آخر هو الألمعي السير هارولد نيكولسون. وجيء بهما لإلقاء نظرة على جواهر تاج القاجار المخلوعين فلم تتوانيا عن تغطيس أذرعتهما في أكوامها.

(١) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 79.

(٢) Fakhreddin Azimi, *Iran: The Crisis of Democracy* (London: I. B. Tauris, 1989), p. 65.

وكتبت ساكفيل ـ وست، «قذفتْ أكياسُ الكتّان ما في داخلها من زمرّد ولآلئ... وتحوّلت الطاولة بحرًا من الأحجار الكريمة»(١).

صمم تيمورتاش احتفالًا مفصّلًا، بتوجيه من هاتين السيدتين البارعتين وبروايات عن احتفالات التتويج الأوروبية طلبها من السفارات البريطانية والإسبانية والبلجيكية والسويدية. جال رضا بالعربة في الشوارع التي ازدانت بصوره، وهو يلوّح للحشود المهلّلة. وعزفت الأبواق بوصوله إلى القصر. وانحنى زعماء القبائل والجنرالات والسفراء الأجانب ترحيبًا به(٢). وجلبوا هدايا تراوح بين مطارق البولو المطعّمة بالجواهر وصورة للرئيس كالفن كوليدج في إطار من الذهب(٣).

اتخذ رضا مظهرًا سلطويًّا وهو يسير، في بطء، إلى قاعة المقابلات المزيّنة. وقد وضع على صدره وشاحًا محمّلًا بالميداليات اللماعة، وغطى كتفيه العريضتين بعباءة مطعّمة باللآلئ، وتوهّجت منها أضواء أكبر ألماسة خالية من أي عيب في العالم.

توقف، لحظات وجيزة، أمام العرش – المطلي بالذهب والمطعّم بالجواهر والمعلّق بسلاسل من الزمرّد – ثم جلس(٤). اقترب تيمورتاش وهو يمسك بيديه وسادة فخمة حمراء وُضع عليها التاج الجديد المصنوع في روسيا والمُصمم على غرار ذلك الذي وضعه الأباطرة الفرس في العصور السابقة للإسلام. خلع رضا عباءته وأخذ التاج بيديه ووضعه على رأسه وأعلن نفسه ملك الملوك ونور الآريين – مع أنه امتنع عن تسمية نفسه، كما فعل الملوك القدامى، ظلّ القدير ووكيل الله ومحور الكون.

---

(١) Karl E. Meyer and Shareen Blair Brysac, *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East* (New York: W. W. Norton, 2008), p. 303.

(٢) Ali Ansari, *Modern Iran Since 1921: The Pahlavis and After* (London: Pearson, 2003), pp. 41–42; Cyrus Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power* (London: I. B. Tauris, 1998), pp. 385– 86.

(٣) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 113.

(٤) المصدر نفسه، ص. ١١٣-١١٤؛ Ghani, Iran and the Rise of Reza Shah, p. 61.

وقال في خطاب وجيز أعقب تتويج نفسه: «عليَّ أن أعلن رغبتي في إحداث تغيير جذري في بلادنا... لن أتهاون، في أي شكل من الأشكال، حيال التقاعس والتلكّؤ»(١).

لم يمتلك رضا في تلك المرحلة، على غرار معظم الناس في الشرق الأوسط، اسم شهرة. وها إنه يؤسس الآن لسلالة ويحتاج إلى واحد. واختار اسم بهلوي، وهو اسم لهجة فارسية قديمة، وأيضًا كلمة تعني ضمنًا القوة البطولية.

كتب السفير البريطاني بيرسي لورين، على أثر التتويج: «لدينا الآن ملك على بلاد فارس، رجل يحمل بعضًا من عناصر العظمة الحقيقية بغض النظر عن أصوله المتواضعة وافتقاره التام إلى التربية الغربية وعدم خبرته في ظروف أي بلد آخر غير بلاده... وأنا لست غافلًا عن عيوبه ولا مأخوذًا بنجاحه الشخصي، لكنني مقتنع بأنه الرجل الوحيد القادر على ترتيب شؤون هذه البلاد»(٢).

تولّى الرئيس مصطفى كمال ورضا شاه بلدين بائسين وفقيرين في شكل مدقع. فقد اجتاحت الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من صدمات المجاعة والمرض والعنف الاجتماعي، نسيجهما الاجتماعيين وقتلت ربع سكانهما. وكاد كل واحد في كل من البلدين يكون فلّاحًا أمّيًّا. وتغلغل التعصّب الديني في كل من المجتمعين. أخذت السيّارات وأنوار الشوارع تظهر في اسطنبول وفي طهران، لكن معظم الأتراك والإيرانيين جهلوا كل شيء عن العالم الخارجي.

شكّلت هذه المرحلة حقبة من الانتفاضات السياسية والاجتماعية. أخذت الأمبراطوريات في الانهيار وانبثقت من أنقاضها أنظمة جديدة. وبرهنت الديمقراطية عجزها عن ترويض المجتمعات المضطربة، وأخذت فكرة الديكتاتورية في الصعود. إنه عصر هتلر وموسوليني، فرانكو وسالازار، لينين وستالين.

---

(١) Wilber, *Iran Past and Present,* p. 115.

(٢) Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah,* pp. 390– 91.

صاغت حقيقتان – وهما تخلّف بلديهما، وإيمانهما بحكم الرجل القوي – نظامي مصطفى كمال ورضا شاه. تملّك بالاثنين، منذ فتوّتهما، اعتقادٌ أن القدر اختارهما للعظمة. وحركّتهما وهما في السلطة رغبة حادة، تلامس الجنون، في تغيير بلديهما.

وقال كمال في خطاب عقب تولّيه السلطة إن «التاريخ أثبت، بما لا يقبل الجدل، أن النجاح في المساعي الكبرى يتطلّب وجود زعيم ذي مقدرة وسلطة لا تتزعزعان»[١].

ووضع رضا الأمر بطريقة مغايرة بعض الشيء. وقال لأحد أصدقائه: «لستُ رجلًا عاديًّا يكتفي بالأكل والشرب... وكلّما فكّرت بأنني لم أنجز شيئًا أشعر كأنني مصاب بالمرض»[٢].

وما أمكن الرجلين أن يكونا أكثر اختلافًا في عاداتهما الشخصية. فكمال مدمن الكحول ويستحوذ عليه حب النساء؛ وكتبت زازا غابور، التي تدعي أنها أقامت علاقة معه لدى زيارتها اسطنبول في سن المراهقة، أنها لم تشاهده قط إلا وكأس الشراب في جواره[٣]. كان مفعمًا بالحيويّة، على رغم أنه يميل إلى الكآبة سرًّا. وكثيرًا ما يبتسم ويلقي خطابات شعبيّة طويلة. أراد للأتراك أن يحبّوه، وأحبّوه.

تمتّع كمال أيضًا بالأناقة وامتلك يدين ناعمتين وارتدى ملابس داخلية «كريب دي شين» من فرنسا[٤]. استحم في مياه كارلسباد المعدنية ونزل في فندق أدلون في برلين. وقد لا يكون أوروبيًّا حقيقيًّا محنّكًا، غير أنه تخيّل نفسه كذلك.

(١) Mango, *Atatürk*, p. 237.

(٢) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 220.

(٣) Zsa Zsa Gabor with Gerold Frank, *Zsa Zsa Gabor: My Story* (Cleveland, Ohio: World, 1960), pp. 69–81; Gordon Taylor, T*he Pasha and the Gypsy: Writings on Turkey, Kurdistan, and the Eastern Mediterranean*, part 4, April 6, 2008, accessible at http://pashagypsy.blogspot.com/2008/04/pasha-and-gypsy-part-ii.html

(٤) Mango, *Atatürk*, p. 490.

تضمّنت ليلة كمال العادية الإسراف في تناول الخمر حتى الفجر[1]؛ أما بالنسبة إلى رضا فكانت تعني الإخلاد باكرًا إلى النوم والاستيقاظ قبل شروق الشمس. وكان كمال مفترسًا جدًّا إلى حد أن بعض الرجال سعوا إلى إبقاء نسائهم وبناتهم بعيدات منه. أما رضا فعاش حياة عائلية رصينة ولم يقم الحفلات قط. وهو رجل قليل الكلام – صارم، محتشم، ومتقشّف – جلّ ما أراده أن يخافه الناس، وقد خافوه.

تمتّع كمال بأربع أفضليّات مع شروع الرجلين في عمل حياتهما:

ـ فهو قارئ كبير، عميق التفكير، خبير بشؤون الحياة والناس، يتمتع بصفات رجل الدولة، واستراتيجي بارع؛ أما رضا فخشن، وغير مثقّف، وسريع الغضب.

ـ سار الأتراك على درب الحداثة مدة أكبر من الإيرانيين وتقدّموا أكثر منهم.

ـ تخلّصت تركيّا من الهيمنة الأجنبية وباتت مستقلّة استقلالًا تامًّا؛ أما إيران فبقيت شبه مستعمرة بريطانية.

ـ ما سمّاه رضا «قوى التعصّب الديني الظلامية»[2] كانت أقوى في إيران.

لم يهاجم أي زعيم في التاريخ الحديث السلطة الدينية، في شدة لا تعرف الرحمة، كما هاجمها مصطفى كمال عام ١٩٢٣ بعدما أصبح رئيسًا لتركيا. وأظهر، بإلغائه الخلافة، مدى تقديره القليل لأكثر مؤسسات الإسلام قدسية. ثم أمر بإقفال كل مدارس القرآن والأكاديميات الدينية، ووضع النظام التربوي كاملًا تحت سلطة الدولة. وحظر الحج إلى قبور أولياء المسلمين. وأُقفلت المحاكم الدينية واستُخدمت مجموعة القوانين السويسرية المدنية والجزائية وقانون العقوبات محل قانون الشريعة الإسلامية. وحُظرت طوائف الدراويش، وبعضها تجسيد للتقاليد الصوفية الغنية. وحلّ الأحد محل الجمعة يوم عطلة رسميًّا. وحلت روزنامة الأشهر الإثني عشر

(١) Arfa, *Under Five Shahs*, p. 281; Kinross, *Atatürk*, p. 478.

(٢) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 180.

المسيحية محل الروزنامة الإسلامية القمرية، كذلك حلّ توقيت الساعات الأربع والعشرين الزمنية محل التوقيت المعتمد للصلاة. وصدرت الأوامر للمؤذّنين بتلاوة صلواتهم بالتركية بدلًا من العربية. وأصبحت الكحول مشروعة تمامًا.

انفجر كمال، في خطابه وقد بلغت حملته ذروتها، وقال إن «الإسلام، هذا اللاهوت الذي طلع به بدوي ما، ليس إلا فساداً يسمم حياتنا»[1].

أمكنه الإفلات من مثل هذه الهجمات المُستفظَعة على الدين – ومن وضع رجال الدين تحت سلطة الدولة – بسبب طبيعة الإسلام السنّي، خصوصًا بالطريقة التي تطوّر بها في تركيّا. فقد تعوّد سُنّة تركيا، وقد تكيّفوا مع قرون من الولاء للسلطان الذي أمسك بالسلطة الدينية العليا إلى جانب السلطة السياسية، على الإذعان للدولة. أما المسلمون الشيعة، الذين يشكّلون غالبية الإيرانيين، فيتعلّمون أمرًا مغايرًا، وهو أن الولاء للدين يسبق الولاء للدولة، وأن العدالة فضيلة أرفع من الإذعان، وأن ليس على رجال الدين قط الخضوع للسلطة الزمنية. وهو ما سمح لكمال بتدجين المؤسسة الدينية في تركيّا ومنع رضا من القيام بالأمر نفسه في إيران.

ومهما حملت خطَب كمال أحيانًا من الاستفزاز، فإن مظهره هو الذي أذهل شعبه أكثر ما يكون. فقد ارتدى ثيابًا تختلف كلّيًا عما سبق للأتراك أن رأوه من قبل: البزّة وربطة العنق. وشكّل، من حيث المظهر، نموذجًا مثاليًّا للكفار. وروّع الأمر الأتراك تمامًا كما سيرتاع الأميركيون لو شاهدوا رئيسهم يبدأ بالتوجه إلى عمله وهو يرتدي عمامة المكلّا وثوبه.

في أحد أيام صيف العام ١٩٢٥ ظهر الغازي، خلال زيارة لمدينة قسطموني على البحر الأسود، وهو يرتدي حلّة جديدة أخرى، هي كناية عن قبّعة مدوّرة. وغطاء الرأس في المجتمع العثماني يعج بالمعاني. فالرجل ذو الجوهر يرتدي الطربوش،

(١) Paul Fregosi, *Jihad in the West: Muslim Conquests from the 7th to the 21st Centuries* (Amherst, N.Y.: Prometheus Books, 1998), p. 407.

ولكن الطربوش يرتبط بالشرق. وقد ازدراه كمال بصفة كونه «رمزًا للجهل والإهمال والتعصّب وكره التقدّم والحضارة»[١]. وقرّر، بما أنه يبني مجتمعًا على طراز الغرب، أن يعتمر الرجال القبعات الشبيهة بتلك التي تُعتَمر في باريس ونيويورك. وأدرك كذلك أن اعتمار قبعة ذات حرف يزيد في صعوبة أداء الرجل الصلاة على الطريقة الإسلامية.

وقال للشعب المشدوه في قسطموني: «إن الثياب الحضارية الدولية تليق بأمتنا وتناسبها، وسنرتديها... جزمات أو أحذية في أقدامنا، سراويل على سيقاننا، وقميص وربطة عنق وسترة وصدرية – وإكمالًا لذلك، طبعًا، غطاء للرأس ذو حرف. وغطاء الرأس هذا يُسمّى قبّعة»[٢].

وافقت الجمعية الوطنية الكبرى، بعد ذلك بيومين، على الإصلاح المتعلّق بالقبعة والذي حُظِّر بموجبه الطربوش، وطُلب من الموظفين الحكوميين ارتداء القبعات المدوّرة. ثم جاء القانون الذي فرض الأرقام الغربية والنظام المتري. وطلب القانون التالي من كل تركي أن يحمل اسم شهرة. وأصبحت شهرة كمال «أتاتورك» – أي «أبا الأتراك». ومن تلك اللحظة وصاعدًا صار يوقّع باسم «ك. أتاتورك»[٣].

سارع أتاتورك، وهو يبحث عن تطهير الحياة التركية من التأثيرات الشرق الأوسطية، إلى التركيز على الكتابة العربية، وعدها «رموزًا غير مفهومة»[٤]. ودعا عام ١٩٢٨ مجموعة من الكتبة والألسنيين إلى أنقرة وأوكل إليهم مهمّة استثنائية: نسخ اللغة التركية بالأحرف اللاتينية. وسألهم كم سيستغرق الأمر من وقت، فراوحت تقديراتهم بين خمس سنوات وخمس عشرة سنة.

---

(١) Hunt Janin, *The Pursuit of Learning in the Islamic World 610– 2003* (Jefferson, N.C.: McFarland, 2005), p. 149.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 415.

(٣) Mango, Atatürk, p. 498; Vamik D. Volkan and Norman Itzkowitz, *The Immortal Atatürk: A Psychobiography* (Chicago: University of Chicago Press, 1984), p. 302.

(٤) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 284.

وأمرهم: «إما أن يتم الأمر في ثلاثة أشهر وإما لا يتم أبدًا»![1]

عمل الباحثون من ضمن هذا الجدول الزمني المحموم وصمموا لغة كتابية جديدة. وأُرسلت الكتب المدرسية على عجل إلى المطابع وشرع الأطفال في تعلّم الحروف الجديدة. حُظرت الكتابة القديمة، ما خلَّف، بين ليلة وضحاها، أمة من الأميين. أبدى الأكاديميون استعدادًا لتعليم البالغين اللغة الجديدة؛ وقد تعلّمها مليون شخص في غضون سنة من عملية إصلاح الأبجدية.

في المقابل، لم يسع رضا شاه إلى فرض لغة مكتوبة جديدة كما فعل أتاتورك، لكنه حارب السلطة الدينية بالقوة نفسها. بيد أن رجال الدين الإيرانيين تمتعوا بقوة أكبر من أقرانهم الأتراك، وقاوموا. عرقل رجال الدين أو أخّروا بعضًا من المشاريع المحببة على قلب رضا. ولمّا أمر بتلقيح جميع الإيرانيين ضد الجدري، أفتى رجال الدين بأن على المسلم الجيّد رفض التلقيح لأن اللقاحات المصنوعة من الخلايا البشرية «حرام» – وتمنعها الشريعة الإسلامية. كذلك قاومه رجال الدين عندما حاول إقفال الحمّامات العامة التي تعج بالأمراض، وتشجيع الناس على تركيب المرذاذات في منازلهم؛ وأصرّوا على أن المسلمين لا يصبحون طاهرين إلّا بعد تغمّسهم كليًّا في الماء، وبالتالي فإن المرذاذات أيضًا «حرام»[٢].

دار هذان الغريمان – الجامع والدولة – أحدهما على الآخر، إلى أن انفجر رضا في النهاية. ففي أحد أيام العام ١٩٢٨ وبّخ أحد الملاّت في مدينة قم المقدسة إحدى زوجاته لعدم تغطية نفسها، كما يجب في داخل المقام. وأشعلت فيه أخبار هذه الإهانة غضبًا بركانيًّا. فجمع طابورًا مدرّعًا وتوجّه على رأسه إلى قم واقتحم المسجد من دون نزع حذائه، وانهال على الملاّ بالضرب قبل أن يطلب توقيفه[٣].

(1) Kinross, *Atatürk*, p. 444; Mango, Atatürk, p. 465.

(٢) Janet Afary, *The Iranian Constitutional Revolution, 1906– 1911: Grassroots Democracy, Social Democracy and the Origins of Feminism* (New York: Columbia University Press, 1996), pp. 148–49.

(٣) Azimi, Iran, p. 78; Ghani, *Iran and the Rise of Reza Shah*, pp. 63– 64.

أثارت صدمة التغيير الاجتماعي الجذري المفروض بقرار من فوق تمرّدات مدنية كهذه في إيران. وانفجرت تمردات مشابهة في تركيّا وقد سحقها أتاتورك بالقدر نفسه من القساوة.

وانقلب معظم الرفاق المقربين الذي خاض معهم أتاتورك حرب الاستقلال، عليه خلال سنته الأولى في السلطة. واستاء كاظم قره-بكر من إبعاده فيما ركّز الغازي السلطة بين يديه، وأسس عام ١٩٢٤ حزبًا معارضًا يطالب «باحترام الآراء والمعتقدات الدينية»[1]، وبين زعماء الحزب الآخرين علي فؤاد ورؤوف أورباي ورأفت بك – ما يعني أن الرجال الأربعة جميعهم الذين وقّع معهم مصطفى كمال تعميم أماسيا عام ١٩١٩ قد انفصلوا عنه. وانضمت كذلك إلى الحزب الكاتبة النسائية خالدة أديب التي يمكن القول إنها ألمع نساء جيلها، وكانت لسنوات مقرّبة من كمال وعرفته كما عرفت الجميع غيره.

استمر الحزب ثمانية أشهر إلى أن اندلعت الثورة الكردية جنوب شرقي تركيا. واستنتج كمال أن البلاد غير جاهزة بعد للتنافس السياسي فأمر بإغلاق حزب المعارضة. وسُجن قره-بكر وغيره من زعماء الحزب. وغادرت خالدة أديب البلاد. وقد أعيد الاعتبار إليهم جميعهم – وقد أصبح قره-بكر وأديب عضوين في البرلمان – ولكن بعد موت أتاتورك.

سبق للأكراد أن استقرّوا جيّدًا في شرق الأناضول عندما شرعت القبائل التركية في الوصول من آسيا الوسطى في القرن الحادي عشر. وهم يشتهرون، كشعب، بمقاومة السلطة. وقاتل الكثيرون منهم في حرب الاستقلال بعدما وعد كمال بأن الدولة الجديدة ستحترم تقاليدهم.

وقال كمال لزعماء الأكراد عندما احتاج إلى مساعدتهم: «لكل واحد من العناصر

(١) Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, p. 199.

الإسلامية المقيمة داخل أرض الأجداد هذه بيئته المحددة الخاصة وعاداته وسلالته. وقد قُبلت الامتيازات المتعلّقة بهم»[1].

ولكن ما إن أصبح أتاتورك في السلطة حتى وجد في الأكراد تهديدًا لمشروعه بناء الأمة. قمع الميليشيات الكردية وكبح سلطة الزعماء التقليديين. وقد تمرّد الأكراد بداية العام ١٩٢٥ بقيادة رجل دين محارب اسمه الشيخ سعيد. وبين المطالب التي طرحوها إعادة الخلافة والعمل بالشريعة.

سيطر المتمردون، مدة وجيزة، على بعض المدن، غير أن أتاتورك أغرق المنطقة بالجنود وسرعان ما حوّل اتجاه الأمور. أُسر الشيخ سعيد ورفاقه وشُنقوا علنًا في ديار بكر، المدينة الكردية الرئيسة. وأصدرت الحكومة، بعيد ذلك، قرارًا بإقفال الصحف الكردية، وحرمت عبارتي «كردي» و«كردستان»، وحظرت الأسماء الكردية، وحدّت من استخدام اللغات الكردية. ورد الأكراد بسلسلة من التمردات[2].

لم يرتح الوطنيون الأتراك للتنوّع الإثني على رغم تعلّقهم الحماسي بمُثُل الحرّية. ورأوا عام ١٩١٥ في المتمرّدين الأرمن تهديدًا قاتلًا وردّوا بإبادة طائفة ضخمة وعميقة الجذور. ووافقوا عام ١٩٢٣، بعيد تسلمهم السلطة، على «تبادل للسكان»[3] أُجبر بموجبه ١,١ مليون مواطن عثماني من أصل يوناني على مغادرة بيوتهم في الأناضول والتوجّه إلى اليونان، فيما سلك أربعمئة ألف مسلم يعيشون في اليونان الطريق المعاكس، إلى تركيا. ودمّرت هذه الحملات، أو ما يُسمّى اليوم

(١) Sylvia Kedourie, ed., *Seventy- Five Years of the Turkish Republic* (London: Frank Cass, 2000), p. 11.

(٢) David McDowall, *A Modern History of the Kurds* (London: I. B. Tauris, 1996), pp. 94– 96; Robert W. Olson and William F. Tucker, "The Sheikh Sait Rebellion in Turkey (1925): A Study in the Consolidation of a Developed Uninstitutionalized Nationalism and the Rise of Incipient (Kurdish) Nationalism," *Die Welt des Islams* 18, no. 3– 4 (1978): 195– 211; Jonathan C. Randal, *After Such Knowledge, What Forgiveness?: My Encounters with Kurdistan* (Boulder, Colo.: Westview Press, 1998), p. 121.

(٣) Mango, *Atatürk*, p. 390.

بـ«التطهير العرقي»، أسس المجتمع الأناضولي وأفقرت الأمة التركية بما لا يمكن قياسه.

اعتقد الأكراد أنهم يدافعون وحسب عن طريقة حياتهم، لكن أتاتورك رأى فيهم ما يراه الكثيرون من شعب الولايات المتحدة في سكان البلاد الأصليين: بدائيون يحتاجون إلى من يعلّمهم الحضارة. وكذلك نظر رضا شاه في إيران إلى قبائل البلاد البدويّة.

أبلغ رضا، في رسالة مفتوحة، رجال القبائل: «يجب عليكم، أنتم ابناء أمة عريقة مثل إيران ذات التاريخ الحضاري المجيد، ألا تجوبوا الصحارى والجبال كمثل الحيوانات المفترسة... عليكم أن تتخلوا عن هذه الحياة البدوية وعن الإقامة في الخيام»(١).

لم يرغب البدو قطعًا في التخلّي عن أسلوب الحياة الوحيد الذي عرفوه. وعدَّ رضا الأمر بمثابة تحدٍّ، والتحدّي يستجلب دومًا أسوأ ردوده. وأمر بجمع البدو ووضعهم في مخيّمات استيطانية في ظروف بائسة، فقضى الآلاف منهم، بمن فيهم الكثيرون الذين قتلوا في إعدامات جماعية. وطارد الجيش العشائر المقاومة وقصفها في بعض الحالات من الجو. وسقط هؤلاء البدو، على غرار الأكراد في تركيا، ضحايا حملة تحديث لا تعرف الرحمة ليس للقبائل فيها، على غرار الدراويش، من مكان(٢).

دفعت هذه الحملات، التي شُنّت باسم «الحضارة العالمية»، الشعبين التركي والإيراني في اتجاهات لم يسبق لأي مسلم أن سلكها من قبل. وأُجبرا، بدءًا من عقد العشرينات، على إضافة الأفكار الغربية إلى تقاليدهما الغنيّة ولكن الراكدة. وطوّرا هويتين وطنيتين صاغهما التنوّر إضافة إلى الإسلام. وشكّل الأمر توليفة فعّلت تركيا وإيران وفصلتهما تمامًا عن البلدان المحيطة بهما.

---

(١) Wilber, *Iran Past and Present,* p. 99.

(٢) Ansari, Modern *Iran* Since 1921, pp. 49- 51; Azimi, Iran, pp. 72- 73; Nikki R. Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2006), p. 91.

لا يكاد أتاتورك يُعدُّ الإصلاحي الأول في التاريخ التركي. بل إنه وارث تقليد غني يمتد أكثر من قرن إلى الوراء. ومع ذلك وجد البعض في جذريته أمرًا لا يُحتمل. غير أنهم لا يستطيعون معارضته سياسيًا لأنه لا يستطيع احتمال الأحزاب السياسية. لكنهم قد يقتلونه.

عزم ثلاثة أعضاء في الجمعية الوطنية الكبرى على محاولة اغتيال أتاتورك في ١٥ حزيران/يونيو ١٩٢٦، وهو في أزمير؛ سيفجّرون سيّارته ويطلقون النار عليها ثم يهربون في زورق بخاري. وللمصادفة، أرجأ أتاتورك زيارته يومًا واحدًا بدّل خلاله قائد الزورق المستأجر رأيه وأبلغ الشرطة بما يُحاك.

سبق للجمعية الوطنية الكبرى أن منحت أتاتورك، في سياق الثورة الكردية في العام الذي سبق، سنتين من الأحكام العرفية. واستخدم، في الساعات التي أعقبت الكشف عن مؤامرة الاغتيال، تلك السلطة للأمر بموجة من التوقيفات[١]. كان بعض الموقوفين من المتآمرين، غير أن عشرات آخرين لم يكونوا سوى مجرّد منتقدين أو من شخصيات المعارضة. وحوكم الكثيرون منهم في محاكم شكلية أطلق عليها اسم محاكم الاستقلال، مما أدى إلى شنق ١٨ منهم. وقد أرسلت محاكم الاستقلال، ما بين العامين ١٩٢٥ و١٩٢٧ عندما أمر فجأة بحلّها، أكثر من خمسمئة مخرّب مفترض إلى المشانق. فقد سهُل، بكل المقاييس، على الغازي توقيع الأحكام بالموت.

وجادل بأن «على المرء ألا ينتظر لسحق الحركة الرجعية... بل يجب عليه التصرّف على الفور»[٢].

ما إن انتهى من القضاء على ما وصفه بشرور النظام القديم، حتى شرع، وبصبر نافد، في صياغة واحد جديد. ازداد في عهده عدد الأولاد الذين يرتادون المدرسة عشرة أضعاف، وأشيد بأساتذة المدارس بصفة كونهم وطنيين. بيد أنه عجز، طوال

(١) Ahmad, *Making of Modern Turkey*, pp. 49, 58; Kinross, Atatürk, p. 430.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 398.

سنوات، عن تحقيق تقدّم في اتجاه هدفه التربوي الأعظم: وهو بناء جامعة على الطراز الأوروبي. لم تمتلك تركيا ما يكفي من المثقفين لتشكيل كلّية واحدة، وقلّة هم الأجانب المؤهلون الذين سيوافقون على المجيء إلى مثل هذا المكان النائي.

تبدّل الأمر جذريًّا عام ١٩٣٣ مع استيلاء أدولف هتلر على السلطة في ألمانيا وإصداره الأمر بتطهير كلّيات الجامعة من اليهود. ووجد مئات العلماء الألمعيين أنفسهم فجأة من دون عمل، يبحثون يائسين عن ملجأ. لم يجدوا الملجأ في البلدان الأوروبية الأخرى أو في الولايات المتحدة، لأن الجامعات فيها نفرت هي الأخرى من استخدام اليهود. ووجد أتاتورك في الأمر فرصته. فعرض الملجأ والموقع التدريسي لأي استاذ مؤهّل طُرد من أي كلّية أبحاث في ألمانيا. ولقي الأمر قبولًا لدى نحو مئتين منهم، وبينهم اختصاصيون بارزون في حقول تراوح بين الهندسة والطب والكيمياء الصناعية والهندسة وعلم الموسيقى والقانون الروماني. وكان منهم المخطّط المديني رئيس بلدية برلين الغربية المقبل إرنست رويتر، والمخرج المسرحي الرؤيوي كارل إبرت، والمحللة النفسية إديث ويغرت التي عرّفت تركيًا إلى نظريات فرويد. وأضحت كوكبة النجوم هذه لب جامعة اسطنبول(١).

كتب أحد المؤرخين: أمكن «بضربة واحدة إقامة واحدة من أكثر الجامعات التوتونية (الألمانية) اعتبارًا في العالم»(٢).

لم يظهر أتاتورك قط أي نفور من اليهود؛ بل على العكس، فإن أعداءه ردّدوا أحيانًا الإشاعات، في إشارة منهم إلى خلفيته في سالونيك ذات الكثافة اليهودية، بأنه هو نفسه يهودي. قرأ «كفاحي» لهتلر واشمأز من «دناءة لغته ومن جنون أفكاره»(٣).

---

(1) Arnold Reisman, *Turkey's Modernization: Refugees from Nazism and Atatürk's Vision* (Washington, D.C.: New Academia, 2006), pp. 19– 310.

(٢) Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, p. 216.

(٣) Kinross, *Atatürk*, p. 460.

بيد أن ترحيب تركيا عام ١٩٣٣ باليهود الألمان جاء نتاج تاريخ طويل، لا نتيجة غريزة رجل واحد.

كتب حاخام أدريانوبوليس – أدرنة اليوم ـ اسحق سارافتّي عام ١٤٥٤، أي قبل خمسة قرون، لليهود الألمان المضطَهدين، أن «في وسع كل رجل هنا أن يقيم في سلام في ظل عريشته وشجرة تينه»(١).

وصدر بعد ذلك بست عشرة سنة فرمان عثماني يرحّب في المدن التركية باليهود الذين نفاهم ملك بافاريا لودفيك العاشر. ولمّا طرد فرديناند وإيزابيلا اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢ استقر أكثر من ١٥٠ ألفًا منهم في الأمبراطورية العثمانية. وبحلول القرن السابع عشر فاق عدد اليهود المقيمين في الأراضي العثمانية مجموع عددهم في كل أنحاء ما تبقّى العالم(٢). وكان الكثيرون من الأطباء في البلاط العثماني والكثيرون من الدبلوماسيين العثمانيين البارزين من اليهود. وأصدر السلطان عبد المجيد عام ١٨٤٠، بصفة كونه خليفة، فرمانًا يلغي فيه «تهمة الدم» المعادية لليهود وأمر «بعدم إزعاج أي يهودي أو مضايقته نتيجة اتهامات ليس لها أي أساس من الصحة»(٣).

ولا توجد إلا ثقافة شرق أوسطية واحدة أخرى يمكنها الادعاء بوجود علاقة قديمة وطويلة وعلى هذا القدر من الود مع اليهود: وهي ثقافة الفرس. فقورش، مؤسس الأمبراطورية الفارسية، هو الذي حرّر اليهود من أسرهم البابلي عام ٥٣٧ ق.م. وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل في القدس، ووفّر لهم فرصة إعادة التجمّع كأمة. ويشيد العهد القديم بقورش أكثر من إشادته بأي زعيم غير يهودي آخر؛ وناداه النبي

(١) Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1987), p. 136.

(٢) Soner Cağaptay, "The Turkish Prime Minister Visits Israel: Whither Turkish- Israeli Relations?" Policywatch 987 (Washington, D.C.: Washington Institute for Near East Policy, April 27, 2005).

(٣) *The History of the Turkish Jews*, accessible at http://naqshbandi.org/ottomans/protectors/protectors.htm.

إشعيا «يا راعيَّ». ورحّب الإيرانيون بعد ذلك، في معظم الأوقات، باليهود. ويشعر الكثيرون منهم بالقرابة لأن كلا الشعبين يقدر العلم ويستقي استمراره من التقليد القديم.

بيد أن رضا شاه لم يشاطر أتاتورك مشاعره الودّية حيال اليهود أو ازدراءه بهتلر. وهو، على غرار الكثيرين من الإيرانيين، يمقت بريطانيا وروسيا في شدة بسبب نهبهما القاسي لبلاده. وتعاطف غريزيًّا مع القوة التي ظهرت في ألمانيا وتعارض هاتين القوتين. وأعجب بالنظام الذي خرج به هتلر من الفوضى الألمانية، واجتذبه اعتقاد هتلر بالتفوّق المتأصّل للآريين الذين يُقال إنهم أجداد الإيرانيين الحديثين. وتبادل الديكتاتوران الرسائل الودّية. وتم الترحيب بالموظّفين النازيين في طهران. وبحلول العام ١٩٤٠ بات نصف تجارة إيران الخارجية يتم مع ألمانيا.

لم يستخدم رضا أساتذة يهودًا، كما فعل أتاتورك، غير أنه أُعجب كثيرًا بافتتاح جامعة اسطنبول عام ١٩٣٣. ووضع، بعد ذلك بسنتين، في ما تصفه إحدى الروايات بأنه «أهم أحداث القرن الأكاديمية» في إيران، الحجر الأساس لجامعة طهران. وشكّل الخطاب الذي ألقاه في ذلك اليوم أحد نصوصه الكلاسيكية الموجزة. وهاكم النص كاملًا:

«كان لا بد من إنشاء جامعة منذ وقت طويل. ويجب الآن، وقد بدأ العمل بها، بذل كل الجهود لإنجازها سريعًا»[1].

لم يشكّل الحرم الجامعي المترامي الأطراف إلا جزءًا واحدًا من مخطط رضا الكبير لطهران. فقد هُدمت أحياء بكاملها عُدَّت قبيحة لتفسح في المجال أمام جادات واسعة ومبان على الطراز الأوروبي. وسقط الكثير من المباني القاجارية ضحية للهدم بما فيها البوابات الاحتفالية المكسوة بالآجر بطريقة معقّدة. طُرد الدراويش وقارئو

(1) Amin Banani, *The Modernization of Iran* (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1961), p. 40.

الطالع، ومُنعت طقوس الذبح في العلن. وأعطي ترخيص خمس دور للسينما؛ ومن بين الأفلام التي عُرضت «طرزان»، و«علي بابا والأربعون حرامي»، و«لص بغداد»، و«الهجمة على الذهب». وفرّخت المطاعم والمقاهي والمتاجر ودور الكتب على مقربة من صالات السينما هذه. وزاد عدد سكان طهران في عهد رضا إلى أكثر من الضعفين وفاق نصف المليون. وغذّت الجامعة المزدهرة الطبقة المتوسطة الآخذة في النمو. ولاقت الفونوغرافات رواجًا كبيرًا[1].

امتلك أتاتورك ورضا مشاريع أخرى للصبية الوافدين من الريف باستخدام الخدمة العسكرية الإجبارية أداة للتحوّل الاجتماعي. وقد وصل الكثيرون من المجنّدين وهم ليسوا أمّيّين وحسب، بل غير متآلفين أيضًا مع أمور متطوّرة مثل فرشاة الأسنان والسباكة. وأصبح معظمهم، مع تسريحهم من الخدمة، مرتاحين إلى الحياة العصرية. وعادوا إلى ديارهم رسلًا للثقافة العلمانية الجديدة.

يُعدُّ أتاتورك ورضا من أول الزعماء في تاريخ الشرق الأوسط الذين رأوا أن للبنات الحق نفسه الممنوح للصبية في تلقّي العلم. وقد شكّل تقييد النساء جزءًا قديمًا من التقاليد الإسلامية والشرق الأوسطية؛ وكره أتاتورك ورضا تلك التقاليد، وأصبح كلاهما من المدافعين المتحمسين عن حقوق المرأة.

شرّعت «تركيا الفتاة» في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى الزواج المدني والطلاق؛ وذهب أتاتورك إلى أبعد من ذلك، وأعطى النساء حقًّا متساويًا في الإرث وفتح أمامهن أبواب الوظائف العامة. وأصبحت كل المدارس مختلطة. وفُتحت شواطئ السباحة أمام الجنسين. وشهدت الشوارع ظهور الشرطيات. ومُنحت النساء عام ١٩٣٠ الحق في التصويت، ووصلت في الانتخابات التالية ثماني نساء – اختارهن جميعهن أتاتورك – إلى الجمعية الوطنية الكبرى[2].

(١) Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (New York: Cambridge University Press, 2008), p. 90; Afary, *Iranian Constitutional Resolution*, p. 142.

(2) Jenny White, "State Feminism, Modernization, and the Turkish Republican Woman," *NWSA Journal* 15, no. 3 (2003): 151.

امتدح أتاتورك النساء بالمطلق، لكنه واجه مشكلة مع التي اختارها شريكة لحياته. فقد رحّبت الحشود بلطيفة، في حرارة، كلّما سافرت مع الرئيس وهي التي ألهمت عددًا ليس بالقليل من النساء التركيات. بيد أن العلاقة بينهما لم تتجذّر قط. فقد واصل أتاتورك حياته الليلة الصاخبة كما لو أنه لا يزال عازبًا؛ ولم تؤدِّ لطيفة دور الزوجة المطيعة. وأعلن عام ١٩٢٥ فجأة، وبعد عامين ونصف العام من الزواج، أنه سيطلّقها. وأمكنه القيام بذلك بوضعها جانبًا، على الطريقة الإسلامية التقليدية، لأن قانونه الذي يمنح النساء حقوق الطلاق لن يصبح نافذًا إلا بعد أشهر عدّة على ذلك(١).

وقال لأحد زوّاره قبيل نهاية حياته: «تزوّجت، ولكن يبدو أنني لم أُخلق للزواج»(٢).

أما رضا شاه فكان، على أي حال، أكثر خيبة من أتاتورك حيال إقصاء النساء عن الحياة العامة. وأصبح عاديًّا في عهده، وعلى غرار ما حدث في تركيا، أن تجوب النساء الشوارع من دون مرافقة، ويركبن الباصات ويجلسن في المطاعم بل وحتى متابعة الاختصاصات الجامعية. لكنه، وبضغط من رجال الدين، لم يمنح النساء حق الاقتراع، وإن سمح بالزواج المدني والطلاق ورفع السن الدنيا المسموحة للزواج من تسعة أعوام، كما يشرّع ذلك القرآن، إلى خمسة عشر. واحتوت إيران لدى وصوله إلى السلطة عشر مدارس للبنات أصبح عددها بعد عقد لاحق أكثر من ثمانمئة(٣).

وقال رضا لدى افتتاح إحدى مدارس البنات إن «نساء هذا البلد قد عُزلن عن المجتمع ومُنعن من إظهار قدراتهن الفعليّة... ولكن سيصبح في وسعهن الآن التمتع بمزايا اجتماعية تتجاوز ما يُشاد به من امتياز الأمومة»(٤).

لكن التغييرات في الحياة الدينية والاجتماعية، مهما كانت ساحقة، لم تتمكن

(١) Kinross, *Atatürk*, p. 250.

(٢) Mango, *Atatürk*, p. 458.

(٣) Afary, *Iranian Constitutional Revolution*, p. 151.

(٤) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 173.

أن تبدّل وحدها تركيّا وإيران. فقد احتاج الأمر إلى ما لم يسبق لأي دولة في الشرق الأوسط الحديث أن طورته: وهو الاقتصاد الوطني. احتاجت تركيّا إلى الانطلاق من تحت الصفر لأن الأرمن واليونانيين الذين سيطروا على التجارة في الحقبة العثمانية قد رحلوا جميعهم تقريبًا. وطوّرت إيران ثقافة البازار المزدهرة ولكن ليس طبقة رجال الأعمال. ويعود الأمر، في جزء كبير منه، إلى أن بريطانيا وروسيا سيطرتا على اقتصادها في شكل تام فلم يتبق أمام الإيرانيين الكثير مما يقومون به. واحتاج الناس في البلدين إلى تعلّم المهارات الحديثة للمرّة الأولى. وقاموا بذلك في بطء. عمّمت المصارف التي تملكها الدولة التسليف في المناطق الريفية. وبنيت معامل الطاقة والطرق والجسور والمرافئ وشبكات السكة الحديد. وعُبدت شوارع المدينة وأضيئت. ومع ذلك فإن خطوات التغيير المذهلة لم تُجرَ قط بالسرعة الكافية بالنسبة إلى أتاتورك أو إلى رضا.

واشتكى رضا مرّة قائلًا: «أنا دائم الاستياء. يوجد الكثير مما يجب القيام به، ولا أستطيع إنجازه بالسرعة المطلوبة»[1].

واجه رضا في محاولته تطوير إيران عقبة عظمى لم يضطر أتاتورك قط إلى مواجهتها: وهي التدخّل الخارجي. أصرّت بريطانيا على الاحتفاظ بنفوذ حاسم في إيران، لأسباب استراتيجية قويّة. فإيران تشكّل جزءًا حيويًّا من طريق بريطانيا البرّية إلى الهند. ولها حدود طويلة مع الاتحاد السوفياتي وهي عرضة لنفوذه. وأهم من ذلك أنها تنتج النفط الذي تحتاج إليه البحرية الملكية ويغذّي الاقتصاد البريطاني. وتحتاج بريطانيا، للحفاظ على تدفّق النفط، إلى السيطرة على إيران.

اتصفت علاقة رضا بالبريطانيين بأنها شائكة وصعبة. فصحيح أن ضابطًا بريطانيًّا ساعده في الوصول إلى السلطة، إلا أنه فوق كلّ شيء وطني اشتهر عنه أنه لا يشاور إلا أطباء إيرانيين، وأنه منع اعتماد الكلمات الأجنبية في شارات الشوارع. وعامله الدبلوماسيون البريطانيون على أنه تركيبة غريبة من الشريك والخصم.

(١) المصدر السابق، ص. ١٣٦.

كتب السير بيرسي لورين في برقية إلى لندن أن رضا «يدخل مباشرة في الموضوع ولا يضيع الوقت في تبادل الثناء المصوغ في دقّة والذي لا طائل منه في النهاية والعزيز على قلب الفرس». وأضاف أنه «رجل جاهل وغير مثقّف، ومع ذلك لا يكشف عن إرباك في التصرّف ولا عن خجل. وهو يمتلك الكثير من الكرامة الأصيلة، ولا يكشف خطابه أو ملامحه عن أي افتقار إلى ضبط النفس»[١].

انتزع رضا تنازلات عدّة من البريطانيين، بما في ذلك عقد نفطي بشروط أفضل بعض الشيء. وأنشأ، على رغم الاحتجاجات البريطانية القوية، المصرف الوطني الإيراني ليحل محل البنك الأمبراطوري لبلاد فارس الذي يملكه البريطانيون. واستعاد، من ثم، السيطرة على مكتب خدمات البريد والبرق الذي تعود إدارته تقليديًّا إلى بريطانيا.

وكتب اللورد كرزون أن «السبب الحقيقي لنكسة الموقف البريطاني في بلاد فارس يعود إلى ذلك الروح الوطني المبالغ فيه – ولا أقول المعيب – الذي أخذ ينتشر في كل مكان». وتابع أن «خميرة هذه الأفكار الجديدة تفعل فعلها خصوصًا في عروق شعب حسّاس في شكل استثنائي وفخور مثل الفرس، تمامًا كما هو الأمر في البلدان الشرقية، ولا يمكن المرء أن يتوقّع مستقبلًا – وهو لا يحصل على ذلك بالتأكيد الآن – أي نوع من ذلك الاحترام الطبيعي، الغريزي والتلقائي للمثل الغربية وللرأي الغربي الذي تعوّدنا عليه في الأزمنة السابقة»[٢].

عدَّ رضا شاه وأتاتورك نفسيهما شريكين. وعملا، سنوات، جنبًا إلى جنب في بلدين تجمعهما حدود مشتركة تمتد مسافة ثلاثمئة ميل. إلا أنهما لم يلتقيا للمرة الأولى إلا في ١٦ حزيران/يونيو ١٩٣٤، عندما نزل رضا من قطار احتفالي في أنقرة. وحضر أيضًا، بحسب إحدى الروايات «جميع سكّان المدينة»[٣].

(١) Meyer and Brysac, *Kingmakers*, p. 322.

(2) Wilber, *Iran Past and Present*, pp. 85– 86.

(3) Afshin Marashi, "Performing the Nation: The Shah's Official Visit to Kemalist Turkey, June to July 1934," in Stephanie Cronin, ed., *The Making of Modern Iran: State and Society Under Riza Shah 1921– 1941* (London: RoutledgeCurzon, 2003).

فاق الأمر مجرّد كونه زيارة رسمية. فقد سعت تركيا وإيران إلى ترسيخ نفسيهما كدولتين قوميتين حديثتين – في ظاهرة جديدة في الشرق الأوسط. وشكّل لقاء زعيميهما فرصة لنظام كل من الدولتين في إضفاء الشرعية على الآخر. وانتشرت الأعلام التركية والإيرانية في كل مكان، وأنشد النشيدان الوطنيان لدى كل محطّة.

شاهد الزعيمان مباريات في الرياضة وركوب الخيل، وتنقّلا بسيارة مكشوفة في أنحاء أنقرة، وسارا في عرض عسكري مع فتيات الكشافة – الحدث الذي أثار تغطية مفتونة في الصحافة الإيرانية. أما المفاجأة الكبرى التي خصّصها أتاتورك لضيفه فهي العرض العالمي الأول لأوبرا أوصى عليها للمناسبة. وتشكّل هذه الأوبرا، وعنوانها «أوزسوي» (نقاوة السلالة)، تعبيرًا عن الشكر للصداقة بين بلاد فارس القديمة وطوران القديمة، وهي موطن الأتراك شبه الأسطوري. ولم يُقصد بها الاحتفاء وحسب بالصداقة الطويلة بين هذين الشعبين – إلى حد المبالغة أحيانًا – بل أيضًا، بحسب ما كتب أحد الباحثين، «إظهار المدى الذي بلغته تركيا في الانتقال إلى وضع الأمة العلمانية الديمقراطية، لرضا»[1].

افترض بتلك الليلة أن تكون الأخيرة في زيارة رضا، سوى أن الرجلين وجدا الكثير مما يثير إعجاب أحدهما بالآخر، وأرادا تمضية المزيد من الوقت معًا. واقترح أتاتورك أن يزورا غرب الأناضول، وانطلقا في القطار في ما سيصبح جولة تستغرق تسعة أيام. واستُقبلا في حرارة عند كل محطة – وحظيا في مدينة أوشاك باستقبال أحرّ مما يحبه أتاتورك. وقد روى أحد أعضاء الحزب لاحقًا ما حدث:

> اكتظّت المنصّة بالناس المنتظرين للترحيب بأتاتورك وبرضا شاه، على رغم انتصاف الليل. فتح أتاتورك النافذة وحاول عشرات الناس الإمساك بيده، وبدا الغازي مسرورًا جدًّا بهذه العلامة على شعبيته. ثم، وفجأة، سطع وجهه غضبًا،

(1) Kathryn Woodard, “Music Mediating Politics in Turkey: The Case of Ahmed Adnan Saygun,” *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27, no. 3 (2007): 552–62.

وانتزع يده وصاح بصوت رهيب: «كيف يجرؤ ابن الكذا والكذا على محاولة لمس يدي؟ إنه، مثل كل نسله، عدو للشعب! خذوه واقضوا عليه!»

نظرتُ من النافذة وشاهدت مولى، شاء سوء حظّه أن يحاول مصافحة يد أتاتورك، وهو يرمي عمامته في الجو، لينطلق، من ثم عبر الحشد، ويختفي بمهارة ولّدها الخوف. هرع الناس إلى العمامة لكن الرجل اختفى. واستمر أتاتورك في الصياح: «يجب غدًا تسوية هذه المدينة بالأرض! استدعوا الحاكم». جُلب الحاكم وهو يرتدي معطفه الصباحي وقبعته المدوّرة بيده، وقد امتقع لونه وهو يرتجف.

«افصلوه على الفور!»

وسارع عصمت إينونو إلى القول «بأمرك، يا باشا، على رأسي»، ودوّن شيئًا في دفتر ملاحظاته. وبالطبع لم يحدث شيء في اليوم التالي، لكن أتاتورك لم ينس الحادث وأمر منذ ذلك اليوم بمنع الملاّت من ارتداء ملابسهم الدينية، وانطبق هذا الإجراء أيضًا على ممثلي الأديان الأخرى[1].

أعاد أتاتورك رضا إلى اسطنبول بحرًا، ليتسنى له أن يدلّه إلى شبه جزيرة غاليبولي التي ربح فيها معركته الكبرى الأولى. وشكّل وصول يختهما إلى اسطنبول حدثًا مذهلًا تُوّج بحشود ضخمة وبالألعاب النارية وبإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية، تحية. أما المتعة الأخيرة التي أعدّها أتاتورك لضيفه فمهرجان «ليلة شرقية» من التسلية تضمن راقصات بطن عاريات. وشكّلت تلك خاتمة مناسبة للقاء زعيمين قلبا كل المفاهيم التي يُفترض بالملوك المسلمين التصرّف بموجبها[2].

وقال أتاتورك لأحد مساعدي رضا قبل افتراق الرجلين: «أنا شديد الإعجاب بعاهلك إلى حد أنني، لو لم أكن رئيسًا لتركيا، لذهبت إلى إيران لخدمته كما تفعل

(١) Arfa, *Under Five Shahs*, pp. 250– 51.

(٢) Volkan and Itzkowitz, *Immortal Atatürk*, p. 325.

أنت». وبعد ذلك بساعات استدار رضا صوب المساعد نفسه، بعد الوداع، وقال: «لقد تشرّفنا بمقابلة رجل عظيم جدًّا»[1].

أدرك رضا، خلال زيارته، أن بلاده لا تزال متخلّفة عن تركيا، على رغم كل ما فعله لتحديثها. وعاد إلى إيران ليتكرّس للإصلاح بحماسة أكبر من ذي قبل. وقضت خطوته الأولى بإصدار قواعد جديدة للباس تفرض على معلّمات المدارس وزوجات المسؤولين الحكوميين الإسفار عن وجوههن. وتطلّب من الرجال ارتداء قبعة ذات حافة، ليست بالضرورة قبعة مدوّرة بل ذات تصميم مختلف بعض الشيء وأصبحت تُعرف بالقبعة البهلوية. وأصدر رضا أيضًا مراسيم تمنع استخدام الألقاب الدينية، وتفتح المزارات المقدّسة أمام الزوّار غير المسلمين، وتطلب من النادبين في الجوامع الجلوس على الكراسي بدلًا من الركوع على السجاد.

أثارت هذه الحملة غضب المؤمنين الشديد. وخيّم بضعة آلاف من المحتجين صيف العام ١٩٣٥ في داخل المقام في مشهد. واستمعوا، طوال أيام، إلى خطابات يندد فيها الملاّت بـ«الشاه الشرير». لقد أخذوا يختبرون رجلًا عنيفًا في قلة صبره. وأرسل رضا جنودًا لتطويق المقام، وما إن أخذوا مراكزهم حتى أمرهم بفتح النار. وقُتل المئات في الداخل في ما أصبح يُعرف بأشهر فظائع رضا[2].

بعيد ذلك، أمر رضا، كما لو أنه يريد إظهار المزيد من التصميم، بإصلاح بلغ حدًّا من الجذرية لم يجرؤ زعيم أي بلد إسلامي، ولا حتى أتاتورك نفسه، على اقتراحه، وهو الحظر التام للحجاب النسائي. وشكّل السابع من كانون الثاني/يناير ١٩٣٦، وهو اليوم الذي بدأ العمل بهذا الحظر، زلزالًا اجتماعيًّا ذا شدّة نادرة. مزّق رجال الشرطة حُجُب النساء اللواتي ظهرن في العلن وهن يرتدينها. فصُعق الرجال في الشارع. وشعر بعض النسوة بالتحرّر واعتمدن الثياب الغربية، فيما انزوت أخريات،

(١) Arfa, *Under Five Shahs*, p. 252.

(٢) Abrahamian, *History of Modern Iran, p. 94; Wilber, Iran Past and Present*, pp. 166– 67.

ممن لم يظهرن قط وجوههن للغرباء، في منازلهن. أما الأكثر يأسًا بينهن فأقدمن على الانتحار[1].

* * *

تميّزت الطاقة المشتعلة، التي قذفت بأتاتورك وبرضا عبر الحياة، بشدة الاستهلاك ولم تعمّر طويلًا. كان الرجلان، مع التقائهما عام ١٩٣٤، يدخلان العقد الثاني في وظيفتين استنزافيتين، في شكل لا يمكن تصوّره. وأخذت قواهما في الاضمحلال كمثل حال الأسود في الشتاء. وردّا على ذلك بالتغيير في اتجاهين مختلفين.

انحدر رضا إلى درجة قاتلة من جنون الاضطهاد. وأرعب الطبقة السياسية كلّيًا – إذ كان يطرح أحيانًا جنرالاته ووزراء حكومته أرضًا بباطن سيفه قبل أن يأمر بسجنهم – فلم يجرؤ أي منهم على التحدّث معه في صراحة. حتى إنه انقلب على عبد الحسين تيمورتاش، مستشاره المخلص وأحد ألمع الرجال في إيران. لم يأمن البريطانيون لتيمورتاش بسبب نضاله المتزايد في المسائل المتعلّقة بالنفط، فغذّوا رضا بإشاعات عن تخطيطه لانقلاب، وعمد رضا، وربما غشى استخدامه المتزايد للأفيون على حكمه على الأمور، إلى إصدار الأمر بتوقيفه. وحوكم تيمورتاش في مدة قصيرة بتهمة الاختلاس وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. ومات بعد ذلك بأشهر قليلة في زنزانته، وقد قُتل، على ما يتضح، بأوامر من الطاغية المختل.

ومع ازدياد ثائرة رضا، أخذ أتاتورك ينسحب، في هدوء، من الحياة السياسية[2]. وفسح في المجال أمام رئيس وزرائه الكتوم والفاعل عصمت إينونو – عصمت باشا السابق، ورفيقه في حربه الاستقلال – لإدخاله تدريجًا في مقام الأيقونة الوطنية. وعاقر الخمرة، في ليال كثيرة، مع زمرة من أصدقائه الذكور وصفتهم الصحف بـ«بالمجموعة المعتادة». وتابع في ساعات النهار مصالحه الخاصة، وبعضها غريب، مثل بحثه عن

(1) Abrahamian, *History of Modern Iran*, p. 95; Azimi, *Iran*, p. 93.

(2) Kinross, *Atatürk*, p. 413.

برهان أن التركية هي «اللغة الشمس» التي تفرّعت منها اللغات الأخرى كلّها، فيما البعض الآخر عملي في شكل بارز كالمزرعة النموذجية التي أشرف عليها على مقربة من أنقرة. وتظهره واحدة من أشهر صوره في تلك الحقبة على جرّار يضع قبعة من القش (قبعة بناما). وهي تلخّص رسالته الثورية، لكنها تخفي الكآبة التي تغلّفه.

انقضت سنوات أتاتورك التي هزّت الأرض. ولم تعد الحياة توفّر له الحدّة المُفرقِعة التي ألهبته في غاليبولي وفي سكاريا وفي سنوات نظامه الثوري الأولى. أضحى تعبًا، وميّالًا إلى تأمّل النفس، وتعسًا.

«إنني ضجر حتى البكاء»، قال لسكرتيره الخاص، عام ١٩٣٥، بعدما انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا للمرة الرابعة. «أكون، عادة، وحدي خلال النهار. الجميع في أعمالهم، سوى أن عملي بالكاد يستغرق مني ساعة. ثم يصبح لدي خيار النوم، إذا استطعت، أو القراءة، أو كتابة شيء أو غيره. وإذا أردت تنشّق الهواء، على سبيل التغيير، فعليّ ركوب السيارة. ومن ثم، أعود إلى السجن حيث ألعب البلياردو وحدي وأنتظر العشاء. ولا يحمل العشاء تنوّعًا، بغض النظر عن مكانه، فهناك تقريبًا الأناس أنفسهم، والوجوه عينها، والحديث الذي لا يتغيّر. لقد اكتفيت»(1).

شخّص أطباء أتاتورك، عام ١٩٣٦، أول عوارض التشمّع لديه. أصابه المرض، وهو ثمن أعوام من الإفراط. تضمّن روتينه اليومي خلاله خمسة عشر فنجان قهوة، وثلاث علب من السجائر، وما لا يقل عن ليتر من العرق، المشروب المنكّه باليانسون، والذي سماه «حليب السباع». وكتب، وهو على فراش المرض، مدوّنات يومية مؤثّرة يشكو فيها من وحدته ويتساءل إذا ثبت أن كل ما أنجزه ليس إلا عابرًا وبلا معنى. وأخيرًا انطفأ جسمه المُثقل في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، وهو في السابعة والخمسين من العمر.

أصيب الأتراك بالذهول. وأظهرتهم الصور والأفلام ينوحون ويندبون ويشدّون

(1) Mango, *Atatürk*, p. 489.

بشعورهم في عربدة حقيقية من الحزن العام. واصطف مئات الألوف للمرور أمام نعش الغازي، وانهار الكثيرون وهم يصيحون ألمًا «أتا! أتا!» – أيها الوالد! أيها الوالد! وملأت الجماهير الشوارع لمشاهدة جثمانه يُنقل على عربة، على وقع أنغام «المسيرة الجنائزية» لشوبان، إلى واجهة اسطنبول المائية حيث نُقل إلى أحد اليخوت الذي توجّه به إلى مدينة أزمير الساحلية، وحُمّل من هناك في قطار بطيء عبر السهل الأناضولي إلى أنقرة. وهو يرقد اليوم في ضريح كئيب يعد أقرب ما تملكه تركيا إلى المعلم الوطني.

أما سيرة حياة رضا العملية فانتهت من حيث بدأت: مع البريطانيين الذين لم يتمكّنوا من تحمّل تعاطفه الواضح مع ألمانيا إثر بدء الحرب العالمية الثانية. فاجتاحوا مع السوفيات إيران صيف العام ١٩٤١ وسحقوا جيشها في غضون يومين وحسب. وأوضح البريطانيون لرضا أنه لن يمكنه الاحتفاظ بعرشه إلا إذا نفّذ رغباتهم، إدراكاً منهم، طبعًا، أنه سيرفض.

وكتب في ١٦ أيلول/سبتمبر للبرلمان: «كرّست كل طاقاتي، طوال السنوات الماضية لإدارة شؤون البلاد، وها إنني استنفدت قوتي». وتابع: «وأنا بالتالي أتنازل عن العرش وأنقل سلطاتي إلى وارثي وخليفتي»(١).

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، ركب رضا واحدة من سياراته الرولز رويس السياحية، وتوجّه إلى ميناء بندر عبّاس. وصعد صباح الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر، وقد ارتدى ثيابًا مدنية للمرة الأولى في حياته كراشد، إلى طائرة ركّاب بريطانية متوجّهة إلى بومباي. وخطط للإبحار من هناك إلى الأرجنتين، غير أن البريطانيين امتلكوا خططًا أخرى وأودعوه المنفى في جنوب أفريقيا، فلم يسعد فيها، ولم يمضِ عليه وقت طويل حتى أصيب بالمرض.

وقال لدى معرفته أن محطّات الإذاعة البريطانية تتكهّن في شأن صحّته: «كنت

(١) Wilber, *Iran Past and Present*, p. 215.

خفتُ من الموت لو أنني لبّيت رغبات الأجانب.. وبما أنني لم أفعل فأنا لست خائفًا»[1].

مات رضا في ٢٦ تموز/يوليو في جوهانسبرغ جراء نوبة قلبية. وحُنّطت جثته وشُحنت إلى مصر. وأعيدت بعد ذلك بست سنوات إلى طهران ودُفنت في قبر مهيب.

نُشرت سيرة حياة أتاتورك الكاملة للمرّة الأولى عام ١٩٣٢ وهو لا يزال في ذروة سلطته. وخلص واضعها، هـ. ك. أرمسترونغ، وهو ضابط بريطاني أسره الأتراك في الحرب العالمية الأولى وأعطي لاحقًا مركزًا في أنقرة، إلى أن «ديكتاتوريته – وهي ديكتاتورية خيّرة مثقِّفة ومُرشدة – هي الشكل الوحيد الممكن في هذه المرحلة». وبحروف كبيرة كفاية لتغطية مجمل الغلاف الخلفي للكتاب، وصف أرمسترونغ موضوعه في جملة طويلة واحدة لا تتسم إلا ببعض الغلو: «دراسة عن رجل قاس، مرير، وذي إرادة حديد، أطاح السلطان عام ١٩٠٨؛ وكسر الأمبراطورية البريطانية في غاليبولي عام ١٩١٥؛ وطارد اليونانيين حتى البحر في منطقة أزمير عام ١٩٢٢؛ وقضى على سلطة الخليفة عام ١٩٢٤؛ وشنق المعارضة بكاملها عام ١٩٢٦؛ وبحلول العام ١٩٣٢ حوّل الأمبراطورية المتهاوية، أمة».

هدّم الغازي أقلّه بقدر ما بنى. فقد شكّل الإسلام، طوال قرون، جزءًا أساسيًّا من الوعي التركي. وشكّل الحرف العربي، وعاء الحياة الفكرية التركية، حقبة تكاد تكون مماثلة. وتطوّرت العلاقات بين الجنسين على مرِّ أجيال عدّة. وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى ولاء الناس للسلطان وللخلافة. ولم يجعل أي من هذه الأمور أتاتورك يتوقّف لحظة وهو ينطلق في بناء أمة أحلامه الغريبة.

ومع ذلك فإنه كان، في شكل من الأشكال، محافظًا. آمن بالنظام وبالبنية وبالمؤسسات. وكره أفكارًا مثل صراع الطبقات والثورة المستمرة.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٢١.

يعتقد الكثيرون من الأتراك أن تركيّا اليوم ما كانت موجودة لولا أتاتورك. ويضيف التاريخ وزنًا إلى وجهة النظر هذه. فهدف أتاتورك الأقصى في حرب الاستقلال – طرد المحتلين من الأناضول – لم يكن واقعيًّا. وفرضه بقوة الإرادة على الحركة القومية، وحقّقه، في النهاية، على رغم كل الصعاب.

كثيرًا ما تستقر العظمة في شخصيات يتطابق طابعها الشخصي مع حاجات الحقبة. وتحاجج قصص حياة كريستوفر كولومبوس ومارتن لوثر وإليزابيث الأولى – إضافة إلى جورج واشنطن وأبراهام لينكولن وفرانكلين روزفلت – لمصلحة هذه النظرية. وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى أتاتورك.

«خرج أتاتورك من طفولته شخصًا خلّاقًا وساحرًا على نحو غير عادي، لكنه مصاب أيضًا باضطراب خطير»، بحسب مقال نُشر في فصلية علم النفس التحليلي Psychoanalytic Quarterly بعد نصف قرن على وفاته. «ووفّر وضع تركيا السياسي والاجتماعي والتاريخي بعد الحرب العالمية الأولى التلاؤم المثالي بين عظمة أتاتورك وقدراته وحاجة الأمة إلى أب مخلّص أشبه بإله»[١].

بيد أن سنة ١٩٢٣ التي تولّى فيها أتاتورك السلطة ليست السنة التركية الصفر. فهي لا تسجّل اللحظة التي تغيّر فيها كل شيء. ومهما بلغت إصلاحات أتاتورك من جذرية، فإنه أنشأ الجمهورية التركية على أسس وضعتها أجيال من الإصلاحيين العثمانيين. فطوال قرون، آمن المثقفون الأتراك بالدساتير وبالحكم الجمهوري وبحقوق المرأة وبالعلمانية. أما أتاتورك فهو أول من حوّل هذه الأفكار مبادئ للحكم، لكنه ليس تمامًا أول من اعتنقها.

أدرك أتاتورك، في السلطة، أن التسلّط يؤدي في النهاية إلى عدم الاستقرار، ووجب بالنسبة إليه وجود حدود حتى بالنسبة إلى الديكتاتورية. لكن رضا شاه لم يدرك ذلك. وعرف أتاتورك أن الأتراك سيحصلون، في يوم من الأيام، على

(١) D. M. Birger, "The Psychoanalytic Study of Society: 'Immortal' Atatürk— Narcissism and Creativity in a Revolutionary Leader," Psychoanalytic Quarterly no. 53 (1984): 491.

الديمقراطية السياسية. أما رضا فاستحوذ عليه الحفاظ على سلالة بهلوي فيمكن ابنه البكر، محمد رضا، أن يخلفه على العرش.

تصيب حصيلة إنجاز رضا بالحيرة. فقد استلم بلدًا في طور التفكّك وبنى على أنقاضه أسس دولة حديثة. وعلى غرار أتاتورك، تميّز مشروعه الاجتماعي بالثورية. ومن دونه ما كانت إيران لتقوم به أبدًا - وربما ما استمرّت كبلد.

وضع رضا إيران على طريق الحداثة، لكنه دعم نمطًا من الحكم الاستبدادي قيّدها إلى الماضي. فلم يتسامح مع أي معارضة أو فكرة انتقادية. وكرّس نفسه، في تعصّب، لإنشاء دولة جديدة، لكنه فشل في القيام بما يلزم لتثبيتها. تظاهر بالثورة الدستورية لكنه رفض جوهرها الديمقراطي.

كان الزعيمان متسلّطين وإصلاحيين جذريين. وهذان هما الإرثان اللذان تركاهما لتركيا وإيران. بيد أن أتاتورك بنى المؤسسات وانسحب، في لطف، من السلطة ووضع بلاده على درب التحرّر. أما رضا فلم يفعل.

زار الكاتب الأميركي جون غانتر إيران عام ١٩٣٨ - وسماها «قلعة العالم الإسلامي الداخلية العظيمة والمنيعة» - ونشر دراسة مشرقة في «هاربرز» عن رضا شاه. وذكر أن رضا «ذو شجاعة وحيوية، ويمتلك رؤية... قضى على اللصوصية التي شوّهت أقاليم بأسرها على مرّ الكثير من الأجيال؛ وزود الأرض سبل الحياة ببنائه طرقًا جديدة ومرافئ وموانئ؛ أعاد تنظيم الجيش الذي كان حشدًا من الرعاع، على أساس التجنيد الإلزامي. تخلّص من الضباط الأجانب والمستشارين، وجعل من الجيش نوعًا من المدرسة، ضاربًا سلطة رجال الدين. وشرع رضا، أوائل عهده، في تحرير المرأة التي لم تمتلك من قبله حقوقًا أكثر مما للبقر... وأعاد بث الحياة في بلاد على طريق التحلل».

فما الذي أوحى لرضا القيام بهذا كلّه؟ امتلك غانتر جوابًا بسيطًا: «مما لا شك فيه أن ديكتاتور تركيا مصطفى كمال أتاتورك امتلك تأثيرًا شخصيًّا وسياسيًّا عظيمًا

في حياة الشاه رضا الذي اتبع مسيرته عن كثب. أعطى كلاهما حياة جديدة وكرامة لشعبيهما. وسيطرت على حياة كليهما العملية نكهة هائلة من اعتماد النمط الغربي، فالتحديث، فكسر سلطة النظام الفاسد السابق»[١].

أعاد كلا الزعيمين إلى الأمتين الضائعتين الشعور بالعزّة والهوية والهدف. ولخّص أتاتورك الثقة الجديدة بالنفس في عشاء رسمي أقامه عام ١٩٣٦ للملك البريطاني الزائر إدوارد الثامن. ففيما الرجلان يتبادلان الحديث، تعثّر أحد الخدم وتحطّم طبق الضيافة على الأرض. التفت أتاتورك ثم استدار صوب ضيفه معتذرًا.

وقال: «أمكنني تعليم شعب هذه البلاد أمورًا كثيرة، لكنني لم أستطع تعليم أفراده أن يصبحوا خدّامًا جيّدين»[٢].

(١) John Gunther, "King of Kings: The Shah of Iran— Which Used to Be Persia," *Harper's*, December 1938, pp. 60– 69.

(٢) Kinross, *Atatürk*, p. 482.

الجزء الثاني

لم يحظَ اسمنا بالاحترام

٤
هذا الساحر العجوز المصاب بالدوار

لم يسبق قط لهذا العدد الكبير من الأتراك أن سعدوا برؤية آلة حربية مثل سعادتهم عندما ألقت السفينة الأميركية «ميسوري»، وهي أشهر السفن الحربية في العالم، مرساتها في اسطنبول في الخامس من نيسان/أبريل ١٩٤٦. فقد فتكت مدافعها الجبارة بالجنود اليابانيين عبر المحيط الهادئ، وعلى سطحها الذي يمتد بطول ثلاثة ملاعب لكرة القدم، انتهت الحرب العالمية الثانية بموافقة الجنرال دوغلاس ماك أرثر على استسلام اليابان. وهذا أحد رموز قليلة للقوة الأميركية.

لا يشكل دومًا إرسال سفينة حربية عملاقة إلى مرفأ أجنبي الطريقة الفضلى لكسب الأصدقاء. بيد أن الرئيس هاري ترومان دمج، في حذاقة، مهمة ميسوري السياسية بأخرى إنسانية، إذ إنها نقلت رفات الدبلوماسي التركي المحبوب منير أرتيغون الذي توفى في واشنطن، وهو سفير في الولايات المتحدة. وُصف أرتيغون بأنه شخصية أكثر من عادية واشتهر بإقامة حفلات الجاز في السفارة التركية، الأمر الذي أثار استياء السيناتوريين الجنوبيين، لأنها تضمّنت فرقًا مختلطة عرقيًا؛ بقي أبناؤه في الولايات المتحدة بعد وفاته وعملوا على تأسيس شركة تسجيل الأسطوانات «أتلانتيك ريكوردز». وأثار قرار ترومان إرسال جثمان أرتيغون على متن ميسوري

إعجاب الأتراك الشديد، لأنه شكّل مؤشّرًا إلى أن الولايات المتحدة لا تكتفي وحسب بتقديرهم، بل ستعمل أيضًا على حمايتهم.

كتب أحد الصحافيين الذين غطّوا وصول الميسوري أن «روسيا تدقّ بوّابات تركيا البرّية مهدّدة... وأميركا تدقّ البوّابات البحرية، في صداقة، وتزورها قائلة «لا تخافوا، فأنا هنا». ظِلُّ الروس يخيّم على البلقان، فتأتي أميركا وتقول لنا: «ابقوا ساكنين ولا تقلقوا، فأنا معكم». يشكّل وصول الميسوري بادرة حسن نيّة... ورمزًا للحرّية والعدالة للعالم بأسره»[1].

أخذ العالم ينقسم، بعد أقل من سنة على انتهاء الحرب، كتلًا جديدة من القوى. وسعت القوتان العظميان، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، إلى بسط نفوذهما على الدول الأصغر. انطلق ستالين في سحق الديمقراطيات الجديدة، في وسط أوروبا، وقرّر أيضًا محاولة إرهاب تركيا. وبعث إلى عصمت إينونو، الذي تولّى المنصب بعد وفاة أتاتورك، بمطلبين: على تركيا السماح للسوفيات ببناء قواعد على طول مضائقها التي لا تُقدّر قيمتها بثمن، وعليها أيضًا أن تتنازل عن مقاطعتين شرقيتين هما قارص وأرداهان «تم التخلي عنهما لتركيا في لحظة ضعف». وحرَّك، تأكيدًا لجدّيته، وحدات الجيش الأحمر في بلغاريا والقوقاز صوب الحدود التركية.

دفع هذان المطلبان، وهما يتزامنان مع دعم السوفيات حرب العصابات الشيوعية في اليونان، الزعماء الغربيين إلى استنتاج وجود خطر بسقوط منطقة حيوية من العالم في فلك موسكو. وتحدّث رئيس وزراء بريطانيا السابق ونستون تشرتشل، في السادس من آذار/مارس ١٩٤٦ في معهد فولتون في ميسوري، وترومان إلى جانبه، محذّرًا من أن «ستارًا حديديًا» ينسدل على أنحاء أوروبا. وأنصت ترومان إلى ما لم يقله تشرتشل، وهو أن بريطانيا قوة استعمارية آخذة في الأفول وباتت عاجزة عن صياغة أحداث العالم. وعلى غيرها القيام بذلك.

(١) Samuel Loring Morison and Norman Polmar, *The American Battleship* (Osceola, Wis.: Zenith Press, 2003), p. 134.

وصلت «ميسوري» إلى اسطنبول بعد ذلك بأربعة أسابيع. ودوّى ١٩ من مدافعها الكبيرة، بينما كان يُنزل النعش الذي يضم جثمان السفير أرتوغان، إلى زورق دورية تركي. ونُقل من هناك إلى الشاطئ ووضع في عربة نعش جرّها حصانان عبر الحشود المتكتّمة. وانضم ضبّاط من بحرية الولايات المتحدة إلى جنود حرس الشرف الأتراك.

حافظت تركيا في عهد أتاتورك على حيادها الجاد في القضايا السياسية الإقليمية والعالمية. وبقي الرئيس إينونو على هذا الحياد في معظم الحرب العالمية الثانية وأمل في الاستمرار فيه إلى ما نهاية. لكن ذلك استحال بفعل الحقيقة القاسية للحرب الباردة.

شكّلت روسيا، طوال أجيال، العدو الرئيس لتركيا؛ وخاض البلدان، بحسب أحد الإحصاءات، ثلاث عشرة حربًا ما بين العامين ١٦٠٠ و١٩٠٠. وأدرك القياصرة أن السيطرة على المضائق التركية تُوفّر ممرًّا حرًّا للسفن الروسية إلى البحر المتوسط، وأن السواحل التركية تقدّم موانئ رائعة في المياه الدافئة، وأن السيطرة على تركيّا ستمكّنهم من تحويل البحر الأسود بحيرة روسية. وأدرك ستالين أيضًا ذلك كله. وبات في منطق الأمور أن يحاول جعل تركيا دولة تابعة، في وقت يأخذ عالم ما بعد الحرب شكله.

حاول ستالين، وهو يمارس الضغط على تركيا، أن يخضع إيران أيضًا لإرادته. فإيران تمتلك أيضًا موانئ في المياه الدافئة، وعلى رغم أن لا منفذ لها، بخلاف تركيا، إلى المتوسط، فإنها تمتلك ركيزة استراتيجية تعادل ذلك أهمية، وهي النفط. وهو ما جعلها هدفًا استراتيجيًا منطقيًّا آخر لستالين.

اتفق قادة الحلفاء، خلال الحرب، على سحب قواتهم جميعًا من إيران بعد ستة أشهر على انتهاء الأعمال العدائية. وتردّد ستالين في شأن حلول الموعد النهائي. فقد سيطر وكلاؤه على أذربيجان، وهي أقصى مناطق إيران الشمالية، وأنشأ فيها حكومة

شيوعية. وسرعان ما تبينت رغبة ستالين في الاحتفاظ بأذربيجان وفي استخدامها قاعدة يمكنه منها التخريب على ما تبقى من إيران.

حذّر الدبلوماسي الأميركي جورج كينان، في «تلغرامه الطويل» الشهير الذي كتبه مطلع العام ١٩٤٦، الرئيس ترومان من أن السوفيات ينظرون إلى إيران وتركيا بعين الطمع. وأرسل ترومان، بعد أيام على قراءته البرقية، «ميسوري» إلى اسطنبول. ثم أوفد سفيرًا جديدًا إلى إيران يحمل تعليمات بدعم حكومتها ضد المطامع السوفياتية. وحثّت بريطانيا، التي تعدُّ إيران شبه مستعمرة، الزعماء الإيرانيين أيضًا على المقاومة. وهو ما سمح لرئيس الوزراء أحمد قوّام، الدبلوماسي الماهر جدًّا، بالتفاوض على اتفاق مع ستالين انسحب بموجبه الجيش الأحمر من إيران. وحقّق قوّام هذا الإنجاز بتركيبة ماهرة من التهديد – حذّر من أنه سيرسل الجنود الإيرانيين لمحاربة السوفيات – ومن الوعد بشكل من أشكال الامتياز النفطي على سبيل المكافأة.

وهذه هي المرّة الأولى يسحب ستالين قواته من بلد مجاور بفعل الدبلوماسية. ونبع قراره القيام بذلك، على ما جاء في برقية من السفير الأميركي في طهران، من «اعتبارات سوفياتية داخلية، ومن مسائل أكبر في السياسة الخارجية لها علاقة بأوروبا، ومن الخوف من إثارة استنكار الرأي العام [في الأمم المتحدة] وفي العالم، أو من تركيبة من ذلك كلّه». وبعد الانسحاب، أخلص قوّام وطلب من البرلمان الموافقة على الامتياز النفطي الموعود للسوفيات، غير أن البرلمان رفض بمئة وصوتين في مقابل صوتين. غضب ستالين لكنه لم ينتقم[١].

ركّز الأميركيون، بعد هذا النجاح في إيران، على تركيا التي حصلت منهم في سياق أواخر الأربعينيات، على ما يقارب مئتي مليون دولار من المساعدات العسكرية والاقتصادية. وفي النهاية، خلص ستالين الذي ركّز، في قوّة، على تخريب أوروبا

(١) Yonah Alexander and Alan Nanes, eds., *The United States and Iran: A Documentary History* (Frederick, Md.: University Publications of America, 1980), pp. 161– 89; Ali Ansari, Modern Iran Since 1921: The Pahlavis and After (London: Pearson, 2003), pp. 94– 97; Richard W. Cottam, *Nationalism in Iran* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1979), pp. 118– 31.

الوسطى، على أن من غير المجدي المحاربة من أجل تركيا، كما إيران، وتخلّى عن مطالبه المبالغ فيها.

حاول ستالين سلب تركيا وإيران استقلالهما وسحبهما إلى الكتلة السوفياتية. وأسهم العمل الأميركي الحاسم في إفشاله. وهو ما شكره له الأتراك والإيرانيون جدًّا. وشعر الكثيرون منهم بإعجاب قارب الروعة بالأميركيين وببلادهم.

أصبحت تركيا وإيران شريكتين لأميركا، وهنا تكمن جذور «مثلّث القوى» هذا.

لم يكتفِ الأتراك والإيرانيون بالتشبّث وحسب بالولايات المتحدة كشريك استراتيجي، بل إنهم أعجبوا كذلك بالديمقراطية الأميركية وأرادوا بعضًا منها لأنفسهم. فقد منحهم أتاتورك ورضا الحريات الاجتماعية والثقافية التي لم تتمتع بها إلا قلة من المسلمين عبر التاريخ. وها إنهم يريدون أيضًا الحرّية السياسية. وسبق للكثيرين أن قبلوا الحكم الاستبدادي في مرحلة بناء الأمة، سوى أن هذا الزمن قد ولّى بحلول منتصف القرن.

> طلب مساعدة: ملك جديد لإيران يحل محل رضا شاه المتنازل عن العرش. لا سلطة سياسية بل وصول تام إلى جواهر القصر والتاج. امتلاكُ أصولٍ ملكية مفيد. يجب أن ينصاع لرغبة الجيوش المحتلّة. مع إمكان الحصول على ترقية إذا أحسن السلوك.

لو وُجدت يوميات للملك المنفي لأمكن البريطانيين وضع مثل هذا الإعلان المبوّب في الصحف بعد إجبارهم رضا على التخلي عن السلطة عام ١٩٤١. فقد احتاجت إيران إلى زعيم رمزي، وأخذ البريطانيون على عاتقهم العثور على واحد. فكّروا أوّلًا في أمير قاجاري يقيم في لندن، لكنهم استبعدوه بعد اكتشافهم أنه لا يتحدّث الفارسية. وقرّ رأيهم في النهاية على محمّد رضا، نجل رضا، وهو في الحادية والعشرين من عمره، وقد وجدوا أنه يعيش حياة المستهتر في أوروبا.

وكتب الملحق العسكري البريطاني في طهران بعد تتويج محمد رضا، في احتفال محدود، «أنه لا يشتهر بالكثير من قوة الشخصية، وإذا صحّ ذلك فهو قد يناسب الظروف الراهنة». وتابع: «ويمكن التخلّص منه لاحقًا إذا تبيّن أنه لا يُناسب. ويجب أن نتمكّن، في غضون ذلك، من منعه من التسبّب بالكثير من الضرر»(١).

ما إن انتهت الحرب حتى أصبح الإيرانيون أحرارًا من جديد في ممارسة السياسة. وشعر محمد رضا شاه بجاذب من الطموح. وحلم بإعادة إحلال الديكتاتورية الملكية، على غرار ما فعله والده. بيد أن الكثيرين من الإيرانيين أرادوا العكس: الديمقراطية التي ينتظرونها منذ الثورة الدستورية. ولم يردها أحد بمثل هذه الحرارة التي أرادها بها محمد مصدّق.

سيصبح الأرستقراطي العجوز لعنة الشاه، فضلًا عن أنه سيمضي بعد ذلك إلى هزّ العالم، كما لم يفعل ذلك أي إيراني منذ قرون.

تولّى والد مصدّق منصب وزير المال في إيران طوال ثلاثين عامًا. ووالدته أميرة من سلالة القاجار المخلوعة. وتمتع، على رغم أنه مملوء بالغرابة، بذهن حاد جدًّا. وهو أول إيراني يحصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة أوروبية. وتولّى بعد عودته إلى إيران سلسلة من المناصب الحكومية واشتهر بالعبقرية وبالاستقامة. وكان عام ١٩٢٥ واحدًا من أربعة نواب في البرلمان صوّتوا ضد اقتراح رضا تنصيبه ملكًا. تحمّله رضا مدة، لكنهما لم يتمكنا من التصالح. فدبّر خسارته مقعده في انتخابات العام ١٩٢٨(٢).

عاش مصدّق، في هدوء، في السنوات العشرين التالية في مسقطه، قرية أحمد أباد التي تقع على بعد خمسين ميلًا غرب طهران. طالع كتب الحقوق وساد، في لطف، على بضع مئات من الفلاحين. وبدا أن سيرته السياسية الواعدة قد انتهت.

(١) Fakhreddin Azimi, *Iran: The Crisis of Democracy* (London: I. B. Tauris, 1989), p. 123.

(٢) Nikki R. Keddie, *Modern Iran: Roots and Results of Revolution* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2006), p. 88.

ولكن، مع رحيل رضا شاه وانتهاء الحرب العالمية الثانية، برز شعور جديد في أنحاء إيران حيال ما يوفّره ذلك من احتمالات، فطالب الشعب بالديمقراطية. واستذكر الكثيرون مصدّق بصفة كونه بطلهم في مواجهة ديكتاتورية رضا، ولجأوا إليه. وانتخبوه أعوام ١٩٤٦ و١٩٤٨، و١٩٥٠ نائبًا في البرلمان بأصوات فاقت أصوات أي مرشّح آخر.

أصبح المُحرّض الشاب عجوزًا، غير أن «موسى العجوز»، كما سمته الصحافة الأميركية، بقي واسع الاطلاع ومتحمّسًا كالسابق. تميّز بطول قامته ونحوله – قيل إنه يقصر طعامه على الشاي والفستق الحلبي – بذراعيه الطويلتين وبكتفيه المتهاويتين كما لو أنهما تنوءان تحت حمل أعباء بلاده، وبعينيه العميقتين، وبرأسه الأصلع، وبأنف ضخم شبّهه أعداؤه بمنقار العقاب. امتلك بنية ضعيفة وكثيرًا ما أصيب بالمرض، إلى حد استقباله الزوّار أحيانًا وهو في الفراش.

تنهار الدموع على خدّي مصدّق عند إلقائه الخطب العاطفية في البرلمان، شاكيًا من تخلّف شعبه، حتى إنه أغمي عليه، مرّات قليلة، وانهار؛ ولقّبته مجلّة «نيوزويك» بـ«المتعصّب الدائخ»[1]. اتصف بالمسرحية الشديدة، وربما عاد بعض من مرضه ونوباته إلى أسباب غير طبّية. وشعر الإيرانيون أنه لم يتفهّم معاناتهم وحسب، بل يعيشها معهم أيضًا. وبات، بحلول أوائل الخمسينيات، الشخصية الأكثر شعبية في البلاد – خطيب حماسي، ديمقراطي لا يساوم، مدافع شرس عن الاستقلال الوطني، أكثر مواطني إيران ثقافة، وأحد أكثرهم التزامًا النزاهة.

تمسّك مصدّق في كل خطاباته باقتناعيه الأساسيين: الأول هو أن على الشاه أن يكون رمز الأمة وحسب، على غرار ملكة إنكلترا، وألا يمسك بالسلطة السياسية. ويقضي الثاني بأن تستعيد إيران نفطها.

أضحت إيران أحد أكبر منتجي النفط في العالم، سوى أن كل أرباحها تقريبًا

(١) *Newsweek*, August 15, 1953.

ذهبت إلى شركة النفط الأنغلو- إيرانية، الأنغلو - فارسية سابقًا، وقد أعيدت تسميتها في إلحاح من الشاه، وإلى مالكتها الأساسية، الحكومة البريطانية. ومع انتصاف القرن ركّز الإيرانيون، وقد تحرّروا في النهاية، على الظلم بصفة كونه واقعًا أساسيًّا في حياتهم الوطنية.

ترأس مصدّق لجنة النفط في البرلمان، وألقى الخطاب الناري تلو الآخر منددًا بالأنغلو - إيرانية. ولما توصلّت شركة النفط الأميركية «أرامكو» إلى اتفاق مع السعودية المجاورة تتقاسمان بموجبه الأرباح مناصفة – نصف الأرباح تعود إلى الحكومة والنصف الآخر إلى الشركة – طالب الإيرانيون بالأمر نفسه. ورفض البريطانيون زيادة حصة إيران البالغة ١٦ في المئة.

في الثامن والعشرين من نيسان/أبريل، ومع تفتّح أزهار الرمان الإيراني الرائعة، اجتمع البرلمان لانتخاب رئيس جديد للوزراء؛ فقد اغتال الوطنيون الرئيس السابق، بحكم كونه ألعوبة في أيدي الإنكليز. واختار النوّاب مصدّق بتسعة وسبعين صوتًا في مقابل ١٢، وهو عضو المجلس الأطول قامة والأفضل ثقافة والأشد احترامًا – ويجسّد أيضًا تصميم إيران على استعادة نفطها.

طلب مصدّق من البرلمان، فور انتخابه، الموافقة على قرار يدعم تأميم شركة النفط الأنغلو - إيرانية. وجاءت الموافقة بالإجماع، مما هيّأ المسرح لمواجهة ستتردّد أصداء تأثيراتها، خلال ما تبقى من القرن والعشرين وما بعده.

سيطر البريطانيون، طوال أجيال، على مجرى الأحداث في إيران، ولم يستوعبوا في البداية ما قام به البرلمان. ولم يشعروا، إلا في بطء، أن الإيرانيين جادون هذه المرّة. فلا يمكن رشوة مصدّق أو، والحال هذه، إخافته. وقد أُجبرت بريطانيا للتو على الانسحاب من الهند، جوهرة التاج الأمبريالي السابقة، وها إنها تواجه الآن احتمال خسارة أكثر أصولها درًّا للربح من أي مكان آخر في العالم. ولم يمكن الزعماء البريطانيين – وبخاصة الأمبريالي الدائم ونستون تشرتشل الذي عاد عام ١٩٥١ إلى السلطة – قبول مثل هذه الخسارة.

اتخذت بريطانيا سلسلة منَ الخطوات التصعيدية لمنع إيران من استعادة نفطها:

- أمرت جميع التقنيين البريطانيين في مصفاة عبدان المترامية الأطراف بالعودة إلى الديار.
- شنّت حملة عالمية لضمان منع تقنيي النفط من دول أخرى من السفر إلى إيران.
- أقنعت شركات النفط في بلدان أخرى، بما فيها الولايات المتحدة، برفض شراء أي نفط قد تنتجه إيران.
- فرضت حصارًا بحريًّا حول عبادان لمنع الناقلات من الدخول وشحن النفط.
- جمّدت أرصدة إيران من العملات الصعبة في لندن وتوقّفت عن تصدير السكّر والحديد وغير ذلك من السلع إليها.
- طالبت الأمم المتحدة والمحكمة الدولية بتوجيه الأمر إلى إيران بإعادة تسليم شركة النفط[١].

جلبت هذه الإجراءات أزمنة صعبة على إيران. فسكتت المضخات العملاقة في عبادان. وارتفعت الأسعار وتبخّرت الوظائف وصعب العثور على الغذاء. ومع ذلك لم يتزحزح مصدّق، ولا الشعب الإيراني. وردّ الكثيرون ممن يؤمنون جزئيًّا بالمعتقد الإسلامي الشيعي أن ما من أمر مبارك أكثر من المعاناة في سبيل قضية عادلة، على الضغط البريطاني بمساندتهم التأميم في حماسة أكبر من ذي قبل.

تردّدت في ذهن البريطانيين، مدة، فكرة اجتياح إيران والاستيلاء بالقوة على

(١) Mostafa Elm, *Oil, Power, and Principle: Iran's Oil Nationalization and Its Aftermath* (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1992), pp. 146- 50, 155- 68, 271- 72; James Goode, *The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq* (London: Macmillan, 1997), p. 33; Mary Ann Heiss, *Empire and Nationhood: The United States, Great Britain, and Iranian Oil, 1950- 1954* (New York: Columbia University Press, 1997), p. 130; Stephen Kinzer, *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror* (New York: Wiley, 2003), pp. 110, 115- 17, 137- 38.

حقول نفطها. غير أنهم لما طلبوا المساندة من الرئيس ترومان رفض، وحذّرهم من مغبّة المحاولة.

حاول ترومان مرّات عدة التوسّط بين مصدّق ومن سماهم بـ«البريطانيين ذوي الرؤوس اليابسة»[1]. وفشل لأن نزاعهما في جوهره ليس سياسيًّا بل عاطفي وثقافي ونفسي، بل وحتى روحي. لم يحضّر التاريخ أيًّا من الجانبين للمساومة. ولم يتمكّن البريطانيون، وقد كيّفتهم عقود من السيادة الاستعمارية، مع تصوّر فكرة إعطاء السكان الأصليين أمرًا ذا قيمة أرادوا الاحتفاظ به لأنفسهم. أما الإيرانيون فإنهم ينتقمون، من جانبهم، لقرون من الإذلال. واعتقد الكثيرون أن أي تنازل للقوة الأجنبية يعادل الخيانة.

«إن مصادر النفط في إيران، كما أراضيها وأنهارها وجبالها، ملك لشعب إيران»، قال مصدّق في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥١ في دفاعه التاريخي أمام مجلس الأمن الدولي. «وهو وحده يمتلك سلطة تقرير ما يفعله به»[2].

تأثّر مجلس الأمن بمناشدة مصدّق، ورفض لوم إيران أو الضغط عليها أو معاقبتها. وشكّلت تلك هزيمة لا سابقة لها لبريطانيا، وجعلت من مصدّق شخصيّة عالمية من المقام الأول. واختارته مجلة «تايم» رجل العام ١٩٥١، «ليس لأنه الأفضل أو الأسوأ أو الأقوى، بل لأن خروجه السريع من الظلمة قوبل بالإثارة الكبرى».

> لم تشكّل الإثارة وجه الحدث وحسب: فهذا الرجل العجوز الغريب، مثّل بطريقته الغريبة واحدة من أعمق أزمات عصره. فمن حول هذا الساحر العجوز المصاب بالدوار، تدور أزمة تتعلّق بالقدَر الإنساني. فهناك الملايين في داخل إيران وخارجها ممن يرمز إليهم مصدّق ويتحدّث باسمهم والذين أسهمت حال ذهنهم التعصبية في خلقه. وهم يفضلون أن يروا أمتهم تتهاوى على أن يستمروا في علاقتهم الراهنة مع الغرب... ولا يعِد مصدّق أمته بمخرج من هذا الوضع

(١) Henry Grady papers, box 2, 1952, Harry S. Truman Presidential Library, In dependence, Missouri.

(٢) *New York Times,* October 16, 1951.

شبه الميؤوس منه. بل إنه يفضّل رؤية إيران وقد أصبحت أطلالًا بدلًا من الإذعان للبريطانيين[1].

لم يتمكن البريطانيون من إرغام مصدّق على الانصياع، فقرروا إطاحته. وتميّزت استراتيجيتهم بالبساطة: رشوة أعضاء في البرلمان لدعم التصويت بحجب الثقة عنه. وشرع عملاؤهم في تمرير الأموال سرًّا، ولكن ليس بما يكفي من السرّية. فقد علم مصدّق مؤامرتهم، وردّ بإغلاق السفارة البريطانية وطرد جميع الدبلوماسيين البريطانيين. وبين هؤلاء «الدبلوماسيين» العملاء السرّيون الذي كُلفوا إطاحته.

ومن يأسه، لجأ تشرتشل إلى ترومان، وسأله هل يمكن وكالة الاستخبارات المركزية إطاحة مصدّق خدمة لحليف قديم؟

مضت خمسة أعوام وحسب على إنشاء الـ«سي.آي.إي.» ولم يسبق لها قط أن أطاحت أي حكومة. وقد أحجم ترومان عن تزويدها الكثير من السلطة، فضلًا عن أنه يلوم عناد البريطانيين بسبب الأزمة في إيران. وأبلغ تشرتشل أن الـ«سي.آي.إي.» لن تساعد.

بات البريطانيون فعلًا من دون خيارات. فقد فشلت حملة ضغطهم في هزّ مصدّق، وليس لديهم عملاء على الأرض يمكنهم إطاحته، والأميركيون لن يساعدوا. أعيتهم الحيلة إلى أن توقّف رئيس عمليات الـ«سي.آي.إي» في الشرق الأوسط كرميت روزفلت في لندن للتحادث مع نظرائه في جهاز الاستخبارات السرّية الذين سألوه هل من أمل في أن يبدّل الأميركيون موقفهم ويوافقوا على إطاحة مصدّق؟

وكتب روزفلت بعد ذلك بسنوات: «أبلغت زملائي البريطانيين أنني متأكد من أننا ليست لدينا حظوظ في كسب موافقة الإدارة الراحلة، ولكن يمكن الأمر أن يختلف جدًّا مع الجمهوريين الجدد»[2].

---

(١) *Time*, January 7, 1952.

(٢) Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran* (New York: McGraw- Hill, 1979), p. 107.

حملت انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢ دوايت أيزنهاور إلى السلطة، ومعه شقيقان سيعيدان، في شكل جوهري، صياغة المقاربة الأميركية للعالم. أصبح جون فوستر دالاس الذي أمضى عشرات السنين يعمل محاميًا ذا أجر مرتفع في الشركات المتعددة الجنسية، وزيرًا للخارجية. وأدار ألن دالاس، وهو أصغر منه بخمسة أعوام، الـ«سي. آي. إي.». وتلك كانت المرّة الأولى والوحيدة يدير شقيقان الجانبين المعلن والخفي للسياسة الخارجية الأميركية.

تعاطف ترومان مع الوطنية الصاعدة في الدول الفقيرة؛ أما أيزنهاور والأخوان دالاس فلم يروا فيها إلا لاعبًا ثانويًّا في دراما الحرب الباردة العالمية. وعدُّوا كل حكومة لا تصطف كليًّا مع الغرب – وبالتأكيد أي واحدة تجرؤ على تأميم شركة غربية – عدوًّا يجب سحقه. وسنحت بذلك الفرصة للبريطانيين الذين أوفدوا مبعوثًا للاجتماع مع مسؤولي الإدارة المقبلة. قرر المبعوث الذي حلّل، في ذكاء، المشهد السياسي الجديد في واشنطن ألا يطرح القضية البريطانية القديمة – وجوب إطاحة مصدّق لأنه صادر شركة نفطية بريطانية – بل واحدة جديدة، وهي أن مصدّق أعجز من أن يقف في وجه انقلاب شيوعي، ويجب إزاحته قبل أن يضرب الشيوعيون ضربتهم[1].

استحوذت على الولايات المتحدة في ذلك الوقت مخاوف الحرب الباردة. فقد سحقت القوات السوفياتية ديمقراطيات أوروبا الوسطى وحاولت تجويع برلين الغربية. واستولى الشيوعيون على السلطة في الصين. وشرع الجنود الشيوعيون في كوريا في قتل الأميركيين. وأخذ المرشحون الشيوعيون يفوزون في الانتخابات في فرنسا وإيطاليا. وجعل السيناتور جوزف ماكارتي يخبر الأميركيين أن الشيوعيين يخترقون حكومتهم. وسهل، في هذا المناخ، تسويق الفكرة البريطانية توجيه الضربة إلى مصدّق. ووافق أيزنهاور على إرسال الـ«سي. آي. إي.» لتنفيذ الأمر.

(١) C. M. Wood house, *Something Ventured* (London: Granada, 1982), pp. 117– 18.

«هكذا إذًا تخلّصنا من ذلك المجنون مصدّق»، قال جون فوستر دالاس متأمّلًا وهو يقرأ مخطط عملية أجاكس بعد ذلك بأشهر[١].

اتخذ الرئيس أيزنهاور ووزير الخارجية دالاس قرارهما بقلب حكومة إيران الديمقراطية من دون نقاش، ولا تفكير، ولا تحليل، ومن دون موازنة الأكلاف والأرباح. ولمّا حذّر رئيس محطة طهران في الـ«سي. آي. إي.» روجر غويران من أن خلع مصدّق سيقوّض المصالح الأميركية البعيدة الأمد، عملا على إقصائه[٢]. ولم يستشيرا قط أيًّا من الاختصاصيِّين في شؤون إيران في وزارة الخارجية. ناشدهما مصدّق علنًا وفي رسائل خاصة، لكنهما تجاهلاه.

استنتجت الباحثة الأميركية ماري آن هايس بعد دراستها هذه المواجهة أن «نفور دالاس وأيزنهاور الحاد من مصدّق كان غريزيًّا وفوريًّا». وتابعت «أنهما لم يهتما بالتفاوض... وقضي الأمر بانفعال وسرعة كبيرين. لم تُبذل أي محاولة لمعرفة من هو مصدّق أو ما الذي يحرّكه»[٣].

لم يسبق للـ«سي.آي.إي.» قط أن تحرّكت لخلع زعيم أجنبي. وستفتتح عملية أجاكس حقبة من التدخّل أعادت صياغة العالم.

تسلل كرميت روزفلت إلى إيران، في التاسع عشر من تموز/يوليو، مستخدمًا جواز سفر مزوّرًا. وقد سبق لجدّه، ثيودور روزفلت، أن أسهم في قلب السلطة الإسبانية في كوبا وبويرتوريكو والفيليبين؛ وها إن مهمته تقضي بإطاحة السلطة الإيرانية في إيران.

لم يعرف الإيرانيون، ما يقارب القرن، سوى الجانب الخيّر من أميركا. ارتاد الآلاف منهم المدارس الأميركية أو عولجوا في المستشفى الأميركي في طهران.

(١) Roosevelt, *Countercoup*, p. 8.

(٢) Stephen Dorril, *MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service* (New York: Free Press, 2000), p. 584.

(٣) Stephen Kinzer, "Inside Iran's Fury," *Smithsonian*, October 2008.

وبات هوارد باسكرفيل ومورغان شوستر بطلين وطنيين. غير أن هذا العصر الذهبي بات على وشك النهاية.

لم تسر مهمّة روزفلت – إطاحة مصدّق – تمامًا كما هو مخطّط لها، غير أن من المدهش، في استعادة للأحداث، مدى السهولة التي أنجزها فيها. بدأ برشوة كاتبي افتتاحيات في الصحف، ومَوالٍ، ونواب في البرلمان للتنديد بمصدّق؛ فوصفوه بالملحد، واليهودي، والمثلي الجنس، بل وبالعميل البريطاني. ثم أغرى ضباطًا عسكريين أساسيين وقادة في الشرطة. واستخدم عصابات شوارع لزرع الفوضى في شوارع طهران مطلقين النار من المسدسات ومحطمين النوافذ وصائحين: «نحبّ مصدّق والشيوعية!» ثم استخدم عصابة ثانية لمهاجمة الأولى سعيًا منه إلى تصوير مصدّق بالعاجز عن السيطرة على عاصمته. ومساء التاسع عشر من آب/أغسطس، التقت مجموعة من آلاف عدة عند منزل مصدّق، لم يدرك أفرادها أنهم يتم التلاعب بهم. ثم وصلت وحدات عسكرية وشرعت في قصفه. ردّ الحراس من الداخل على النار. قُتل ثلاثمئة شخص. وما إن توقّف إطلاق النار حتى انتهت حقبة مصدّق.

كان محمّد رضا شاه الجبان، الذي فرّ من إيران، أيام الاضطراب التي سبقت الانقلاب، يتناول العشاء في أحد فنادق روما عندما اندفع المراسلون إليه بخبر إطاحة عدوّه مصدّق. أخذته الدهشة في البداية وأعياه الكلام. وتمكّن، في النهاية، من إخراج بضع كلمات.

«كنت أعرف ذلك!» صاح. «إنهم يحبونني»[١]!

عاد الشاه بعد ذلك ببضعة أيام إلى طهران وإلى عرش الطاووس. وأمر بمحاكمة مصدّق، وهو في الحادية والسبعين، بتهمة الخيانة. فحُكم عليه بالسجن ثم بالإقامة الجبرية في منزله مدى الحياة. وعمد محمد رضا شاه، مستخدمًا تركيبة من المداهنة والوحشية التي تعلّمها من والده، إلى توطيد السلطة التي حرمته إياها الديمقراطية، لتصبح الحقبة التالية من التاريخ الإيراني حقبته.

(١) *The Times* (London), August 20, 1953.

أصبح الوعد بالثورة الدستورية حقيقيًّا، أخيرًا، خلال الأشهر الاثنين والسبعين لمصدّق في موقعه. أمسك مسؤولون مُنتَخبون بالسلطة، وخاطب البرلمانُ حاجات الناس. ودُفع بالشاه الجشع إلى الخلفية. وتمتّع الإيرانيون بالحرية كما لم يتمتعوا بها في تاريخهم.

توجّب على المسؤولين الأميركيين أن يهلّلوا للأمر، سوى أنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب الحرب الباردة. أمكنهم أن ينظروا إلى الديمقراطية الإيرانية وأن يروا في إيران شريكًا، ودولة ينخرط شعبها، في حماسة، في الحياة السياسية، وهو مصمّم على حكم نفسه بنفسه. لكنهم نظروا، بدلًا من ذلك، إلى تأميم شركة نفط ورأوا عدوًّا.

كتب رئيس المحكمة العليا وليام أو. دوغلاس، الذي زار إيران قبل انقلاب ١٩٥٣: «عندما شرع مصدّق وبلاد فارس في الإصلاحات الأساسية، انتابنا الذعر... توحّدنا مع البريطانيين لتدميره؛ ومذذاك لم يعد اسمنا يتمتّع بالاحترام في الشرق الأوسط»(١).

لم يؤدِّ هذا الانقلاب إلى اسقاط مصدّق وحسب، بل أنهى أيضًا الحكم الديمقراطي في إيران ونحا بالبلاد نحو الديكتاتورية. منح محمّد رضا شاه الولايات المتحدة ربع قرن من السيطرة في إيران، سوى أن قمعه أثار في مآل الأمر ثورة أنتجت نظامًا معاديًا، في تعصّب، لأميركا.

ربط الانقلاب على مصدّق أيضًا إيران والولايات المتحدة معًا. ولم تكن الولايات المتحدة حتى العام ١٩٥٣ قوّة رئيسة في إيران؛ وأصبحت بعد ذلك القوة الأجنبية المسيطرة. وينحى كثيرون من الإيرانيين باللائحة على الولايات المتحدة في مأساة بلادهم الراهنة. ويحاججون بأن لو لم تخلع الولايات المتحدة مصدّق وتنهِ بالتالي الحكم الديمقراطي، لتجنبت إيران عقود الظلم التي أعقبت ذلك. وعندما

---

(١) James A. Bill, *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American- Iranian Relations* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988), p. 94.

يصدر الأميركيون الإدانات ويهددون ويعاقبون إيران، فإنهم يستهجنون ويردّون: كانت لنا ديمقراطية، مَرّة، لكنكم أخذتموها منّا!

كتب جيمس بيل، أحد المؤرخين الأميركيين البارزين لإيران المعاصرة: «امتلك الإيرانيون، بمختلف مشاربهم السياسية، رأيًا سلبيًّا، في اضطراد، حيال الولايات المتحدة... ولم يعودوا يرون في الولايات المتحدة تلك القوة الخارجية المُحرِّرة التي سيحمي نفوذها إيران من عدويها التقليديين، بريطانيا وروسيا. بل على العكس كوّنوا رؤية أصبح فيها الحامي هو المستغِل. ويرى الكثيرون من الإيرانيين أن الخطوة الأولى ذات المغزى في هذا التحوّل الأميركي هي إطاحة مصدّق... ومع تراجع بريطانيا عن دورها البارز في الخليج الفارسي حلت الولايات المتحدة محلّها بصفة كونها القوة الخارجية المتسلّطة والمتدخلة الجديدة»[١].

ثبّت جنود شرسو المظهر ذوو شوارب متدفّقة وسيوف معقوفة تتدلّى من أحزمتهم الصداقة التركية ـ الأميركية الحديثة. جاءوا للقتال في كوريا خاتمين بالدم الشِّرْكة التي بدأت مع زيارة البارجة الحربية الأميركية «ميسوري» لإسطنبول.

شكّل الجنود الخمسة عشر ألفًا الذين أرسلتهم تركيًا إلى كوريا – وجميعهم من المتطوعين الذين التحقوا بعدما أبلغهم قادتهم أن أميركا في حاجة إلى العون – أغرب لواء يحارب أبدًا إلى جانب الجيش الأميركي. فقد جاءوا جميعهم تقريبًا من القرى الأناضولية النائية. ولم يتحدّث أي منهم الإنكليزية أو يعرف أين تقع كوريا. وهم أول مجموعة من الأتراك الذين يغامرون في خارج موطنهم منذ تأسيس الجمهورية، ولم يبدُ عليهم مظهر الجنود الذين سبق لأي أميركي أن رآهم. ولم يعرف أحد ما يتوقّعه منهم[٢].

(١) المصدر السابق، ص. ٥.

(٢) Stanley Sandler, *The Korean War: No Victors, No Vanquished* (Lexington: University Press of Kentucky, 1999), pp. 163–66.

سرعان ما اكتسب الأتراك الشهرة بأنهم محاربون شرسون يطيعون الأوامر على الفور، ويندفعون طوعًا عبر النيران، ولا يكادون يُقهرون في الالتحام. وتقول الأسطورة إنهم عمدوا أحيانًا إلى قطع رؤوس ضحاياهم وآذانهم. ولمّا شكك الأميركيون في الإحصاءات المرتفعة في تقاريرهم عن عدد القتلى، شرع الأتراك في نقل جثث ضحاياهم من الجنود الكوريين الشماليين والصينيين إلى مقر القيادة الأميركية وتكويمها في الخارج. ولحقت باللواء التركي ثلاثة آلاف إصابة. وهناك أكثر من سبعمئة من جنوده مدفونون في الأرض الكورية.

ومع انتشار التقارير عن بسالتهم، قال الجنرال دوغلاس ماك أرثر قائد القوات الحليفة إن «الأتراك هم أبطال الأبطال... لا يوجد مستحيل على اللواء التركي»[١].

تعوّد الأميركيون على النظر إلى الأتراك بصفة كونهم متوسّلين ضعافًا يحتاجون إلى الحماية. ومع ازدياد حدّة كل من حرب كوريا والحرب الباردة، أخذت تركيا تظهر في اضطراد كشريك محتمل. وأدى ذلك إلى قفزة عملاقة، تمثلت عام ١٩٥٢ بقبول تركيا في منظمة حلف شمال الأطلسي، التحالف العسكري الأهم بالنسبة إلى أميركا. وهو ما وضع تركيا تحت مظلّة الدفاع الغربية، وعنى كذلك أمرًا أكثر إرضاء بكثير. فقد أثبتت عضوية الناتو أن تركيا قوة أوروبية كاملة، وهو ما كان ليُشعر أتاتورك بالنشوة.

أما بالنسبة إلى باقي التاريخ التركي، فإن النقاش في شأن ما أراده أتاتورك أضحى، في استمرار، موضوعًا خلافيًا. لم تشكّل أيديولوجيته التي صارت تُعرف بالكمالية، مجموعة ثابتة من المبادئ، بل هي بالأحرى مشروع مسهب لبناء الأمّة. وفي السنوات التي أعقبت وفاته، اعتنقت النخبة التي يسيطر عليها العسكر الشعار الكمالي، فأصرّت على أن قومية الغازي العلمانية تتطلب وضع حدود على حريّة التعبير، ودورًا سياسيًا قياديًا للعسكر، ودولة تتخذ القرارات نيابة عن المواطنين، بل رغماً عنهم، إذا اقتضى الأمر. غير أن آخرين أصرّوا على أن» هذا ليس ما أراده

(١) «The Turkish Brigade», accessible at http://www.korean-war.com/turkey.html.

أتاتورك الذي كان سيحارب من أجل المزيد من الديمقراطية، لا الحد منها. وأدى هذا الجدال بالكثيرين من الأتراك إلى عدِّ النخبة الكمالية عدوّة للحرية وقوّة تثقل تركيّا وتكبحها.

أحبّ أتاتورك فكرة المعارضة ولكن ليس واقعها. ولم يحتمل إلا حزب الشعب الجمهوري التابع له. واستمرّ نموذج الحزب الواحد صامدًا عقدًا بعد وفاته. ولكن، ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، أراد الأتراك، على غرار الإيرانيين، اختيار قادتهم. وتمتّع الرئيس إينونو بما يكفي من الحكمة لعدم المقاومة. وسمح للأعضاء الطموحين في حزب الشعب الجمهوري بالانفصال وبتشكيل حزبهم الخاص. ثم دعا إلى انتخابات تنافسية.

كرّس إينونو حياته لخدمة بلاده. كان قائدًا أساسيًّا في حرب الاستقلال، وعمل وزيرًا لخارجية أتاتورك ومن ثم، طوال عقد من الزمن، رئيسًا لوزرائه، موجّهًا الأمة الجديدة عبر طائفة من الأزمات قبل أن يصبح ثاني رئيس لها. إلا أنه لم يؤدّ خدمة أعظم من قراره إجراء انتخابات مفتوحة عام ١٩٥٠. ونادرًا ما يوافق قادة دولة الحزب الواحد طوعًا على تحويلها دولة متعدّدة الأحزاب. وكشف إينونو، بقيامه بذلك، عن الميّزة التي سمحت لتركيا بالتقدّم فيما راوحت الدول المجاورة مكانها: وهي المقدرة على التغيير مع الزمن.

اندفع الأتراك في ٢٢ أيار/مايو ١٩٥٠ إلى صناديق الاقتراع. وأصرّ الرئيس إينونو على إحصاء الأصوات، في أمانة، لتأتي النتيجة مذهلة. حقق ديمقراطيو المعارضة فوزًا ساحقًا. وحث البعض إينونو على رفض النتيجة، لكنه لم يوافق. وهكذا انتهت، بعد سبعة وعشرين عامًا، حقبة حكم الحزب الواحد في تركيا(١).

كان رئيس الحكومة الجديد عدنان مندريس، مرحًا ومحاميًا موسرًا وصاحب

(١) Feroz Ahmad, *The Making of Modern Turkey* (London: Routledge, 1993), pp. 108–9; Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London: Oxford University Press, 1961), pp. 312–19; Erik J. Zürcher, *Turkey: A Modern History* (London: I. B. Tauris, 1993), pp. 227–28.

مزرعة للقطن تلقّى علومه في المعهد الأميركي في أزمير، ومقاتلًا قديمًا في حرب الاستقلال وحائزًا أوسمة. وعد، خلال حملته، بتحويل تركيا «أميركا صغيرة»، مع وجود مليونير في كل حي من أحيائها. ولما أصبح رئيسًا للوزراء ساعد المزارعين، وخفف من بعض القيود على الممارسة الدينية، وتمتّع بمكافآت الفورة الاقتصادية العالمية. وارتفع عدد السكان إلى أكثر من الضعفين خلال عهده الذي استمر عقدًا، ليصبح ٢٧ مليونًا. وازداد نصيب الفرد من الدخل ثلاثة أضعاف. وتضاعف عدد السيارات خمس مرّات. وأخذت الطبقة المتوسطة – أساس الاستقرار في أي بلد – تبرز وتزدهر. كانت الديمقراطية جيّدة على الأتراك(١).

غير أن الأمور لم تلبث أن أخذت تتدهور في بطء. ومع بدء مندريس ولايته الثالثة عام ١٩٥٧، شرع الاقتصاد في التداعي، ومعه الديمقراطية. وأخذ مندريس يزداد تعسّفًا، فارضًا الرقابة على الصحافة ومعتقلًا المنتقدين. وهاجم أوباش السياسة زعماء المعارضة، بمن فيهم الرئيس السابق إينونو. ثم، وفيما أخذت التوتّرات في التصاعد، سقطت طائرة مندريس على مقربة من لندن؛ وقُتل ١٤ من ركّابها الأربعة والعشرين، أما هو فخرج سليمًا معافى. وزعم هو وبعض من مؤيديه أن في الأمر إشارة إلى الرعاية الإلهية. وشكّلوا «لجنة تحقيق» التأمت سرًّا للبحث في حظر أحزاب المعارضة وإقفال الصحف المعادية. ارتاع الناس وقام الطلاب بأعمال شغب وفُرضت الأحكام العرفية(٢).

قامت، في ٢٧ أيار/مايو ١٩٦٠، مجموعة من الضباط المتوسطي الرتب بانقلاب

(١) Sina Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic: The Emergence of the Turkish Nation from 1789 to Present* (New York: New York University Press, 2007), pp. 253– 67; Andrew Mango, *The Turks Today* (Woodstock, N.Y.: Overlook Press, 2006), pp. 47– 48; Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. 2: Reform, *Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808– 1975* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), p. 408; Zürcher, Turkey, pp. 231– 52.

(٢) Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, pp. 252– 64; Mango, *Turks Today*, pp. 49– 52; Zürcher, Turkey, pp. 241– 45.

أطاح حكومة مندريس. وقالوا إنهم تحرّكوا «لمنع اقتتال الإخوة» و«لانتشال الأحزاب من المواقف التي غرقت فيها ولا يمكن التوفيق بينها»(١).

قد يكون هذا الانقلاب أراح الكثيرين من الأتراك، غير أن جميعهم تقريبًا راعتهم ذروته الدموية. حوكم زعماء النظام القديم، وحكم على ١٤ منهم بالإعدام الذي نُفذ في ثلاثة، وبينهم مندريس الذي حاول الانتحار في زنزانته في السجن، لكنه أُنعش ليُشنق في اليوم التالي.

أضحت الانقلابات العسكرية سمة مؤسفة من سمات الحياة التركية. بيد أن بعضًا من الأتراك نظر إلى كل من هذه الانقلابات – وقع انقلاب ثان عام ١٩٧١ وثالث عام ١٩٨٠، إضافة إلى «انقلاب ما بعد الحداثة» الذي نُفّذ من خلال إنذار نهائي عام ١٩٩٦ – بصفة كونه مهمّة إنقاذية. فقد جاء كل منها في وقت بدت البلاد تنزلق صوب هاوية عدم الاستقرار. وعنت الانقلابات العسكرية في سوريا والعراق ومصر وليبيا القضاء على النظام بالكامل، وفرض أمر جديد في شكل جذري؛ أما في تركيا فانسحب العسكر من السلطة بعد وقت قصير على الاستيلاء عليها، ولم تُعِد الانقلابات صياغة المجتمع على هذا القدر الكبير من العمق.

تميّز التقدّم صوب الديمقراطية في تركيا، خلال الستينيات والسبعينيات، بعدم الانتظام لكنه كان ملموسًا. وقد سيطر على الأحزاب السياسية زعماء يذعنون للسلطة العسكرية، سوى أن المجتمع سار في شكل ثابت على طريق الانفتاح. انهمرت الأفكار الجديدة على البلاد، وبالأخص من خلال مئات آلاف «العمّال الضيوف» في أوروبا الغربية. واكتسبت الاتحادات العمالية قوة. وفي الحُرُم الجامعية باتت المجموعات اليسارية والمناهضة للأمبريالية، وفي اضطراد، أكثر نضالية.

لم تنجح تركيا، على رغم هذا كلّه، في ترك انطباع لدى العالم الأجنبي. فلم

(١) Zürcher, *Turkey*, pp. 253– 56; Ahmad, *Making of Modern Turkey*, pp. 120– 27; Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, pp. 262– 65.

تشجّع الاستثمار الخارجي، وصدّرت القليل، وافتقرت إلى سياسة خارجية مستقلّة. وبقيت، بعد نصف قرن على بروزها دولةً، غير واثقة وغير راغبة في تأكيد نفسها.

هوى العالم على تركيا، على رغم أنها لم تحاول، في تلك الحقبة، صياغة العالم. وأصبح بعض الأتراك، وبخاصة الطلاب والمثقفين اليساريين، مناهضين غريزيًّا لأميركا، ويعود ذلك في جزء منه إلى الغضب من الحرب التي تقودها الولايات المتحدة في فيتنام، ولكن أيضًا إلى أسباب أقرب إلى الديار. فقد أقام، بحلول أوائل الستينات، أكثر من خمسة وعشرين ألف جندي أميركي ومن يرتبط بهم في المدن والبلدات التركية. وأصبح نادي المجنّدين الصاخب في وسط أنقرة يرمز إلى وجودهم المتطفّل. وأخذ بعض الأتراك يعدونهم محتلّين، واستهدفوهم. اختطف عدد منهم، ورميت القنابل على المكاتب الأميركية.

ازدادت المشاعر المناهضة لأميركا حدّة، بعد اندلاع العنف الطائفي في قبرص حيث حاولت الحكومة التي تسيطر عليها اليونان إلغاء البنود التي تحمي الأقلية التركية. وأواخر العام ١٩٦٣، شنّ مقاتلو حرب العصابات الذين أرادوا جعل قبرص جزءًا من اليونان، موجة من الهجمات على القبارصة الأتراك. أوشكت تركيا إرسال جنود لحمايتهم، غير أن رسالة مذهلة بصراحتها من الرئيس ليندون جونسون شكّلت أحد الأسباب التي ردعتها عن ذلك. خشي جونسون إمكان نشوب حرب بين تركيا واليونان، بل وحتى احتمالات تورّط الاتحاد السوفياتي، فأصرّ على ألا يتخذ الأتراك خطوة «محفوفة بمثل هذه النتيجة البعيدة المدى». ثم أضاف، في ما عدّه الأتراك بمثابة إهانة تهديدية كبرى، أن الدول الأعضاء في الناتو «لم يتسنّ» لها «النظر في هل يفترض بنا حماية تركيا من الاتحاد السوفياتي إذا عمدت إلى اتخاذ خطوة ينتج عنها مثل هذا التدخّل؟». أصيب بعض الأتراك بالخيبة، وانتاب غالبيتهم الغضب الشديد[1].

(١) Ahmad, *Making of Modern Turkey*, p. 225; Parker T. Hart, *Two NATO Allies at the Threshold of War: Cyprus: A Firsthand Account of Crisis Management, 1965– 1968* (Durham, N.C.: Duke University Press, 1990), pp. 163– 66; Mango, *Turks Today*, pp. 60– 61.

استقبلت الجماهير الغاضبة حاملة الطائرات الأميركية «فورستال» لدى زيارتها اسطنبول عام ١٩٦٩. ورفعت النساء لافتات كُتب عليها «اسطنبول ليست ماخورًا للأسطول السادس». ويتناقض ذلك جدًّا مع العام ١٩٤٦ حين سعد الأتراك كثيرًا برؤية البارجة «ميسوري» التي، وبحسب مجلة «تايم»، «وجد بحارتها صعوبة في الدفع لشراء أي شيء، بما في ذلك المومسات»[١].

وما إن أصبح اليساريون في تركيا أكثر عنفًا حتى لحقهم نظراؤهم في أقصى اليمين. وسطا المناضلون على المصارف لجمع المال. وشلّت الإضرابات الاقتصاد. واغتيل سياسيون وأساتذة جامعات. وفي الثاني عشر من آذار/مارس ١٩٧١، فعلها الجيش من جديد، بعد أحد عشر عامًا على تدخّله لإطاحة الحكومة المدنية[٢].

أعاد ذلك الهدوء إلى تركيا، مدة، لكنها ما لبثت ان اجتاحتها، أواخر السبعينيات، موجة أخرى من العنف السياسي أسوأ بكثير من تلك التي اجتاحتها خلال الستينيات.

تميّز الاستقطاب اليساري - اليميني في السبعينات بحدّة خاصة في تركيا. انتشى اليساريون بوعود الثورة. وشعر اليمينيون أن لهم ما يبررهم في استخدام كل أنواع العنف دفاعًا عن الدولة. وافتُرض بالأحزاب السياسية أن تشكّل قناة تنقل هذه الأهواء، ولكن ثبت أنها عاجزة عن ذلك أو غير راغبة في القيام به. بل إن البعض منها سوّق للعنف. وهكذا فعل الأجانب. ولا يزال الكثير من أصول العنف الذي هزّ تركيا أواخر السبعينات غامضًا، لكن ثمة مؤرخين يعتقدون أن أجهزة الاستخبارات الأميركية والسوفياتية التي عدَّت تركيا ساحة معركة غذّت كل منها الفئة التي تحبّذها بالتشجيع والمشورة والمساعدة.

قضى أكثر من مئتي تركي في العنف السياسي عام ١٩٧٧، وبحلول العام ١٩٧٩ فاق عدد الإصابات ذلك بخمسة أضعاف. أصبح إطلاق النار وتفجير القنابل

(١) *Time*, March 1, 1971.

(٢) Ahmad, *Making of Modern Turkey*, pp. 144– 47; Mango, Turks Today, pp. 76– 80.

وعمليات السطو والخطف خبزًا يوميًا. وهوت تركيا في حرب أهلية متدنية المستوى. وشرع الضباط في التفكير في القيام بانقلاب آخر، ولكن وصلت من إيران أنباء مذهلة لا تُصدّق.

شكّلت أطلال برسبوليس، العاصمة الأمبراطورية الرائعة إلى أن استباحها الإسكندر عام ٣٣٠ ق.م.، خلفية واحدة من أكثر عمليات الإسراف إذهالاً في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. انضم خمسمئة ضيف من تسع وستين دولة إلى عملية الفحش هذه، وباتوا في خيام صفر وزرق نُصبت بين الأعمدة التي شيّدها داريوس وأحشويروش، وبينهم الأمبراطور هيلا سيلاسي والمارشال تيتو وأمير موناكو وأميرتها رينييه وغريس، وملك الأردن حسين، ونائب الرئيس (الأميركي) سبيرو أغنيو، وملوك اليونان والدنمارك والنروج، وولي عهد السويد، وابنة فرديناند وإيملدا ماركوس البالغة خمس عشرة سنة والتي زيّنت جبهتها بقلادة من الألماس. وباستثناء الكافيار، جيء بكل الطعام من باريس جوًّا وأبرزه الحجل وكبد الإوز وحشوة الكمأ، وتولى تحضيره كبار الطباخين في مطعم مكسيم. ووفّر التسلية ألف وثمانمئة مؤدٍّ يرتدون لباس الفرس القدامى إلى جانب مئات الجمال والأحصنة وجواميس الماء.

وطّد محمد رضا شاه، الرجل الذي دار الكرنفال من حوله، ديكتاتوريته القويّة وأصبح زعيمًا عالميًّا كبيرًا. كلّف إنجازه عام ١٩٧١ في برسبوليس مئة مليون دولار، وعدّه «العرض الأعظم الذي لم يسبق للعالم أن شاهد مثله»، وقد صُمم احتفالاً بمرور ألفين وخمسمئة سنة على الأمبراطورية الفارسية. كذلك شكّل مناسبة لابن فتى الإسطبل هذا كي يقنع نفسه والعالم بأنه ليس عظيمًا وحسب، بل وأعظم من أي ملك جاء إلى الوجود[١].

---

(١) "All the Grandeur of an Evening: The Persepolis Celebrations," accessible at http://www.angelfire.com/empire/imperialiran/persepolis3.html; Michael Axworthy, *A History of Iran: Empire of the Mind* (New York: Basic Books, 2008), p. 251; Bill, *Eagle and the Lion,* pp. 183–85; New York Times, October 12, 15, 19, 1971.

"إنه مصابٌ خطرٌ جدًّا بجنون العظمة لأنه يجمع أسوأ القديم مع أسوأ الجديد». هكذا كتبت الصحافية الإيطالية أوريانا فالاتشي بعد إجراء مقابلة معه. «وهو مقتنع جدًّا، بفعل رؤاه الجنونية، بأنه انبعاث لداريوس ولأحشويرش، وقد أرسله الله إلى الأرض لإعادة بناء أمبراطوريتهما الضائعة»(١).

مرّت ثماني عشرة سنة على إعادة الـ«سي.آي.إي.» محمد رضا شاه إلى عرش الطاووس. واجتهد، في تلك المرحلة، في سحق الديمقراطية الإيرانية. وأنشأ، بمساعدة من الـ«سي.آي.إي.» ومن الموساد الإسرائيلي، جهاز الأمن الداخلي، السافاك، الذي أصبح واحدًا من أكثر الأجهزة إثارة للرعب في العالم. ووالى في السياسة الخارجية الغرب دائمًا، والتزم إدخال إيران في تحالفين أمنيين صممتهما أميركا، هما حلف بغداد وخليفته منظمة الحلف المركزي. أما في الداخل فحكم من خلال الترهيب والفساد(٢).

قال واحد من آخر النواب المستقلّين لأحد الدبلوماسيين البريطانيين عام ١٩٥٩: «إن النظام القائم الذي تُطبخ بموجبه الانتخابات ويُجبر السياسيون فيه على الانخراط في أحزاب وهمية، هو أسوأ من الزيف؛ فقد أفسد كل الحياة النموذجية العامة وحطّ من قدرها وعبّأ باليأس الأسود كل إيراني يمتلك أي اهتمام بالتطوّر الصحي لبلده»(٣).

منحت إدارة أيزنهاور مساعدات لمحمد رضا شاه بأكثر من مليار دولار. غير أن الرئيس كنيدي كان أقل عشقًا، ودفع تحفّظه الشاه إلى الشروع في غزل ظاهري مع السوفيات؛ وكان ليونيد بريجنيف في طهران يوم اغتيال كنيدي عام ١٩٦٣. وعاد

(١) Oriana Fallaci, *Interview with History* (Boston: Houghton Mifflin, 1976), p. 264.

(٢) Azimi, *Iran*, pp. 174- 77, 190- 209, 235- 36, 250- 57, 303- 18; Bill, *Eagle and the Lion*, pp. 98- 99, 186- 92, 210- 11, 402- 3; Cottam, *Nationalism in Iran,* pp. 325- 27; Hamid Dabashi, *Iran: A People Interrupted* (New York: The New Press, 2007), pp. 106- 10; William H. Forbis, *Fall of the Peacock Throne: The Story of Iran* (New York: McGraw- Hill, 1981), pp. 132- 38.

(٣) Azimi, *Iran*, p. 163.

الدفء من جديد إلى العلاقات في عهد الرئيس جونسون الذي وجد في الشاه مخاتلًا سياسيًّا مثله، إضافة إلى أنه حصن في مواجهة الشيوعية. وأُعجب جونسون بـ«الثورة البيضاء» وهي سلسلة من الإصلاحات التحديثية أمر بها الشاه عام ١٩٦٣، وتضم إجراءات لتعميم التعليم في الريف وحقوق المرأة والإصلاحات الزراعية ومحو الأمية. عُرضت هذه الإصلاحات على الاستفتاء العام. ولمّا أعلنت الحكومة أن ٩٩/٩ في المئة صوتوا لمصلحتها، اندفع عشرات الآلاف من المتظاهرين الغاضبين إلى الشوارع. وقتلت الشرطة المئات منهم(١).

ارتبطت الولايات المتحدة مع إيران، على غرار غيرها من البلدان التي لها فيها قواعد، باتفاق «وضع القوات» الذي يحدد حقوق جنودها. وفرضت عام ١٩٦٤ اتفاقًا جديدًا يقضي بأن أي جندي أميركي، أو فردٍ من عائلته، يرتكب جريمة في إيران مُحصّن ضد الملاحقة المحاكم الإيرانية. وانفجر الإيرانيون غضبًا، وهم الحسّاسون حيال الانتهاكات لسيادتهم. وأفاد أحد أساتذة برنستون، وكان موجودًا هناك، عن «ردّ فعل عام مرير وعنيف»(٢).

دخل آية الله روح الله الخميني هذه الدوامة، وهو رجل دين نحيل في الثانية والستين من العمر سريع البديهة وله عدد متواضع من المريدين في مدينة قم المقدسة. سبق أن سُجن مدة قصيرة لتنديده بـ«الثورة البيضاء،» ووجد، على غرار الكثيرين من الإيرانيين، أن اتفاق «وضع القوات» ليس إلا لسعة أخرى من سوط الاستعمار الذي يجلد إيران منذ أجيال. ونهض، بعد موافقة البرلمان على الاتفاق، أمام جمع من المؤمنين وندد به ووصف الشاه بالدمية الأميركية:

> أنزلوا الشعب الإيراني إلى مستوى أقل من كلب أميركي... فالشاه نفسه سيُلاحق إذا رَهَسَ كلبًا يمتلكه أميركي. لكن لو أن طبّاخًا أميركيًّا رهس الشاه، رئيس الدولة، فلن يمتلك أي [إيراني] الحق في توقيفه...

---

(١) Cottam, *Nationalism in Iran*, p. 121; Goode, *United States and Iran*, pp. 185– 87.

(٢) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 159.

> على الرئيس الأميركي أن يعرف أنه يمثّل اليوم أبغض شخص على وجه الأرض في نظر شعبنا... حصل المستشارون الأميركيون على الحصانة، وصاح بعض أعضاء البرلمان: «أطلبوا من أصدقائنا ألا يفعلوا بنا هذا. لا ترشونا. لا تستعمرونا». ولكن من يسمع؟[1]

قرر الشاه الاستعاضة عن توقيف الخميني على وقاحته أو تدبّر مقتله بطرده من إيران، اعتقادًا منه ربّما أنه لن يسمع أبدًا من جديد عن رجل الدين المثير للمشكلات هذا. بيد أن دبلوماسيًّا أميركيًّا كتب برقية متبصّرة مفادها أن الشاه، بنفيه الخميني، «منحه هالة جديدة من الشهادة ورفع على الأرجح من مرتبته... وهو، في حال عودته، سيجد بلا شك أتباعًا له أكثر حماسة من أولئك الذين كانوا له قبل منفاه»[2].

بدا ذلك الاحتمال بعيدًا أواخر الستينات وأوائل السبعينات. تدفّقت أموال النفط على البلاد وتحسّنت، في ثبات، حياة الكثيرين من الإيرانيين. انخفضت معدّلات التضخّم، وفُتحت أبواب فرص العمل، وغذّت عائدات النفط الاقتصاد المتنامي. ولم يحدث الكثير من الاحتجاج. تفشّى الفساد، مما سمح للشاه بشراء ذمم الكثيرين من المنتقدين المحتملين. واعتقد الكثيرون من الإيرانيين أن لا فائدة من الاحتجاج لأن من المؤكد أن الأميركيين سيهبون لنجدة الشاه من أي أزمة.

أعلن الاحتفال المبهرج عام ١٩٧١ في برسبوليس، من ضمن ما أعلن، دخول الشاه المسرح الدولي بصفة كونه لاعبًا كبيرًا. وتحقّق ذلك، أساسًا، من خلال شراء كمّيات ضخمة من الأسلحة المتطورة من الولايات المتحدة. ولم يختر ما تحتاج إليه إيران للدفاع عن نفسها، أو حتى ما يحتاج إليه لإظهار قوته، بل كل ما هو أجدد وأبهر. وأمر الرئيس نيكسون، في إظهار استثنائي للدعم، بأن يُسمح للشاه بالوصول إلى كل الأسلحة التقليدية الموجودة في الترسانة الأميركية. وما بين العامين ١٩٧٢ و١٩٧٧، باعت الولايات المتحدة من إيران أسلحة بقيمة مذهلة بلغت ١٦ مليار

---

(١) المصدر السابق، ص.١٥٩-١٦٠.

(٢) Azimi, *Iran*, p. 184.

دولار – بما في ذلك أنظمة معقّدة جدًّا لم يتمكن الإيرانيون قط من إتقانها أو من حسن صونها[١].

سيطر محمد رضا شاه على أكبر بحرية في الخليج الفارسي، وأكبر سلاح للجو في غرب آسيا، وخامس أكبر جيش في العالم. واحتوت ترسانته ألف دبابة وأربعمئة هليكوبتر وثلاثمئة طائرة مقاتلة وثلاث مدمّرات.

دفع ثمن ذلك كلّه بأموال النفط. وبموجب الاتفاق الذي فرضته الولايات المتحدة بعد انقلاب العام ١٩٥٣ احتفظ كونسورتيوم من الشركات الأميركية والبريطانية والفرنسية بنصف أرباح نفط إيران وأعطاها النصف الآخر. وجلب هذا التدبير نصف مليار دولار في السنة أواسط الستينات، وضعفي هذا المبلغ مع نهاية العقد. ورفعت الصدمة النفطية عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤ المدخول الإيراني إلى خمسة مليارات دولار. وأصبح في السنة التالية ١٨ مليارًا، ليصل في السنة التي أعقبتها إلى ٢٠ مليارًا[٢].

أمضى محمد رضا شاه السبعينات وهو يتهاوى، في سقوط يصيب بالدوار صوب جنون العظمة. وغذّت أنظمة السلاح الأميركية أوهامه اللاعقلانية المتزايدة. وأدى ذلك إلى معاناة باقي النواحي الاقتصادية.

يستذكر هنري برشت، الدبلوماسي الأميركي الذي خدم في طهران في السبعينات، وأصبح لاحقًا مسؤولًا عن مكتب إيران في وزارة الخارجية أن «بعض ما اشتراه منّا فاق حاجاته بكثير... وأدت الهيبة وولعه بالمعدات العسكرية الدور الكبير في ذلك. غابت عن اتخاذ القرار أي عملية عقلانية. وهكذا هو الأمر في الجانب المدني الذي شهد إهدارًا هائلًا وفسادًا. وكانت حمولات سفن من الحبوب تصل من دون وجود شاحنات لتفريغها، فيعمدون وحسب إلى تكويم تلال الحبوب ويضرمون فيها النار»[٣].

(١) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 202.

(٢) Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (New York: Cambridge University Press, 2008), pp. 123–25.

(٣) Kinzer, "Inside Iran's Fury."

اعتمدت الولايات المتحدة جدًّا على إيران. وعدَّ وزير الخارجية هنري كيسنجر الشاه «من أندر الزعماء، والحليف المطلق». ورأى، وغيره من القادة المسؤولين الأميركيين، فيه حصنًا في وجه كل من الاتحاد السوفياتي وموجة القومية العربية الصاعدة – «رجل الشرطة الإقليمي» الحاضر دائمًا لتنفيذ رغبات واشنطن. شعر الأميركيون في البداية بالقلق من أن يؤدي امتصاص الشاه هذا الكم الكبير من المال من الولايات المتحدة عبر صادراته النفطية إلى هز استقرار الاقتصاد الأميركي. وما لبث هذا القلق أن تبخّر ما إن وافق على إعادة هذا المال إلى الأميركيين كمدفوعات للأسلحة. وسمح هذا التدبير للشاه بالمضي في طموحه، ووفّر للولايات المتحدة في الشرق الأوسط شريكًا مخلصًا، وعاد بالأرباح الكبرى على صانعي الأسلحة الأميركيين. ومع حلول أواسط السبعينيات، امتلك العشرات منهم، بما في ذلك شركات غرامان أيروسبيس، ولوكهيد، وبل هيليكوبتر، ونورثروب، ورايثيون، مكاتب كبرى وناشطة في إيران.

وكما أثار الجنود الأميركيون الجلفون المتمركزون في تركيا غضب الكثيرين من الأتراك، أشعل عشرات الآلاف من المدنيين الأميركيين الذي تدفّقوا على إيران غضب الكثيرين من الإيرانيين. فقد تلقوا أجورًا فاحشة وكانوا في الغالب متعجرفين في شكل مذهل، وتصرّفوا كما لو أنهم المحتلّون في مركز أمامي متخلّف من العالم الثالث بدلًا من أن يكونوا ضيوفًا على أمة أقدم من أمتهم بعشرات المرّات. وبات الإيرانيون بالنسبة إليهم «واضعي الكوفيّات»، «و«عبيد الرمال»، و«النتنين».

وبحسب إحدى الروايات «احتاجت الشركات الحاصلة على عقود بمليارات الدولارات إلى قوة عاملة، وقامت، بضغط من عامل الوقت، بالتوظيف الأعمى والعشوائي... واجتمع الحقد والعرقية والجهل مع تفاعل الموظفين الأميركيين سلبًا وعدوانيّة مع المجتمع الإيراني»[1].

(١) Bill, *Eagle and the Lion,* pp. 209, 381.

صوّر الشاه نفسه مصلحًا مُحدثًا. وبني في عهده الكثير من المصانع، ووُسعت الطرق الرئيسة والسكة الحديد، وارتفع عدد المدارس في إيران إلى ثلاثة أضعاف. بيد أن التوترات أخذت في التجمّع في محاذاة الوجه الظاهري للحياة الوطنية. فأثرى بعض الناس في شكل ظاهر فيما سقط الكثيرون غيرهم في أحضان الفقر. ولما أثبت الشاه عجزه عن الارتقاء إلى مستوى التوقّعات، ازداد الاستياء من حكمه الاستبدادي.

أضحى الشاه، بوقوف الولايات المتحدة، في ثبات، خلفه، ديكتاتورًا مطلقًا؛ ويرى بعض التقديرات أن ما من زعيم عالمي آخر، غير فيدل كاسترو، تمتع بمثل هذه السلطة الشخصية على بلاده. ولم يسمح إلا للمتملقين الأذلاء بتولي المناصب الحكومية وطلب منهم إظهار ولائهم بتقبيل يده وهم يقتربون منه. ارتدى، في المناسبات الاحتفالية، ثيابًا أشبه بإحدى شخصيات «مارك وسوليفان»، بزّات مزدانة بالشارات والأوشحة والكتفيّات المخيطة بخيوط الذهب، وبالميداليات العملاقة المطعّمة بالجواهر. وأصدر عام ١٩٧٥ قرارًا يُلزم كل إيراني الانضمام إلى حزبه السياسي على أن يُعامل كل من يرفض كأنه خائن[١].

حاول أعضاء كثر في الكونغرس الحد من مبيعات الأسلحة الأميركية من الشاه، ولم يفلحوا. وأثار غيرهم أسئلة عن حقوق الإنسان. فأُبلغوا أن المشكلة تثير القلق بالفعل، غير أن الشاه، على ما قاله أحد المسؤولين الأميركيين عام ١٩٧٧ للكونغرس، أحدث «تغييرات مهمّة» وثمة «اتجاه يثلج الصدر» على طريق احترام الاختلاف[٢].

بيد أن دراسة أميركية لإيران في تلك الحقبة وصفت القمع بأنه «بسيط ووحشي».

وجاء فيها: «حظرت كل المنظمات المعارضة... ثم إن القوى الأمنية زوّرت الانتخابات... اخترق السافاك، في قوة، التنظيمات الجماهيرية مثل النقابات العمالية والمجموعات الطالبية وتعرّض قادتها للمضايقات المنهجية. كذلك تعرّض مثقفون

(١) المصدر السابق، ص. ١٩٦.

(٢) Alexander and Nanes, *United States and Iran*, pp. 452– 53.

بارزون وفنانون ورجال دين انتقدوا النظام إلى المضايقات وكثيرًا ما تم توقيفهم. الرقابة متشدّدة جدًّا... وأعدم ما لا يقل عن ثلاثمئة إيراني ما بين أوائل ١٩٧٢ وأواخر ١٩٧٦ بعد الأحكام التي صدرت عليهم عن المحاكم العسكرية المخصصة في شكل عام للسجناء السياسيين. وقُتل عدد أكبر بكثير من الإيرانيين في عمليات تبادل لإطلاق النار مع القوى الأمنية، ممن «أطلقت عليهم النار وهم يحاولون الفرار»، أو اختفوا وحسب... وأعلنت منظمة العفو الدولية عام ١٩٧٥ أن «ليس لأي دولة في العالم سجل من انتهاكات حقوق الإنسان أسوأ من السجل الإيراني»[١].

أصبح من المحتّم، فيما أخذ النظام يزداد قمعًا والولايات المتحدة تدعمه، في حرارة أكبر، أن يصبّ بعض المناضلين الإيرانيين جام غضبهم على الأميركيين. فانفجرت القنابل في السفارة الأميركية، وفي مقر «فيلق السلام» وغيرهما من رموز القوة الأميركية. واغتيل عدد من الضباط العسكريين الأميركيين والمقاولين المدنيين. وقلّلت واشنطن أهمية هذه الهجمات بصفة كونها من عمل إرهابيين منعزلين. سوى أنها شكّلت، في الواقع، مؤشرات إلى أن البلاد آخذة في التفسّخ، وأنها ما إن تتفسّخ حتى ينتقم الإيرانيون من الولايات المتحدة.

صحيح أن الشاه حظر المجموعات المعارضة العلمانية، سوى أنه خاف من رجال الدين وتركهم وشأنهم. وأضحت الجوامع، نتيجة لذلك، الأمكنة الوحيدة التي يمكن الإيرانيين الاجتماع فيها للتحدّث في الأمور المحظورة. واجتذبت الوطنيين وغيرهم من المتآمرين المناهضين للشاه. وأصبح الملاّت مرشدين لهم. وأخذت الحركة الانشقاقية تأخذ رويدًا رويدًا صبغة دينية. وهو ما سيصوغ في شكل حاسم مسار التمرّد الآتي.

اتخذ الرئيس جيمي كارتر، الذي تولّى السلطة مطلع العام ١٩٧٧، مقاربة غريبة

(١) Mark J. Gasiorowski, *U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991), pp. 156– 57.

ومتناقضة حيال إيران. وتعرّج بين امتداح حكم الشاه وانتقاد قمعه. ولمّا رفع إليه الشاه لائحة بما يرغب فيه من مشتريات تصل قيمتها إلى مليارات عدة من الدولارات، بما في ذلك طائرات أواكس المتطوّرة للمراقبة الجوية، أقرّها. بدا أنه أدرك أن الشاه رجل سيّئ، لكنه اعتقد بإمكان تخليصه وتحويله رجلًا صالحًا.

حاول الشاه، الذي تعوّد استضافة الرؤساء الأميركيين، أن يسترضي كارتر بالتخفيف من القيود على حرية التعبير. وبرزت، على الفور، عشرات المجموعات المدنية والسياسية، وكلها مناوئة للشاه. وغرقت البلاد أواسط العام ١٩٧٧ في الاحتجاج. وأخذ الناس الذين تعودوا العيش في الخوف ينطلقون عبر الشوارع صائحين «على الشاه أن يرحل»[١]!

وفيما إيران تحترق، أجرى كارتر والشاه لقاءين غريبين. عقد الأول في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧ في واشنطن. وفيما شرع الرئيسان في تبادل المجاملات، اشتبك ألوف المتظاهرين الغاضبين، ومعظمهم من المهاجرين الإيرانيين، مع الشرطة في الجوار. واندفعت سحب الغاز المسيل للدموع في اتجاه كبار الشخصيات. ولم يمضِ وقت طويل حتى أخذ الرئيس والشاه وزوجتاهما في فرك أعينهم. وأُجبروا على وقف المزاح والانسحاب إلى الداخل[٢].

لاحظت الأمبراطورة أن المتظاهرين يرفعون لافتات تحمل صورة وجه رجل دين ملتح «لم تعنِ نظرته المتحدّية لي شيئًا». وسألت مساعديها لاحقًا عمّن يكون، فأخبروها أنه رجل دين منفي اسمه الخميني[٣].

بعد ذلك بستة أسابيع، في اليوم الأخير من العام ١٩٧٧، أقام الشاه حفلة سهرة رأس السنة لكارتر في طهران. وخرج كارتر وكلّه ثناء على مضيفه.

(١) Abrahamian, *History of Modern Iran*, p. 181; Keddie, *Modern Iran*, p. 226.

(٢) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 232; Dabashi, Iran, p. 156.

(٣) Patrick Tyler, *A World of Trouble: The White House and the Middle East— From the Cold War to the War on Terror* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009), p. 213.

وهذر بالآتي: «تشكّل إيران، في ظل القيادة العظيمة للشاه، جزيرة من الاستقرار في واحدة من أكثر المناطق اضطرابًا في العالم». وأضاف: «هذه تزكية كبرى لك، يا صاحب الجلالة، ولزعامتك، وللاحترام والإعجاب والمحبة التي يكنّها لك شعبك»[١].

يمكن كارتر أن يدعي بما هو معقول لجهله الأوضاع في إيران. فقد توقّفت محطة الـ«سي. آي. إي.» هناك منذ وقت طويل عن العمل، في استقلالية. فقد رغب محمد رضا شاه في أن تتلقى المعلومات الاستخبارية منه وحده وفي عدم رعاية مصادر أخرى؛ والمدهش في الأمر أنها وافقت. وعام ١٩٧٧ اعتمدت وزارة الخارجية الأميركية جزئيًا تحليلًا للـ«سي. آي. إي.» لتصدر ورقة ترجّح فيها استمرار الاستقرار في إيران بقيادة الشاه... «فالشاه يحكم إيران من دون أن يواجه أي تهديد داخلي جدّي»[٢].

لكن إيران اشتعلت مع بداية العام ١٩٧٨. انتشرت الاحتجاجات في أنحاء البلاد. وقُمع الكثير منها في وحشية لم تؤدِّ إلا إلى تأجيج الغضب الشعبي. وقتل رجال الشرطة والجنود، خلال السّنة، مئات «التماسيح»، الاسم الذي اطلقه النظام على المتظاهرين. وشكّلت تلك عملية القمع الأكثر دمويّة في تاريخ إيران الحديث.

وكتب الباحث جايمس بيل: «عشت طوال أسبوعين، في تشرين الثاني/نوفمبر- كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨ وسط التماسيح المزعومين جنوب شرقي طهران... فهنا أطلقت جماهير الإيرانيين الشعارات ضد الشاه وهي متجمهرة في الطوابير للحصول على حصتها من الكاز واللحم المقنّن. بصق سائقو سيّارات الأجرة على جنود الشاه، ومشّط الطلاب المدينة بحثًا عن صور الزوجين الملكيين لتمزيقها وتشويهها. انتصبت

(١) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 233.

(٢) Richard W. Cottam, *Iran and the United States: A Cold War Case Study* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1988), p. 172.

الفنادق الفخمة ودور السينما ومحال بيع الخمور صامتة كالظلام محطّمة النوافذ، كأنها هياكل مقصوفة مهجورة. العداء لأميركا حاد، وسادت أرصفة الطرق المكتظة والأسواق والشوارع مشاعر جامحة وقويّة. هذا هو القلب النابض للثورة»(١).

ترنّح الشاه كالمسعور، وهو عاجز عن إدراك ما يحدث(٢). بدا في بعض الأيام أنه يعتقد بإمكان سحق التمرّد بالقمع الذي لا يرحم؛ وحاول، في أخرى، القيام بمبادرات استرضائية. أرسل الشرطة لمهاجمة الطلاب في جامعة طهران، ثم اعتذر وأطلق آلاف السجناء وطرد قائد السافاك. ووجه، بعد ذلك، نداء عاطفيًا غير متماسك عبر التلفزيون الوطني.

قال لشعبه: «أتعهد ألّا تتكرر أخطاء الماضي والفوضى والظلم والفساد وحسب، بل وسيتم تصحيحها في كل مجال... سأشرع، ما إن تتم إعادة إحلال النظام والهدوء، في تأليف حكومة وطنية وتحقيق الحرّيات الأساسية... أضمن لكم أن حكومة إيران، سترتكز في المستقبل إلى الدستور والعدالة الاجتماعية وإرادة الشعب»(٣).

لفّت زوبعة ثورية إيران. وشرعت جماعات من الإيرانيين في السير عبر كل مدينة من المدن الرئيسة، وفي الصياح: «الموت للشاه الأميركي!»(٤) ومع ذلك استمر المحلّلون في واشنطن في الإفادة أن كل شيء على ما يرام. وتوقّعت وكالة استخبارات الدفاع في ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٨ أن الشاه «سيبقى في شكل فاعل في السلطة في السنوات العشر المقبلة»(٥). وأجاب الرئيس كارتر، في ١٢ كانون الأول/ديسمبر، ردًّا على سؤال لأحد المراسلين في شأن الأزمة، وقال «أتوقّع تمام التوقّع

(١) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 241.

(٢) Cottam, *Iran and the United States*, pp. 155– 88; Gasiorowski, U.S. *Foreign Policy and the Shah*, pp. 209– 22.

(٣) Azimi, *Iran*, pp. 212– 13.

(٤) Bill, *Eagle and the Lion*, p. 97.

(٥) المصدر نفسه، ص. ٢٥٨.

أن يستمر الشاه ممسكًا بالسلطة في إيران... فتوقّعات الهلاك والكارثة الصادرة عن بعض المصادر لم تتحقّق قط بالتأكيد»[١].

نادرًا ما ظهر زعماء أميركيون بهذا القدر من السرعة أنهم مخطئون في شكل كارثي.

وحدث في السادس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٧٩ ما لم يخطر على بال. هرب محمّد رضا شاه، نور الآريين وقائد جميع المحاربين، من طهران في طائرة بوينغ ٧٠٧ فضيّة وزرقاء. وأخذ معه عائلته وما أمكن نقله من ثروته وجثمان والده الذي شاء حمايته من أي انتهاك. شكّلت تلك نهاية شاقة لسلالة البهلوي.

بعد ذلك بأسبوعين، طار آية الله الخميني من باريس إلى طهران في طائرة مُستأجرة من الخطوط الجوية الفرنسية. وأطلق وصوله ما عُدَّ «إحدى أكثر التظاهرات صخبًا في التاريخ البشري»... ووقعت إيران في دوّامة عنيفة من الثورة أكثر تدميرًا مما أمكن أحدًا تخيُّله.

ليست جريمة محمّد رضا شاه دعمه وحسب انقلاب الـ«سي. آي. إي.» الذي أنهى الديمقراطية عام ١٩٥٣، بل أيضًا رفضه مواصلة مشروع ديمقراطي خاص به. ولم تخرج الإصلاحات التي افتخر بها افتخارًا شديدًا عن أكثر من نزوة شخصية. وقد فرضها بمراسيم أو قوانين في البرلمان الذي أفسده واستخدمه كالدمية. وفي النهاية، لم ينظر الإيرانيون إليه بصفة كونه إصلاحيًا بل بصفة كونه ظالمًا.

كتب المؤرخ الأميركي ـ الإيراني يرواند أبراهاميان أن «الثورة لم تنفجر بسبب خطأ الدقيقة الأخيرة السياسي هذا أو ذاك. بل انفجرت كالبركان بفعل الضغوط الساحقة التي تراكمت على مر العقود في أحشاء المجتمع الإيراني»[٢].

أصبح التمرّد يُعرف باسم الثورة الإسلامية، غير أن هذا الاسم مُضَلِّل. فقد تشكّلت

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥٩.

(٢) Abrahamian, *History of Modern Iran*, p. 155.

حركة ذات قاعدة واسعة من رجال الدين، ولكن أيضًا من أصحاب المحال التجارية والفلاحين والمثقفين والطلاب وغيرهم ممن لم يرغبوا في إنشاء نظام ديني. وأدرك آية الله الخميني ذلك وهو الذي أصبح «القائد الأعلى» للحكومة الجديدة. وعمد، بدلًا من فرض الحكم الديني على الفور، إلى تسمية حكومة يقودها وطنيون عمل الكثيرون منهم مع مصدّق أو هم من المعجبين به. وقد استمرّت أقل من سنة. ففي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، احتل مناضلون السفارة الأميركية في طهران واحتجزوا عشرات الدبلوماسيين الأميركيين رهائن. وناشد وزراء في الحكومة آية الله الخميني إصدار أمر بخروجهم. لكنه رفض، فاستقالوا. ومع مطلع العام ١٩٨٠، أضحت إيران تحت نظام حكم إسلامي راديكالي يكره كل ما كان عزيزًا على قلب الشاه.

ما السبب الذي أدى إلى خروج الملاّت رابحين في القتال على إيران ما بعد الثورة؟ لقد امتلكوا، أساسًا، دعم الإيرانيين العاديين الواسع والعميق؛ وفي المقابل، ضمُرت الأحزاب السياسية الليبرالية خلال حكم الشاه القمعي وفقدت اتصالها بالجماهير. كذلك أدى الدين، ثانيًا، دورًا في المجتمع الإيراني، أكثر عمقًا مما أدركه الشاه، وازداد تنامي سلطة الملاّت المعنوية مع ازدياد فساد النظام. وكان الملاّت، ثالثًا، أكثر استعدادًا من أي فريق آخر لاستخدام العنف ضد أخصامهم. فقد استرسلوا في القمع والسجن والقتل. وأدى بهم ذلك في مآل الأمر إلى السيطرة على نظام أَمَل الإيرانيون في أن يقودهم في طريق العودة إلى الديمقراطية التي فقدوها عام ١٩٥٣.

عَدَّت كلتا القوتين العظميين الثورة الإسلامية خسارة استراتيجية كاسحة. وشهد الأميركيون على إحلال زعيم مناهض غريزيًّا لهم خافوا أن يفتح الطريق أمام اندفاعة سوفياتية صوب حقول النفط في الخليج، محل زعيم موال لهم بالفطرة. وخشي السوفيات، من جانبهم، أن يعمل الأصوليون الإيرانيون على إثارة الانتفاضات في أنحاء آسيا الوسطى، بما في ذلك الجمهوريات المسلمة التي تشكّل جزءًا من الاتحاد السوفياتي نفسه. وصمّموا على منع ذلك من الحدوث، فدفعوا، آخر العام ١٩٧٩،

الجيش الأحمر إلى اجتياح أفغانستان واحتلالها.

راقب الأتراك هذه الانتفاضة على طول حدودهم الشرقية، وأصيبوا بالرعب. فتركيا عاشت أزمتها الخاصة عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠ بحكومة ضعيفة عاجزة عن وقف موجات الإرهاب القاتل من اليمين ومن اليسار. ودفع البروز غير المتوقّع للنظام الراديكالي الديني في إيران بعض الأتراك إلى التخوف من امتداد ناره إلى تركيّا، فيحاول المتعصّبون القضاء على الدولة الكمالية ومعها العلمانية والديمقراطية.

أخذت تركيا تنزلق في اتجاه الفوضى. حدث نقص في المواد الغذائية. وأخذ العنف السياسي يتسبب بمقتل عشرة أشخاص في اليوم. وأعلنت منطقة على ساحل البحر الأسود انفصالها عن الجمهورية التركية[١].

انتظر قادة الجيش إلى أن بدا لهم أن كل من في البلاد تقريبًا مستعد لدعم الانقلاب. وأخيرًا، ضربوا ضربتهم، الرابعة فجر الثاني عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٨٠. وقال الجنرالات إنهم استولوا على السلطة لوضع حد لـ«حال الفوضى»، ولسحق «الأيديولوجيات الرجعية والتخريبية الأخرى»، وللقضاء على الحرّيات «القصوى» التي سمحت لها بالازدهار[٢].

انفصل كل من تركيا وإيران، في حدّة، عام ١٩٨٠ عن ماضيهما. وملأ ذلك بعض الناس بالإثارة التوقّعية، فيما لم يشعر الآخرون إلا بالرهبة.

(١) Hugh Pope and Nicole Pope, *Turkey Unveiled: Ataturk and After* (London: John Murray, 1997), p. 139.

(٢) المصدر نفسه، ص. ١٤٣؛ Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic*, p. 280.

٥

المفسدون في الأرض

قبع بروس لاينغن، كبير الدبلوماسيين الأميركيين في إيران، في زنزانة حجرية مظلمة في اليوم الأربعمئة والثلاثين من أسره، عندما فُتح الباب فجأة ودخل إليه أحد سجّانيه. همّ بالكلام، غير أن لاينغن، الذي يغلي من الغضب المتراكم من أشهر الأسر، انفجر فيه.

صاح: «أنتم تمسكون بأناس رهائن من دون أي نوع من الاحترام. وهذا مناف تمامًا لأي مفهوم للياقة، ومناف خصوصًا لتقليد الضيافة الإيراني. وهذا خطأ، خطأ، خطأ تام بكل المقاييس - خاطئ سياسيًّا، وخاطئ أخلاقيًّا، وخاطئ تاريخيًّا، وخاطئ على الأساس المحض لحقوق الإنسان. إنه لا أخلاقي ولا شرعي!»

واستمر لاينغن في التذمّر حتى انقطع نفسه. ولمّا انتهى حدّق به سجّانه بضع هنيهات، ليجيبه من دون تعاطف: «ليس لديك ما تشكو منه. فقد أخذتم بلادنا كلّها رهينة عام ١٩٥٣»[١].

بدأت إيران انزلاقها نحو الديكتاتورية بعدما أطاحت الولايات المتحدة الحكومة

(١) مقابلة أجراها المؤلّف مع بروس لاينغن في ٢٠٠٩.

الأكثر ديمقراطية التي حظيت بها، على الإطلاق. فالانقلاب على محمّد مصدّق عام ١٩٥٣ شكّل واحدًا من أحداث القرن العشرين الأكثر مغزًى، ومع ذلك فإن قلّة من تأريخات القرن المنشورة باللغة الإنكليزية تكرّس لها ما هو أكثر من سطر أو سطرين. فطوال ٢٥ عامًا تقريبًا من حكم محمد رضا شاه، ومع تحوّل الديكتاتورية الملكية إلى المزيد من القمع، ومع تعاظم الغضب الإيراني، وصف الزعماء ومعظم الصحافة في الولايات المتحدة العلاقات الأميركية ـ الإيرانية بالمثالية.

ولمّا سأل احد المراسلين الرئيس جيمي كارتر في مؤتمر صحافي إبان أزمة الرهائن: «سيدي الرئيس، هل تعتقد أن الولايات المتحدة كان مناسبًا لها أن تعيد الشاه إلى عرشه عام ١٩٥٣ بعكس الإرادة الشعبية في داخل إيران؟»، أجابه كارتر: «هذه قصّة قديمة»[١].

لكنها لم تكن، وليست، قصة قديمة بالنسبة إلى الإيرانيين. فلا يزال وعيهم الجماعي يحترق من لسعة غزوات الإغريق والعرب والمغول والتتار والروس والبريطانيين. وأصبح الكثيرون منهم بعد العام ١٩٥٣ ينظرون إلى الولايات المتحدة التي ألهمتهم، في يوم من الأيام، على أنها الأخيرة في صف الغاصبين هذا.

صُعقت واشنطن لسقوط محمد رضا شاه عام ١٩٧٩. فنظامه شكّل الأداة الرئيسة التي بسطت الولايات المتحدة من خلالها سلطتها في الشرق الأوسط، وعُدَّ صخرة من الاستقرار، وهو المدجّج بالسلاح والذي تشير المظاهر كلّها إلى أنه لا يُقهر. وجاء انهياره المفاجئ بعد أقل من خمسة أعوام على سقوط فيتنام الجنوبية. وولّدت هاتان الصدمتان إحباطًا وغضبًا في بلد تعود أن يسيّر الأمور على طريقته في العالم.

عندما أخذ المناضلون الإيرانيون المخلصون لآية الله الخميني، نهاية العام ١٩٧٩، بروس لاينغن والدبلوماسيين الأميركيين الآخرين رهائن، بلغت الانفعالات

(١) American Presidency Project, "The President's News Conference of February 13, 1980," accessible at http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=32928#.

في الولايات المتحدة أقصى درجات الاحتدام. هاجمت زمرٌ إيرانيين أميركيين وضربتهم. وظهر برنامج إخباري مسائي جديد باسم «أميركا الرهينة» America Held Hostage – تحوّل لاحقًا «نايتلاين» Nightline – لتغطية هذه الأزمة، وأخذ بمجامع الأمة. وراحت إذاعة البرنامج تبدأ كل ليلة بتذكير مؤلم بأن هذا هو «اليوم السابع والثمانون» أو «اليوم الثلاثمئة وستة عشر» من المحنة. وعرضت الشاشة الدبلوماسيين الأميركيين مقيّدين بالأصفاد ومعصوبي الأعين. ونطقت إشارة على جدار مجمّع السفارة المُحتلّة بالحقيقة المؤلمة: «لا تستطيع الولايات المتحدة شيئًا». واستمر الأمر ٤٤٤ يومًا وأُحرق الروح الأميركي.

أصبحت إيران، بالنسبة إلى جيل من الأميركيين، وجه «الآخر» المقيت، وتجسيدًا للبربرية الكاسرة التي تشكّل على الدوام تهديدًا للحضارة. ولم تضمحل قط مرارة حقبة السنتين تلك – من سقوط الشاه في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩ وحتى نهاية أزمة الرهائن في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨١. وهي مذذاك تصوغ السياسة الأميركية حيال إيران.

في العلاقات بين الأمم، كما بين الناس، كثيرًا ما يخبر الشركاء الذين يفترقون روايات مختلفة عما حدث. وهكذا هي الحال بين الولايات المتحدة وإيران، نهاية العام ١٩٧٩.

عدَّ الأميركيون أنفسهم أبرياء مظلومين. وروايتهم بسيطة: كنا أصدقاء أسخياء لإيران ولكن، وبعد ثورة مفاجئة، أرسل النظام الجديد الذي يقوده متعصّبون عدميّون رعاعًا لاختطاف دبلوماسيينا من دون أي استفزاز وفي انتهاك لقانون الله والناس.

نظر الكثيرون من الإيرانيين إلى العلاقة بطريقة مختلفة جدًا. فقد رأوا في الولايات المتحدة حيوانًا كاسرًا ملطخًا بالدم، وقوة معادية تدخّلت عام ١٩٥٣ لتسلبهم ديمقراطيتهم، وقد دعمت الشاه طوال خمسة وعشرين عامًا وهدّدت بالتدخّل من جديد في أي لحظة.

احتفل الإيرانيون بانتصار ثورتهم، فيما هام الشاه على وجهه في العالم لاجئًا ثريًّا ولكن غير مرغوب فيه. ذهب أولًا إلى مصر، ومن ثم إلى المغرب، والباهاماس، ثم المكسيك. وبات، أينما هبط، تطالب الحكومة الإيرانية بإعادته لمحاكمته. إلى أن ناشد في النهاية الرئيس كارتر السماح له بالمجيء إلى الولايات المتحدة بسبب حاجته إلى العلاج من سرطان البنكرياس. وافق كارتر، على رغم كل النصائح له بالعكس - وربّما فعل ذلك بضمير مسيحي - وتحت إلحاح من صديقين وفيين للشاه هما هنري كيسنجر وديفيد روكفلر.

ربما لم يرَ البعض في واشنطن في الأمر أكثر من مجرّد لياقة حيال رفيق يواجه الموت. غير أن الأمر بدا، في إيران، أكثر رعبًا. عاد الكثيرون من الإيرانيين بالذاكرة إلى العام ١٩٥٣ عندما هرب الشاه، لكن عملاء الـ«سي. آي. إي.» العاملين من قبو السفارة الأميركية حضَّروا لانقلاب وأعادوه. وخافوا أن يعيد هذا التاريخ نفسه.

توقّع الدبلوماسيون الأميركيون في طهران هذا النوع من ردّ الفعل الإيراني. وأرسلت السفارة، قبل أسابيع عدة على قرار كارتر القبول بالشاه، تقريرًا إلى واشنطن يحذّر من أن «أي قرار بالسماح له أو لعائلته بزيارة الولايات المتحدة سيُواجه في شكل شبه محتم بردّ فعل فوري وعنيف». وحذّر السفير الإيراني في واشنطن وزارة الخارجية الأميركية من أن ردّ الفعل سيكون «سيئًا، وسيئًا جدًّا»، واقترح بدلًا من ذلك تحويل وجهة الشاه إلى جنوب أفريقيا.

بدا أن الرسالة بلغت كارتر وحلقته الداخلية. لذا، عندما استدعى بروس لاينغن فريق السفارة إلى اجتماع طارئ في ٢٢ تشرين الثاني/أكتوبر ١٩٧٩ وأعلن أن الولايات المتحدة ستستقبل الشاه، أصيب الجميع بالصدمة.

واستذكر أحد الدبلوماسيين لاحقًا أن «صمتًا مطبقًا حلَّ... خرقه مع مرور الوقت تأوه خافت. وتحوّل لون الوجوه، حرفيًّا، إلى الأبيض». وقال آخر: «شعرت أنني

تعرّض للخيانة من جماعتي. كيف أمكنهم قبول الشاه وتركنا في إيران لمواجهة الذئاب الغاضبة؟»[1].

وحدث، بعد ذلك بثلاثة عشر يومًا، ما تخوّف منه الدبلوماسيون فاقتحم المناضلون السفارة وبدأت معاناة أزمة الرهائن.

أدّت هذه الأزمة إلى ما هو أكثر من تخريب العلاقات بين إيران والولايات المتحدة، إذ سمحت أيضًا لآية الله الخميني بالتخلّص من المعتدلين في حكومته الذين يؤمنون بحكم القانون وبذلوا جهودًا مسعورة لحل أزمة الرهائن، لكن الخميني رفضها. ولم يعد أمامهم بعدما انفضح عجزهم إلا الاستقالة.

وحذّر الخميني تلامذة المدارس الدينية في قم من «الإصغاء إلى من يتحدّثون عن الديمقراطية، فجميعهم مناهضون للإسلام ويريدون إبعاد الأمة عن رسالتها. سنكسر كل الأقلام المسمومة التي تتحدّث عن أمور مثل القومية والديمقراطية»[2].

شكّل، في الأساس، تمكّنُ مثل ذلك الرجل، على رأس مثل تلك الحركة، من السيطرة على إيران، أواخر القرن العشرين، شهادة على مدى الابتذال الذي شوّه فيه الشاه الحياة السياسية في البلاد. فهو، بسحقه المجتمع المدني وبتركه حرّية التحرّك للملاّت، لم يفعل سوى ضمان أن يخلفه رجال الدين في السلطة. وكان الخميني الذي برز كقائد لهم، شخصًا طوباويًا، ألفيًّا، يريد الارتداد إلى عصر مثالي يسبق إفساد الإسلام بأمور الدنيا. فلقد مضى نحو قرن على إيران وهي تتقدّم في اتجاه الديمقراطية؛ ورغب الخميني في ردّها إلى الديكتاتورية الدينية.

وكتب عنه أحد الباحثين الإيرانيين أنه كان «صوفيًّا زاهدًا تغذّى طوال حياته بطعام بسيط مؤلف من اللبن والتمر، والانتقام... إنه أشبه بسافونارولا وكالفن وقد

(١) James A. Bill, *The Eagle and the Lion: The Tragedy of American- Iranian Relations* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988), pp. 323– 27.

(٢) Jalal Matini, "Quotes from Ayatollah I Khomeini," accessible at http://www.iran-heritage.org/interestgroups/government-article2.htm.

اندمجا في مظهر إسلامي... متصوّف تعاطى السياسة، ثوري زاهد أجبر الصوفية الإسلامية المتحوّلة على العودة إلى نقطة انطلاقها»[1].

سمحت أزمتان غير متوقعتين للخميني بتوطيد سلطته. أولاهما أزمة الرهائن التي استخدمها لتطهير نظامه من المعتدلين. أما الثانية فالحرب الإيرانية ـ العراقية. وقد جاءته هاتان الكارثتان من باب الحظ.

عدَّ الديكتاتور العراقي صدّام حسين أن إيران تشكّل غريمه الكبير في السيطرة على الشرق الأوسط المسلم، وناهضها في قوّة؛ وستصبح آخر كلماته، بعد ذلك بسنوات كثيرة: «فليسقط الخونة، الأميركيون، الجواسيس، والفرس!»[2]. واضطر، طوال عقدين، إلى كبح طموحه بسبب الدعم التام الذي وفّرته الولايات المتحدة لمحمد رضا شاه. ووجد صدام فرصته مع رحيل الشاه وما شهدته إيران من اضطرابات بعد ثورة ١٩٧٩ – وبخاصة بعد إعدام الملاّت عشرات القادة العسكريين الكبار. فأرسل في الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ جنوده العراقيين لاقتحام إيران. هدف إلى الاستيلاء على حقول النفط الإيرانية ومصفاة عبادان؛ والسيطرة على ممر شط العرب المائي الذي يُصدَّر عبره معظم نفط العالم؛ وتدمير النظام الديني في طهران؛ وفرض نفسه الرجل الإقليمي القوي الجديد.

أُخذت إيران على حين غرّة، غير أنها سارعت إلى شن هجوم مضاد ودحرت القوات العراقية من أراضيها. وأمكن الحرب أن تنتهي عند هذا الحد، إلا أن الخميني رفض وقف النار وأصر على أن تستمر جيوشه في القتال إلى أن تُسقط صدّام وتقيم نظامًا شيعيًّا في العراق. استمر القتال ثمانية أعوام، وهو ما ناسب الخميني. فالشعب في أي بلد يتوحّد غريزيًّا وراء زعمائه في أوقات الأزمة، وأثبتت إيران أنها لا تشكّل استثناء. ووفّرت الحرب الإيرانية ـ العراقية الحجة التي يحتاج إليها الملاّت لرفض المطالب بمجتمع أكثر انفتاحًا ولتبرير القمع الأشد قساوة من قبل. ففي السنتين

(١) Hamid Dabashi, *Iran: A People Interrupted* (New York: The New Press, 2007), pp. 160-61, 177.

(٢) *New York Times*, December 31, 2006.

الأولين بعد الثورة أصدرت المحاكم في إيران أحكامًا بالموت بمعدّل نحو اثنين في الشهر الواحد؛ لكن متوسطها بلغ عشرة أضعاف ذلك على امتداد السنوات الأربع التالية مع استعار الحرب مع العراق. وقد أعدم أكثر من ثمانية آلاف «مفسد في الأرض»(١).

وفّرت الحرب الإيرانية ـ العراقية المزيد من الدليل المثير للغضب بالنسبة إلى الإيرانيين الذين يعتقدون أن الغرب يتآمر منذ زمن طويل لإبقاء بلادهم ضعيفة، وهو ما يعني إبقاء معظمهم ضعفاء.

أرسل الرئيس رونالد ريغان، مع اشتداد هذه الحرب، موفدًا شخصيًا إلى بغداد للاجتماع مع صدام ليعرض عليه المساعدة الأميركية. وهذا الموفد هو وزير الدفاع السابق (المستقبلي) دونالد رامسفلد وقد تولّى يومذاك رئاسة شركة الأدوية «ج. د. سيرل». وتظهر صور رامسفلد وصدّام غير الواضحة وهما يتصافحان في العشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣ رجلين مختلفين تمام الاختلاف. أحدهما مليونير دمث خرّيج برنستون وعارف متمرّس بشؤون واشنطن الداخلية، والآخر قومي عربي ثوري شق طريقه إلى السلطة بالقوّة. سوى أن كليهما سياسي عتيق وجافّ المشاعر. اتحدا لمحاربة عدو مشترك هو إيران.

بدأ رامسفلد لقاءهما بتقديم رسالة من الرئيس ريغان تؤكّد أن انتصار إيران في هذه الحرب «يناقض المصالح الأميركية». ثم طلب الدعم من صدّام لبناء خط لأنابيب النفط بقيمة مليار دولار بين العراق وميناء العقبة الأردني(٢)؛ وهو مشروع تسوّق له شركة البناء العالمية، «بكتل»، التي سبق لها أن وظّفت كلًّا من وزير الخارجية جورج شولتز ووزير الدفاع كاسبار واينبرغر. وسأل رامسفلد في النهاية صدّام كيف يمكن الولايات المتحدة مساعدته في محاربة إيران. فطلب صدّام أمرين:

(١) Ervand Abrahamian, *A History of Modern Iran* (New York: Cambridge University Press, 2008), p. 181.

(٢) New *York Times*, April 14, 2003.

طائرات هليكوبتر، والوصول إلى معلومات أقمار التجسس الصناعية التي يمكن أن تفيد قادته الميدانيين في استهداف تجمعات الجنود الإيرانيين. وزوّدته الولايات المتحدة الأمرين.

كان الغضب من إيران، حينذاك، هو ما أوصل الولايات المتحدة إلى عناق الموت مع صدّام، وفي هذا مثال آخر كيف انعكست العلاقات الأميركية ـ الإيرانية في أنحاء الشرق الأوسط بطرق ما أمكن أحدًا أن يتوقّعها. فالأميركيون، التواقون إلى دعم كل من يحارب إيران، حوّلوا صدّام شريكًا لهم.

استخدم صدّام، خلال الحرب، طائرات الهليكوبتر لرش إيران بالغاز السام في انتهاك للقانون الدولي. ولكن عندما احتجّت إيران، رفض المسؤولون الأميركيون اتهاماتها على رغم معرفتهم بصحّتها؛ بل إنهم أوحوا أن الإيرانيين يستخدمون الغاز ضد أبناء شعبهم لكسب العطف، وعرقلوا تحقيقًا للأمم المتحدة في هذا الشأن. وجعلت هذه الواقعة الإيرانيين يدركون أنهم عرضة للهجوم بأسلحة غير تقليدية. وخلص الكثيرون إلى ضرورة امتلاك إيران أسلحة من هذا النوع للدفاع عن نفسها.

عملت الولايات المتحدة، بعد مرور نحو عامين على شروعها في تزويد العراق السلاح والمعلومات الاستخبارية، على مد عدوته إيران بها أيضًا. وقد أمل الرئيس ريغان في أن تستخدم إيران نفوذها لتحرير الرهائن الأميركيين في لبنان. كذلك أخذ يضع الأساس لسياسة «الاحتواء المزدوج» – مواجهة إيران والعراق معًا – التي ستتبعها الولايات المتحدة طوال العقد ونصف العقد التاليين.

«آمل في أن يقتل بعضهم بعضًا»، قال هنري كيسنجر في إيجاز كريه لسياسته. «من المؤسف جدًّا أنهما لا يمكنهما أن يخسرا معًا»[١].

أخذ الخميني، مع استعار الحرب، في بناء دولة إسلامية متشددة. وعُدّت النساء غير كفيّات للعمل كقاضيات أو أستاذات جامعيات؛ وانطبق الأمر على الكثيرين من

(١) Dabashi, *Iran*, p. 170.

الرجال ذوي المعتقدات العلمانية. وخضعت الصحف للرقابة، وسُحقت المجموعات المدنية، وأوقف المعارضون الذين تعرّضوا في أغلب الأحيان للقتل – ليس في إيران وحسب بل في الخارج أيضًا. وناقش المناضلون مصير أطلال برسبوليس التي رأوا فيها بنيانًا للأصنام: هل يجب تحويلها مرحاضًا عامًّا أو تسويتها بالأرض ليس إلّا؟[١]

توقّفت الحرب الإيرانية – العراقية عام ١٩٨٨ بعدما وافق الخميني على وقف النار في قرار وصفه بأنه «أصعب عليه من تناول السم». فقد قُتل مئات الآلاف الذين اكتظت بهم المقابر في كلا البلدين اللذين لم يكسب أي منهما شيئًا ذا قيمة.

خرجت إيران من الحرب مخرَّبة، وقد خسر أكثر من مليون شخص منازلهم. قُصفت الموانئ والمعامل والجسور وشبكات الري والمجمعات الصناعية وسُوّيت بالأرض. وانحسر دخل الفرد العام إلى النصف[٢].

وخلص الباحث اللبناني ـ الأميركي فوّاز جرجس لاحقًا إلى «وجود تأثيرين عميقين للحرب. الأول هو أنها عمّقت الشعور المعادي لأميركا في إيران وعمّمته، وجعلت من السياسة الخارجية المناهضة لأميركا علّة وجود للحكومة الإيرانية. والثاني هو أن استخدام العراق السلاح الكيماوي والدور الأميركي في منع التحقيق وفي حماية صدّام من الانتقاد، أقنعا الملاّت بالحاجة إلى السعي إلى تطوير برنامج خاص بهم للأسلحة غير التقليدية».

شكّلت سنوات الثمانينيات حقبة صادمة في العمق لإيران. فأعقبت عقودًا من الديكتاتورية الملكية ثورة مثيرة وانحدار سريع نحو الاستبدادية الدامية، وحرب مدمّرة. وأمل الإيرانيون في أن يقودهم عقد من الزمن إلى التحرّر، لكنه دفعهم، بدلًا من ذلك، إلى الدمار والقمع.

(١) Abrahamian, *History of Modern Iran*, p. 178.

(٢) المصدر نفسه، ص. ١٧١-١٧٥؛ Michael Axworthy, *A History of Iran: Empire of the Mind* (New York: Basic Books, 2008), p. 274.

يعرف الكثيرون من الإيرانيين أن الولايات المتحدة أطاحت عام ١٩٥٣ محمد مصدّق، آخر زعمائهم المنتخبين ديمقراطيًّا، ووضعت بلادهم على طريق الديكتاتورية. سوى أن قلّة من الأميركيين أدركت ذلك، حتى بعد عقود لاحقة. ومع اقتراب ولاية كلينتون من نهايتها أواخر التسعينات، قرر الرئيس القيام بمبادرة حيال إيران على أمل الشروع في حوار معها. وكلّف وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت إلقاء خطاب تعترف فيه بالتورط الأميركي في انقلاب العام ١٩٥٣.

وبدلًا من القيام بهذا الاعتراف أمام حضور مؤلف من المؤرخين وناشطي حقوق الإنسان أو الإيرانيين ـ الأميركيين، اختارت القيام بذلك في اجتماع في واشنطن للمجلس الأميركي ـ الإيراني، وهو مجموعة لوبي تموّلها شركات نفط متلهّفة للقيام بأعمال مع إيران. وشكّل خطابها الذي ألقته في ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٠، عملية توازن بين مصالح هذه الشركات ومصالح إسرائيل التي تعارض أي مصالحة بين واشنطن وطهران. وهو ما حكم عليه بالفشل. لكنه شكّل المرّة الأولى التي تعترف فيها أميركا بما عرفه الآخرون في مختلف أنحاء العالم، طوال عقود.

> أدت الولايات المتحدة، عام ١٩٥٣، دورًا ذا مغزى في تنظيم إطاحة رئيس الوزراء الإيراني الشعبي محمّد مصدّق. واعتقدت إدارة أيزنهاور أن الأسباب الاستراتيجية تشكّل مبرّرًا لأفعالها؛ سوى أن الانقلاب شكّل نكسة فعلية للتطوّر السياسي في إيران. وتسهل الآن رؤية كيف أن الكثيرين من الإيرانيين يستمرون في الامتعاض من هذا التدخل الأميركي في شؤونهم الداخلية.

وعلاوة على ذلك، وفّرت الولايات المتحدة والغرب دعمًا متواصلًا لنظام الشاه الذي عمدت حكومته إلى قمع المعارضة السياسية، في وحشية، على رغم أنها فعلت الكثير في مجال تنمية البلاد الاقتصادية.

> على الولايات المتحدة، كما قال ذلك الرئيس كلينتون، أن تتحمّل حصتها العادلة من المسؤولية عن المشكلات التي برزت في العلاقات الأميركية ـ

الإيرانية. وبدا، حتى في الأعوام الأكثر قربًا، أن بعض أوجه السياسة الأميركية حيال العراق في نزاعه مع إيران تميّز، ويا للأسف، بقصر النظر، وبخاصة في ضوء تجاربنا التالية مع صدام حسين(١).

لم تجب إيران عن نصف الاعتذار هذا، ويُعزى جزء من السبب في ذلك إلى أن أولبرايت وازنته بإدانات للنظام الإيراني - في ما يُعتقد أساسًا أنه لطمأنة إسرائيل - على طائفة من الخطايا، ومنها رعاية الإرهاب وعرقلة جهود السلام الأميركية في الشرق الأوسط. وشعرت إسرائيل بالقدر نفسه من الاستياء، فذكرت صحيفة «جيروزاليم بوست» أن مسؤولين إسرائيليين كبارًا «انتقدوا، في حدّة، الموقف الأميركي الأكثر إيجابية حيال إيران»، وأن «لجنة الشؤون العامة الأميركية ـ الإسرائيلية، وهي اللوبي الإسرائيلي الأول في واشنطن»، تعارض أي تجارة مع إيران تؤدي إلى حصولها على «دفق كبير من العملات». وتميّزت أولبرايت، على غرار الجهود السابقة للمصالحة، بالفتور وبسوء التوقيت. فأثارت الدهشة ولم تؤتِ نتيجةً(٢).

حدثت تغييرات كثيرة في إيران منذ الثورة. توفّي مرشدها الأعلى آية الله الخميني، عام ١٩٨٩، مثيرًا دفقًا مذهلًا من الحزن. ودُفنت معه الموجة الأخيرة من الحماسة الثورية. وفُتحت حقبة جديدة في التاريخ الإيراني قد يسميها منظّرو الثورة حقبة الـ«تيرميدور» (الشهر الحادي عشر [تموز-آب] من روزنامة الثورة الفرنسية): أي التراجع المتردّد عن الراديكالية، والبحث عن الاستقرار والتطبيع. وقد أطلقها المرشد الأعلى الجديد آية الله علي خامنئي، في خطبة متلفزة، وصف فيها البطل الشيعي علي بأنه ليس المحارب الإسلامي المنتقم - كما يصفه الأصوليون عادة

(١) American Presidency Project, "Secretary of State Madeleine K. Albright: Remarks before the American- Iranian Council, March 17, 2000, Washington, D.C.," accessible at http://www.fas.org/news/iran/2000/000317.htm.

(٢) Sasan Fayazmanesh, *The United States and Iran: Sanctions, Wars and the Policy of Dual Containment* (London: Routledge, 2008), p. 94.

– بل الشخص الذي يكد في العمل، وصاحب المزرعة الحسن الملبس، ورجل الأعمال. وبعيد ذلك، أبلغ الرئيس علي أكبر هاشمي رفسنجاني الإيرانيين أن وقت «التخلي عن الأمور الصبيانية» قد حان، ويجب وضع حد «للتجاوزات والأعمال الفظّة والتصرّف غير المسؤول». وشرع السياسيون الذين طالبوا بالجهاد لتحرير القدس في المطالبة بظروف إسكانية أفضل وبأدوات منزلية أرخص[١].

انتهت ولاية رفسنجاني عام ١٩٩٧، وانتُخب محمد خاتمي رجل الدين الإصلاحي الذي أمضى سنوات في إدارة المركز الإسلامي في المانيا، خليفة له. وأسهمت دعوة خاتمي إلى «حوار الحضارات» في إقناع كلينتون بالقيام بمناورة الاعتذار. ولكن لم يتمتع أي من الزعيمين بالقدر الكافي من الجرأة للقيام بمبادرة مؤثّرة يمكنها إعادة صياغة العلاقات بين بلديهما. واستمرت إيران والولايات المتحدة عالقتين في العدائية في انتظار شعلة صاعقة تغيّر كل شيء. وقد جاءت في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

بدأ المساء يخيّم على طهران عندما أذيع للمرة الأولى خبر هجمات ذلك النهار الإرهابية. وتلقائيًا شرعت مجموعات من الناس في السير عبر الشوارع حاملة الشموع تعبيرًا عن التعاطف مع الولايات المتحدة والدعم لها. والتقوا في إحدى الساحات الرئيسة في المدينة ووقفوا شهودًا صامتين يعكسون شعورًا بديهيًّا من التضامن الذي يشعر به الكثيرون من الإيرانيين مع الأميركيين، على رغم تقلّبات التاريخ. شكّلت تلك الليلة الساهرة التظاهرة الوحيدة المؤيدة لأميركا، ذاك اليوم، في أي بلد مسلم.

أضفت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر منطقًا سياسيًّا ملحًّا على المصالحة بين واشنطن وطهران. فإيران عدو عنيد لمنظمتي الطالبان والقاعدة اللتين يتمنى قادتهما المتعصبون الموت للإسلام الشيعي. وها إن هاتين القوتين هاجمتا الولايات المتحدة لتجد إيران وأميركا نفسيهما في مواجهة العدو المشترك.

(١) Abrahamian, *History of Modern Iran*, p. 184.

التقى دبلوماسيون من الدولتين، في انتظام، طوال أشهر عدّة. وطلبت الولايات المتحدة من إيران طرد مئات الأجانب ممن تعتقد أنهم مرتبطون بالطالبان أو بالقاعدة وبتشديد الإجراءات الأمنية على طول الحدود الإيرانية ـ الأفغانية، وبإضافة أسماء جديدة إلى لائحة مراقبة من يُشتبه بأنهم إرهابيون؛ وقامت إيران بذلك(١). وعندما قرّر الأميركيون استخدام جيش رديف لخوض حربهم ضد الطالبان في أفغانستان، وضعتهم إيران على اتصال بالتحالف الشمالي الذي عملت معه أعوامًا. وبعدما دحرت الطالبان، ضغطت إيران على التحالف الشمالي للتراجع والسماح لزعيم البشتون المفضّل لدى أميركا حميد كرزاي، في أن يصبح رئيسًا لأفغانستان. وشرعت الوفود الأميركية والإيرانية في محادثات سرّية في جنيف في شأن سبل البناء على هذا التعاون.

واستذكر الاختصاصي في مكافحة الإرهاب في «سي. آي. إي». فلينت ليفيريت لاحقًا أن «الإيرانيين قالوا: «نحن لا نحب القاعدة أكثر منكم، ولدينا أصول في أفغانستان يمكن الاستفادة منها». امتلكوا اتصالات فعلية باللاعبين الميدانيين في أفغانستان، وطرحوا استخدام هذا النفوذ في مواصلة التنسيق مع الولايات المتحدة»(٢).

أصدرت وزارة الخارجية، مع تكشّف الحملة الأميركية المناهضة للطالبان، تقريرًا يؤكّد أن أمام الولايات المتحدة «فرصة حقيقية» لإعادة صياغة علاقتها بإيران. وساند كل من الـ«سي. آي. إي.» ومكتب مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض هذا التقرير. وبدأ احتمال الشِّرْكة بين هذين العدوين القديمين يبدو واقعيًّا.

لكن هذا الاحتمال تبخّر مساء التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢،

(١) *New York Times,* May 24, 2009; Gareth Porter, "Burnt Offering," American Prospect, May 21, 2006.

(٢) Porter, "Burnt Offering."

عندما ألقى الرئيس جورج و. بوش خطابه السنوي عن حال الأمة. فهو لم يسقط وحسب الاعتراف بتعاون إيران في الحرب على الإرهاب، بل ندّد بها أيضًا بصفة كونها جزءًا من «محور الشر» إلى جانب اثنتين من الديكتاتوريات الأكثر وحشية في العالم، وهما العراق وكوريا الشمالية. صعق الإيرانيون. وكما حدث غالبًا في التاريخ الحديث للعلاقات الأميركية ـ الإيرانية، طغت الأيديولوجية والانفعال على المصلحة الذاتية العملية. وضاعت فرصة كبرى.

حاول الزعماء الإيرانيون، مرّة أخرى، بعد مرور سنة على خطاب «محور الشر»، فسلّموا، أوائل العام ٢٠٠٣، اقتراحًا بعيد المدى إلى السفير السويسري في طهران الممثل الرسمي للمصالح الأميركية فيها. أدرك السفير أهميته، فأوصله بيده إلى واشنطن. ويشكّل هذا الاقتراح إحدى أكثر الوثائق إثارة للاهتمام في القرن الواحد والعشرين وهو لا يزال في بدايته.

اقترحت إيران محادثات شاملة وطرحت روزنامة. فطلبت أن تضع الولايات المتحدة حدًّا لـ«مسلكها العدائي»، وترفع العقوبات الاقتصادية، وتضمن وصول إيران إلى التكنولوجيا الذرّية السلمية، وتعترف بـ«مصالحها الأمنية المشروعة». وعرضت إيران، في المقابل، الأمور التي طالما طالبت بها الولايات المتحدة: «الشفافية التامة» لبرنامجها النووي وإنهاء أي «دعم مادي» للجماعات المناضلة في الشرق الأوسط، بما فيها خصوصًا حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي(١).

شكّل هذا المبادرة الأكثر جرأة التي تقوم بها إيران في ربع قرن. لكن الرئيس جورج و. بوش ومستشاريه، رغبوا في القضاء على النظام الإيراني لا التسوية معه. فلم يرفضوا وحسب الرد على الاقتراح الإيراني بل وبّخوا أيضًا السفير السويسري على وقاحته بتسليمه(٢).

(١) Trita Parsi, *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the U.S.* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007), pp. 341–42.

(٢) Porter, "Burnt Offering."

كان هذا هو النمط المحبط في العلاقات الأميركية ـ الإيرانية منذ العام ١٩٧٩. فالطرفان يضمران شعورًا عميقًا بالظلامة. وكلّما بدا أحدهما على استعداد للتسوية، وجد الآخر نفسه في مزاج يبلغ حدًّا أكبر من التشدد يمنعه من الاستجابة.

وضمر المجتمع الإيراني مع ضمور العلاقات الأميركية ـ الإيرانية. فقد انعزلت إيران إلى حد كبير عن باقي العالم، في جزء من ذلك نتيجة خطإها، وفي الجزء الآخر بسبب مكر الأجانب، فتحجّرت وانغلقت على ذاتها. ولا يزال الوعي الديمقراطي القوي حيًّا فيها، لكن الحياة المدنية هزيلة. ويرغب الكثيرون من الإيرانيين في رؤية النظام الإسلامي وقد اضمحلّ في التاريخ ليتمكنوا من معاودة مسيرتهم صوب الحرية التي انطلقوا فيها عام ١٩٠٦.

وفي وقت أعادت ثورة واحدة صياغة إيران، أدت اثنتان أيضًا إلى إعادة صياغة تركيا، وكلتاهما سلمية. فهناك جيل يفصل بين الرؤيويَّيْن اللذين قاداهما ولم يلتقيا قط. ولو التقيا لشكّلا ثنائيًّا غريبًا. أحدهما رجل بشوش، مُشجّع، بدين من الأرياف، مهندس عمل في البنك الدولي، لكنه صاحب مقالب وشديد الشره ونقطة ضعفه هي الـ«كورڤوازييه». أما الآخر فصارم، ورياضي صاحب عضلات من شوارع اسطنبول الوسطى انتقل سريعًا من السجن إلى الزعامة الوطنية.

صنع كلا هذين الزعيمين التركيين التاريخ. وهو ما قاله أولهما، تورغوت أوزال.

عندما انتخب أوزال عام ١٩٨٣ رئيسًا للوزراء، كانت تركيا لا تزال منغلقة على ذاتها تخاف من العالم. أعيق السفر إلى الخارج، وقلة من الشركات أنتجت للتصدير، وكان من غير المشروع امتلاك معظم البضائع المنتجة في الخارج، حتى ولو علبة سجائر مارلبورو واحدة. وصمم أوزال على سحق دولة الحماية هذه. وشكّلت الخطوط الجوية التركية أحد أهدافه الكثيرة، وقد أدارتها طوال أعوام، زمرة من الجنرالات المتقاعدين الذي عاملوا الزبائن في ازدراء. فاستدعى مدير أعمال شابًّا ذا ثقافة أميركية، وكلفه تحويلها «شركة طيران عالمية من الطراز الأول». ولما احتج

الشاب على أن الجنرالات مترسّخون جدًّا ولن يعملوا أبدًا مع جرو مثله، تجاهل أوزال اعتراضاته.

وصاح وهو يشيح بيده: «إننا هنا نصنع التاريخ»[1]!

لم يكن أوزال من نتاج نخبة اسطنبول، بل من عامة البرّ الأناضولي. والده موظف في مصرف، إلّا أن والدته، وهي معلّمة مدرسة صاحبة دينامية قويّة، هي التي غرست فيه الاقتناع بأنه إذا ثقّف نفسه لن يقف أي شيء حائلًا بينه وبين ما يمكنه أن يحققه. واختار أن يدرس الهندسة، على غرار الكثيرين من الأتراك الطموحين الذين بلغوا سن الرشد، فيما بلادهم تتجه صوب الحداثة. وعمل في واحد من أكبر التكتلات في البلاد، وأمضى عامين في واشنطن كمستشار اقتصادي للبنك الدولي، وأخذ لدى عودته يتلمّس السياسة.

أدى الجنرالات الذين قاموا بانقلاب العام ١٩٨٠ دورًا غير مقصود في إيصال أوزال إلى السلطة. فقد لاقى انقلابهم ترحيبًا، في البداية، لسبب رئيس هو أنه وضع حدًّا للعنف السياسي، سوى أن ما أعقب ذلك من حكم عسكري استمرّ ثلاثة أعوام مزّق أوصال المجتمع التركي. فلم يكتفِ الجنرالات بفرض الأحكام العرفية وتعليق الدستور وحظر النقابات العمالية وحل الجمعية الوطنية الكبرى وإلغاء الأحزاب السياسية واعتقال قادتها، بل شنوا أيضًا حملة من القمع أكثر شدّة مما سبق للأتراك أن رأوه. أوقفت أعداد ضخمة من الناس، معظمهم غير مذنب بشيء إلا بميوله السياسية اليسارية. وتعرّض الكثيرون للتعذيب. وحُكم على أربعين ألف تركي في المحاكم الأمنية الخاصة؛ وأعدم خمسة وعشرون منهم. وتم تطهير كلّيات الجامعة وهرب الكثيرون ممن هم الأفضل والألمع في البلاد. وأُعلن بمراسيم ما يقارب الستمئة قانون، هدف الكثير منها إلى الحد من الحريات العامة[2].

---

(١) مقابلة أجراها المؤلف عام ٢٠٠٩ مع سم كوزلو.

(٢) Feroz Ahmad, *The Making of Modern Turkey* (London: Routledge, 1993), pp. 181– 88; Sina Akşin, *Turkey from Empire to Revolutionary Republic: The Emergence of the Turkish Nation from 1789 to Present* (New York: New York University Press, 2007), pp. 280–84; Andrew Mango, *The Turks Today* (Woodstock, N.Y.: Overlook Press, 2006), pp. 81– 83; Hugh Pope and Nicole Pope, *Turkey Unveiled: Atatürk and After* (London: John Murray, 1997), pp. 141– 57.

وأعلن الجنرالات، نهاية العام ١٩٨٢، أنهم مستعدون لمغادرة السلطة، بشرط موافقة الأتراك على الدستور الجديد الذي وضعوه، وقضى بالحد من الديمقراطية، وبصون حرية التعبير باستثناء الآراء «المغايرة للمصالح الوطنية التركية». وسيعطي الزعماء المنتخبون «الأفضلية في البحث» للتوجيه الذي يصدر عن مجلس الأمن القومي الذي يسيطر عليه الجنرالات. ووافق الأتراك موافقة ساحقة، في الاستفتاء، على هذا الدستور توقًا منهم إلى الحصول على ما أمكن من الديمقراطية.

ما إن تمت الموافقة على الدستور الجديد حتى دعا الجنرالات إلى الانتخابات. وبما أن الأحزاب السياسية حُظرت كلّها منذ الانقلاب، عمدوا إلى إنشاء حزبين جديدين، وساعدوا الناخبين بإطلاعهم على أن أحد الحزبين أكثر يمينية من الآخر الأكثر يسارية، وكلاهما برئاسة جنرال متقاعد. ثم، وفي ما يشبه إعادة النظر – وفي استجابة لتلميحات من واشنطن – قرروا السماح بمشاركة حزب ثالث. والحزب الناشئ حمل اسم «الوطن الأم». واختير أوزال الذي كان كبير المخططين الاقتصاديين عند الجنرالات، حاملًا للوائه.

مُنع جميع سياسيي البلاد البارزين من تعاطي السياسة وحُظر عليهم الترشح في هذه الانتخابات. وهكذا أخلى الجنرالات، من دون دراية منهم، الساحة لأوزال غير المعروف كثيرًا.

في الليلة التي سبقت انتخابات العام ١٩٨٣، ظهر قائد النظام العسكري الراحل على التلفزيون الوطني لتذكير الناخبين بضرورة اختيار أحد الجنرالين السابقين اللذين سماهما. وشكّلت تلك اللحظة الحاسمة في الحملة الانتخابية. فأدرك الناخبون أن أوزال هو المرشح الذي لا يفضّله العسكر فأعطوه انتصارًا مذهلًا. أرادوا استعادة ديمقراطيتهم؛ ويبدو أنه المرشح الوحيد المهتم بإعادتها إليهم.

شكل العقد التالي من التاريخ التركي – ست سنوات كرئيس للوزراء تبعتها أربع كرئيس – عقد تورغوت أوزال. كان الزعيم الأكثر نشاطًا والمصلح الأكثر جذرية

الذي تشهده البلاد منذ أتاتورك، وعُدَّ أيضًا نوعًا من الوجه الجديد لتركيا بصفة كونه رجلًا متفائلًا وعمليًّا صنع نفسه بنفسه وخرج من الجماهير وتحدّث بلغتهم. وهو ليس نتاج المؤسسة القديمة ولا يحترم محرّماتها.

شعر أوزال بالحيوية الكامنة تحت سطح المجتمع التركي. وأدرك أنه لو أمكن تحريرها لما اكتفت تركيا بكسر جدار عزلتها، بل ستتمتع بالدينامية والبحبوحة والقوة. تولّى البلاد وهي أشبه بمنزل عفن قديم مضت عليه سنوات وهو محكم الإقفال، فشرّع أبوابه ونوافذه وسمح لنفحات الريح بجرف الطبقات السميكة من الغبار عنه.

شكّلت مارغريت ثاتشر المثال الأعلى لأوزال، وهو، على غرارها، من المتحمسين للسوق الحرّة. وأبلغ الأتراك، في زوبعة من التحرير من القيود، أن القواعد والبيروقراطية قد أقعدتهم وأن الوقت حان للتحرّر والإثراء. شكّل، في السابق، أي بَدءٍ بمشروع في تركيا، عملية مبرحة؛ وفجأة اختفت القواعد وأمكن أيًّا كان الشروع في أي مشروع. وقام المئات بذلك، وما لبثوا أن أصبحوا بالآلاف. وبرزت طبقة جديدة كاملة من رجال الأعمال الأناضوليين في مواجهة «الأتراك البيض» الذين أداروا المؤسسات العائلية القديمة القوية الارتباطات في اسطنبول. وشطب أوزال النموذج البديل من الاستيراد الذي حاولت تركيا بموجبه إنتاج كل ما تحتاج إليه، واعتنق نموذجًا جديدًا تحرّكه الصادرات والتجارة العالمية. وبدأ الاقتصاد التركي، وقد تحرّر، بالازدهار المستمر حتى اليوم.

أضعفت إصلاحات أوزال الاقتصادية الأثرياء القدامى، إلا أن وجهات نظره الاجتماعية والسياسية غير التقليدية هي التي أزعجت الجيش. فقد أمر بإعادة دفن جثمان عدنان مندريس، رئيس الوزراء السابق الذي أعدمه العسكر عام ١٩٦١، بكل التكريم الذي يعود إليه وأطلق اسمه على أحد المطارات. صلّى يوميًّا وهو تابع لطائفة صوفية سبق لأتاتورك أن حظرها. إلا أن الأكثر إثارة للذهول هو أنه لم يعط القادة العسكريين الاحترام الذي تعودوه. ولما أوصى الجنرالات برئيس جديد للأركان رفض اختيارهم وانتقى واحدًا آخر. وجاء مرّة لاستعراض العسكر وهو يرتدي سروالًا

قصيرًا. وأعلن عَرَضًا، في زيارة للجنوب الغربي ذي الغالبية الكردية، أنه نفسه كردي جزئيًا؛ ولم يسبق لأي زعيم تركي، طوال نصف قرن، أن اعترف حتى بوجود الأكراد.

بيد أن أوزال والجنرالات اتفقوا في المسائل الدولية. فقد كنّوا جميعهم العداء الشديد للشيوعية. وكان أوزال مواليًا لأميركا بالفطرة. وهو ما سهّل عليه توفير كل مطالب الرئيس جورج هـ. و. بوش صيف العام ١٩٩٠(١).

نشأ، في الأشهر المؤدية إلى حرب الخليج، رابط مميز بين الأرستقراطي خرّيج يال والأناضولي البدين ابن العامة. تحادثا هاتفيًا في شكل شبه يومي. وعدّ بوش تركيا حليفًا حيويًا بسبب مركزها في العالم الإسلامي. ثم إنه طلب من أوزال ثلاث خدمات تكتيّة: إقفال خط الأنابيب الذي ينقل النفط العراقي إلى المتوسط، ونشر قوات تركية على طول الحدود التركية ـ العراقية لجرّ الجنود العراقيين بعيدًا من الكويت، والسماح للقوات الأميركية باستخدام قاعدة إنجرليك الجوية في جنوب تركيا خلال الحرب المقبلة. لم يوافق أوزال فورًا وحسب على المطالب الثلاثة بل حاول أيضًا الذهاب إلى ما هو أبعد وإرسال قوات تركية للقتال إلى جانب الأميركيين. وأثار ذلك الكثير من الغضب ودفع وزيري الدفاع والخارجية ورئيس الأركان إلى الاستقالة.

آمن أوزال بنشوء شرق أوسط جديد بعد حرب الخليج، وأراد لتركيا أن تكون في الجانب الرابح. وقدّر الرئيس بوش حق التقدير دعمه غير المشروط. ولمّا جاء أوزال إلى الولايات المتحدة بعد بضعة أسابيع على كسب الحرب، أخذه بوش إلى كامب ديفيد حيث تحادثا ساعات. وشكر له بوش لاحقًا، علنًا، «أفضل صلات يمكن في اعتقادي أي بلدين أن يحظيا بها، على الإطلاق»(٢).

(١) Pope and Pope, *Turkey Unveiled*, pp. 158–79; Erik J. Zürcher, *Turkey: A Modern History* (London: I. B. Tauris, 1993), pp. 305–19.

(٢) American Presidency Project, “The President’s News Conference with President Turgut Ozal of Turkey, March 23, 1991,” accessible at http://www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php?pid=19419#.

غير أن الفائدة التي توقّعها أوزال لم تأتِ قط. فقد أعقبت حرب الخليج مدة طويلة من عدم الاستقرار الإقليمي. نظّمت الولايات المتحدة حصارًا اقتصاديًّا على العراق مما أجبر تركيا على إغلاق حدودها الشرقية مما كلّف البلاد مليارات الدولارات التجارية، وأمعنت في إغراق الأقاليم الجنوبية الشرقية في الفقر. وهو ما أقنع الكثيرين من الأتراك بأن التعاون مع أميركا لا يسير دومًا على خير ما يرام.

ولكن لم يكن، بين كل التغييرات التي هزّت العالم خلال حقبة أوزال، من تغيير مُزلزل أكثر من تفكّك الاتحاد السوفياتي. وقد ردّ عليه بإعلان مشروع طنّان في شكل نموذجي: ستصبح تركيا عرّابة وحامية للدول الجديدة ذات الأصول التركية التي ظهرت في القوقاز وفي آسيا الوسطى. وسعى، في رحلات عدة منهكة عبر المنطقة، إلى إنشاء كتلة جديدة يمكن تركيا السيطرة عليها. وعاش اندفاعته نفسها في رحلته الأخيرة وغبّ الطعام الدسم في المآدب الرسمية التي شكّلت في الوقت نفسه عملية تبادل للآراء تستمر طول الليل. وفي السابع عشر من نيسان/أبريل ١٩٩٣، بعيد عودته إلى أنقرة، أصيب بنوبة قلبية قوية وتوفى وهو في الخامسة والستين.

كتبت صحيفة «إندبندنت» البريطانية في نعيه أنه «وعلى رغم كل عيوبه، يترك تركيا مجتمعًا أكثر انفتاحًا وديمقراطية وتنوّعاً. ويعود الكثير من ذلك إلى الطاقة الطبيعية الموجودة في الأتراك أنفسهم والتي أطلقتها إصلاحاته. غير أنه سيُفتقد كثيرًا كزعيم استثنائي وحيوي أمكنه أن يكون معًا ناقدًا لبلاده وصاحب رؤيا»(١).

لم يسبق للتاريخ أن عرف أتراكاً مُبادِرين اقتصاديًّا. فقد كانت التجارة، زمن العثمانيين، في أيدي اليونانيين واليهود والأرمن وسواهم من غير المسلمين. وشعر أوزال أن الأتراك، وبخاصة أولئك العائدين من وظائفهم كـ«عمّال ضيوف» في أوروبا، على أهبة الاستعداد للتعاطي مع العالم. ووفّر لهم فرصة القيام بذلك. وحين وفاته كان الانفجار التجاري أخذ في تغيير تركيا. نمت الأعمال سريعًا، وازدهر

(١) *The Independent*, May 19, 1993.

التصدير، وتوافرت فرص العمل بالآلاف. وتحوّلت الأماكن النائية النائمة «نمور الأناضول». وحقق أبناء الريف الأتقياء ثروات نظيفة.

وما إن تحققت لهذه الطبقة الجديدة من التجار الأناضوليين القوة الاقتصادية حتى سعت إلى السلطة السياسية. وجل ما احتاجت إليه زعيم يجسّد قيمها. وبعض هذه القيم – مثل الديمقراطية والاقتصاد والحرية والاندماج بالغرب – تمتّع بشعبية واسعة. سوى أن هذه الطبقة الجديدة اعتقدت أمرًا آخر أيضًا، مذهلًا، هو وجوب رفع القيود المفروضة على الحرية الدينية ليتمكن الناس من ممارسة إيمانهم بالشكل الذي يرتَؤونه.

أعيد اختراع تركيا مرتين، مذ اخترعها أتاتورك عام ١٩٢٣. وكان أول اللذين أعادا اختراعها هو أوزال الذي تسلّم بلدًا متحجّرًا في الزمن، وأعاد في عقد الثمانينات دمجه بالعالم. أما الثاني فجَرّ تركيا، على رغمها، من القرن العشرين إلى الواحد والعشرين.

يُعرف حي قاسم باشا المتقلّب في اسطنبول، حيث ترعرع رجب طيب أردوغان، بأنه مهد الرجال القساة الذين يتمتعون بمشاعر الشرف الحادة. وكان أردوغان مقاتل شارع تشرّب قيمه. تابع الدراسة في ثانوية الإمام الخطيب ذات التوجه الديني، وباع الليموناضة وحبوب السمسم عند زوايا الشوارع، واحترف، مدة وجيزة، كرة القدم، ثم عثر على وظيفة مع سلطات الترانزيت في اسطنبول. واستقال على أثر نزاع يمكن عدُّه بمثابة إعلانه السياسي الأول؛ أمره رئيسه بحلق شاربيه اللذين قد يُعدان مظهرًا من مظاهر الإسلام، فرفض. ومضى لاحقًا للعمل في شركة «أولكر» وهي أكبر مصنع تركي للحلوى والوجبات الخفيفة. وأمضى سنوات في التعامل مع أصحاب المتاجر شاحذًا مقدرته على الإقناع وبانيًا شبكة من المعارف. ترشّح عام ١٩٩٤ إلى رئاسة بلدية اسطنبول، كمؤيّد للزعيم الإسلامي السياسي نجم الدين أربكان، وفاز. وأثبت في شكل بارز أنه أكثر فاعلية ونزاهة من معظم من سبقوه، لكنه أيضًا أكثر تديّنًا ومحافظة اجتماعيًا.

حقق السياسيون الإسلاميون مكاسب مهمة في تركيا، طوال السنوات القليلة التالية. أخذ المجتمع في الانفتاح وشعر الناس أنهم أكثر حرّية في التعبير عن ورعهم. ثم إنهم طفح بهم الكيل من فساد الزعماء التقليديين وعدم أهليتهم. وأصبح، في المقابل، رؤساء البلديات الذين ظهروا في عقد التسعينات مثالًا للنزاهة والمبادرة.

ولكن لا يمكن، في مثل هذا البلد العلماني، أن ينهض حزب ديني من دون اعتراض. وعندما أصبح أربكان عام ١٩٩٦ رئيسًا للوزراء، بعد قيامه بصفقة فاسدة مع أحد خصومه، زمجر الجنرالات. ثم تزايد غضبهم لما دعا أربكان إلى الانسحاب التركي من حلف شمال الأطلسي، وإلى سياسة خارجية ذات توجّه إسلامي، وإلى مجتمع أكثر تديّنًا رغب في إرسائه ببناء جامع قبالة الساحة الرئيسة في اسطنبول. وأخيرًا، ردّ الجنرالات الضربة في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩٧ عندما نفّذوا ما أطلق عليه الأتراك اسم «انقلاب ما بعد الحداثة». لم يستولوا على السلطة، بل أعلنوا أنهم لن يحتملوا أربكان أكثر من ذلك. ولم يفز حزبه إلا بواحد وعشرين في المئة من الأصوات وفقد الكثير من شعبيته، لذا لم يشتكِ الكثيرون عندما أجبره الجيش على الاستقالة بعد أقل من سنة له في السلطة.

حاول رئيس البلدية أردوغان وغيره من المتمردين الشبان السيطرة على الحزب الإسلامي بعد إطاحة أربكان. لكنهم فشلوا. وعمدوا، بدلًا من البقاء والقتال، إلى ترك الحزب وإنشاء آخر جديد، هو حزب العدالة والتنمية، الذي يُعرف في تركيا باسم AKP . بعيد ذلك، وفي خطاب مرّ، بعض الوقت، من دون أن يلاحظه أحد، ردّد أردوغان بيتًا من قصيدة تركية قديمة:

الجوامع ثكننا، وقببها طواسينا،

مناراتها حرابنا، والمؤمنون جنودنا.

أمسك المدّعون العامون، بضغط من أصدقائهم في الجيش للخروج بقضية ضد أردوغان، بهذه القصيدة. وزعموا أنها تثبت تصميمه على القضاء على العلمانية

واتهموه بالحض على الكراهية الدينية. دِين، وأقيل من منصبه، وحكم عليه بعشرة أشهر في السجن، وحُرم تولي أي منصب سياسي في المستقبل. غير أنه تصرّف بعد الحكم عليه كما لو أنه فاز بجائزة للتو.

ووعد مؤيّديه الهاتفين خارج مبنى المحكمة بأن «هذه الأغنية لم تنته بعد!»

خُلع أردوغان من منصبه الرفيع الذي أوصله إليه الناخبون، ثم أرسل إلى السجن لأن الجنرالات أرادوا تلقينه درسًا. بيد أنه تمتّع في السجن بجناح مفروش بالسجاد وبوجبات طعام تأتيه من الخارج. وأصبح، لدى إطلاقه بعد ذلك بأربعة أشهر، شهيد الحرّية وبطلًا للكثيرين. وأمضى الأشهر التالية يجوب أنحاء البلاد مُنظّمًا حزبه الجديد، العدالة والتنمية. وبات جاهزًا مع الدعوة إلى انتخابات العام ٢٠٠٢.

شن حزب العدالة والتنمية، بقيادة أردوغان الذي أظهر نبوغًا في التنظيم، حملة سياسية حديثة على مستوى القاعدة، الأمر الذي لم يفعله قط أي حزب علماني في تركيا. جال العاملون في الحزب، والكثيرون منهم من النساء، من باب إلى باب مستطلعين آراء الناخبين، فوضعوا لوائح بالمؤيدين ونقلوهم، يوم الانتخاب، إلى مراكز الاقتراع. وجاءت النتيجة انتصارًا ساحقًا. إلا أن أردوغان لم يتمكن من تسلّم منصبه على الفور لأن الحظر السياسي عليه بقي ساري المفعول، فسارعت الجمعية الوطنية الكبرى الجديدة إلى رفعه. وها إن أردوغان يصبح رئيسًا للوزراء بعد أربع سنوات على تلاوته القصيدة.

إنها لحظة المزارعين الأتراك حَمَلة المذاري. لقد تمرّد المناهضون للنخبة وقلبوا النظام القائم. واقتحم الهامشيون أروقة السلطة. وأظهر إمكان الفوز بمثل هذا الانتصار في صناديق الاقتراع قوة الديمقراطية التركية.

شرع أردوغان، فور تسلمه السلطة، في دوامة من الإصلاح لا تشبه شيئًا مما رآه الأتراك منذ أوزال. ألغيت القوانين القمعية التي استخدمت لترهيب المحتجّين. وعُدّل الدستور لقبول سيادة الشرعة الأوروبية لحقوق الإنسان. وألغيت المحاكم

الأمنية، وكذلك عقوبة الإعدام. وضُمنت حقوق السجناء، باستثناء التعذيب الذي استمر في السجون التركية وهو الذي شكّل، طويلًا، لطخة في سجل البلاد في مجال حقوق الإنسان. إلا أن الأكثر إذهالًا هو تحويل مجلس الأمن القومي الذي أرهب الجنرالات من خلاله رؤساء الوزراء طوال عشرين عامًا، مجلسًا استشاريًّا يديره مدنيون.

أضعفت هذه الإصلاحات المؤسسة القديمة في شكل حاسم. وردّ أردوغان على كل شكوى بلازمة بسيطة وذات دوي كبير: علينا أن نغيّر من أجل أن نصبح أوروبيين.

تشكّل قصة مسيرة تركيا الطويلة والمخيبة صوب عضوية الاتحاد الأوروبي ملحمة من الخطوات الناقصة والفرص الضائعة. وهي تعكس علاقة تركيا المعقّدة جدًّا مع أوروبا، والتي تغلّفها قرون من النزاع، والميثولوجيا، ومزيج متقلّب من الخوف والافتتان. وسبق لرئيس الوزراء أوزال أن قدّم عام ١٩٨٧ طلبًا تركيًّا رسميًّا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، سوى أن القادة الأتراك لم يظهروا في سياق عقد التسعينيات الكثير من الحماسة للمشروع. فللاتحاد الأوروبي مجموعة من المعايير يُتوقّع من الأعضاء المُحتملين التزامها: يجب ضمان حرّية التعبير، واحترام حقوق الأقليات، وعمل الحكومة في شفافية، ويجب تنظيم الأعمال عن كثب، وعدم تدخّل العسكر في السياسة. وأدرك الجنرالات الأتراك ورفاقهم في النخبة القديمة أن هذه الإصلاحات ستقوّض سلطتهم. وخلصوا إلى أن الرياء يشكّل الجواب الأفضل: الاستمرار في تأييد مشروع الاتحاد الأوروبي علنًا، مع رفض اتخاذ الخطوات الضرورية للانضمام.

عمّت، أواخر عقد التسعينات، قابلية الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي كل أنحاء المجتمع. ورأى المثقفون الليبراليون والسياسيون والزعماء المدنيون في هذا الانضمام وسيلة لإنجاز تحوّل تركيا إلى الديمقراطية. ورأى فيها المؤمنون الورعون وسيلة لتوسيع حريتهم في ممارسة شعائرهم. وأدركت المجموعات التي تشعر أنها عرضة للاضطهاد من الدولة، بما في ذلك الأكراد والعلويون المسلمون الذين كثيرًا ما تنظر إليهم الغالبية السنية بعين التوجّس، أن على تركيا أن تضمن حقوقهم الثقافية،

إذا أملت في الانضمام إلى أوروبا. كذلك أدرك كبار رجال الأعمال المكاسب الاقتصادية الهائلة التي توفرها العضوية في الاتحاد الأوروبي. واستجاب نوّاب الجمعية الوطنية الكبرى بتمرير سلسلة من الإصلاحات، وكافأهم الزعماء الأوروبيون على جهودهم في قمة هلسنكي أواخر العام ١٩٩٩.

وقالوا في إعلانهم الرسمي إن «الاتحاد الأوروبي يرحّب بالتطورات الإيجابية الأخيرة في تركيا». وأضافوا أن «تركيا دولة مرشحة من المقدّر لها الانضمام إلى الاتحاد على أساس المعايير نفسها التي تنطبق على الدول المرشحة الأخرى».

افترض المنطق أن يبرز من حملة انتخابات العام ٢٠٠٢ زعيم علماني بصفة بطل مشروع الاتحاد الأوروبي. سوى أن أردوغان هو الذي تولّى ذلك الدور. بدا الأمر للوهلة الأولى مُستغربًا؛ فقد تبين أن أكثر الزعماء السياسيين الأتراك محافظة في التديّن هو أيضًا الأكثر حماسة في تأييده أوروبا. وردّ أصحاب التوجه الغربي الأتراك – بعضهم في حماسة أكبر من الآخرين – بالتصويت له على رغم نفورهم من تديّنه.

كان أوّل المحرمات التي انتهكها أردوغان بعد تولّيه السلطة، ذلك الذي يحظر التعبير الديني في الحياة العامة. فلم ترتد زوجته وشاحًا للرأس وحسب – وهو ما حرمها أهلية المشاركة في المناسبات الرسمية العامة – بل رغب في تشريع ارتداء الحجاب في الجامعات. وأصيب بعض العلمانيين الأتراك بالجزع وقد خافوا من أن الحكم الإسلامي على الأبواب وأن المشروع الكمالي برمّته على وشك الانهيار. وردّ أردوغان بأنه لا يفعل سوى الارتقاء بمستوى الحرّية العامة في تركيا إلى المعايير الأوروبية – معايير ما سماه أتاتورك «الحضارة العالمية».

بعد عامين على تولي أردوغان السلطة حرّكت الدول الخمس والعشرون الأعضاء في الاتحاد الأوروبي الطلب التركي إلى ما بدا أنه المرحلة الأخيرة. ووافقوا في قمة في بروكسل على الشروع في مفاوضات رسمية تهدف إلى أن تجعل من تركيا عضوًا

كامل العضوية في الاتحاد. فقد سبق لكل دولة شرعت في مثل هذه المفاوضات، وبقيت مهتمة بالانضمام إلى الاتحاد، أن أصبحت عضوًا فيه في النهاية.

عام ١٥٢٩ ومرّة أخرى عام ١٦٨٣، رُدّت القوات التركية التي سعت إلى احتلال أوروبا على أعقابها عند بوابات فيينا. ولكن يبدو الآن أن تركيا ستتلقى الدعوة لدخول أوروبا. وثبت، بمفخرة، أن عشرة أجيال من الإصلاحيين الأتراك كانوا على حق. فليحيَ رؤيويّو التنظيمات! ولتحيَ تركيا الفتاة! وليحيَ أتاتورك! وليحيَ أوزال! وليحيَ أردوغان!

وقال أردوغان، وهو يطير من الفرح، للصحافيين في بروكسل، بعدما أعلن الاتحاد الأوروبي قراره: «أجرينا، في العامين الأخيرين، إصلاحات جذرية عميقة في مجتمعنا لا طاقة للكثير من الدول الأخرى على تحقيقها في عشر سنين أو عشرين سنة. لقد حققنا تحوّلًا رائعًا كأمة».

حاول الحرس القديم الذي تعوّد إملاء الضوابط السياسية، الدفاع عن سلطته وفشل. وجاءت هزيمته الأكثر إذلالًا عام ٢٠٠٧، عندما أعلن أردوغان أنه سيرشّح رفيقه المقرّب عبدالله غول ليصبح الرئيس المقبل لتركيا، وهو مركز شكّل تقليديًّا قلعة للسلطة الكمالية. فالرجلان يتشاركان المعتقدات الأساسية، سوى أنهما يختلفان في شكل لافت في الأسلوب. فأردوغان، وهو الابن الحقيقي لشوارع قاسم باشا القاحلة، استعلائي وتسهل إهانته وعرضة لنوبات من الغضب. أما غول، الاقتصادي المتدرّب في بريطانيا، فيبتسم غالبًا ويتحدّث، في هدوء، ويسعى كل ما أمكنه ذلك إلى الإجماع.

لم تؤثّر هذه الاختلافات في العلمانيين الأتراك الذين اعتقدوا أن النظام الجديد يخطّط سرًّا لنقل بلادهم صوب الحكم الديني. ونزل مئات الآلاف للتظاهر بعد تسمية غول وهم يرددون هتافات مثل «تركيا علمانية وستبقى علمانية!» ونشر القادة العسكريون في موقعهم على الإنترنت رسالة تؤكّد تصميمهم على «حماية

الخصائص التي لا تتغيّر للجمهورية التركية». وقاطعت أحزاب المعارضة الجمعية الوطنية الكبرى منعًا لاكتمال نصاب انتخاب الرئيس.

تعوّد، في الماضي، كل زعيم تركي يتعرّض لهذا النوع من التوبيخ المباشر من الجيش، أن يتراجع سريعًا. غير أن أردوغان شعر أن الأمة إلى جانبه. فقد أخذ الجيش يفقد من سلطته المعنوية منذ انقلاب العام ١٩٨٠، وفي جزء من ذلك، بسبب سلسلة من الفضائح التي كشفت تعاونه مع المجرمين وفرق الموت. وقد أخذ الأتراك يستمتعون بحرّيتهم الجديدة. وهكذا، بدلًا من أن يسحب أردوغان ترشيح غول ويرشّح شخصًا أكثر قبولًا من الجنرالات، دعا إلى انتخابات عامة جديدة. وحقق انتصارًا ضخمًا حتى أنه حصل على أصوات أكثر من تلك التي حازها في حملته الأولى. وأصبح عبدالله غول، ابن الأناضول المخلص، الرئيس الحادي عشر لتركيا. وقاطع الجنرالات احتفال تنصيبه، وهم الذين منيوا بخسارة جسيمة.

حدث أمر تاريخي حقًّا في تركيا خلال العقد الأول من القرن الجديد. ولا يتعلّق الأمر، فحسب، بتحقيق البلاد اختراقها الحاسم للديمقراطية، وهو ما كان مؤكّدًا وقوعه عاجلًا أم آجلًا. إلا أن الأكثر استثنائية هو واقع أنها المرة الأولى في التاريخ الحديث يقود حزب ذو جذور إسلامية بلدًا ما صوب الديمقراطية.

استنتج الباحث التركي- الأميركي حقّان يافوز أن «الحال التركية تطعن في فرضيتين استشراقيتين مسيطرتين، وهما: أن ليس هناك تلاؤم بين الإسلام والديمقراطية من جهة، والرأسمالية والإسلام، من جهة أخرى». وأضاف أن «المجتمع التركي المعاصر هو في الغالب براغماتي أكثر مما هو أيديولوجي، وشامل أكثر مما هو حصري، وغير عنفي في الأساس... وقد تحوّلت الصيغة السابقة القاضية بحماية الدولة من المجتمع، صيغة تتبنى حماية المجتمع من تدخّل الدولة. وليس الجيش هو عامل التغيير الجديد في تركيا بل البورجوازية الآخذة في التطوّر وطبقة المثقفين الجديدة»[1].

(١) M. Hakan Yavuz, ed., *The Emergence of a New Turkey: Democracy and the AK Party* (Salt Lake City: University of Utah Press, 2006), pp. 7, 3, 17.

لا يمثّل نجاح أردوغان وحزبه، العدالة والتنمية، فوزًا للسياسة الإسلامية في تركيا، بل إنه يشكّل العكس تحديدًا: أي وفاتها. فقد باتت الديمقراطية خيار تركيا الوحيد. ويعترف حتى المسلمون المتدينون بهذا ويقبلونه ويحتفون به.

قال أردوغان لحضور في واشنطن، بعد وقت قليل على انتخابه، إن «حزبنا هو نتاج للاستمرار». وأضاف أن «ثمة صحف غربية ومنشورات تصف حزبي بأنه «حزب إسلامي» أو يصفوننا بأننا «ديمقراطيون مسلمون». وهذه التوصيفات ليست صحيحة. وليس هذا لأننا لسنا مسلمين أو لسنا ديمقراطيين، بل لأننا نعتقد وجوب النظر إلى الاثنين في سياقين مختلفين تمامًا... فتركيا تريد المضي بـ«وثيقتها العظمى للحريات» (الماجنا كارتا)، التي تشكّل توليفة من الهوية الإسلامية والقيم المعاصرة، إلى ما هو أبعد لتصبح قائدًا فاعلًا في تعزيز القيم المعاصرة، وإعطاء العالم منظورًا نهضويًّا جديدًا ومُلهِمًا»[1].

خاب أمل كل من الأتراك والإيرانيين، بعد عقد الثمانينات، بنظاميهما السلطويين. وسعوا إلى طريقة تعيد إليهم الديمقراطية. وقد عثر الأتراك على واحدة؛ أما الإيرانيون فلم يعثروا. لماذا؟

برهنت المؤسسات التي أنشأها أتاتورك ورفاقه أنها أكثر مرونة، وبالتالي أكثر استمرارًا من تلك التي أنشأها رضا شاه. فالديمقراطية التركية تستجيب إرادة الشعب، ولو في بطء وفي شكل أخرق. فهي تتطور مع روح العصر. وأتاتورك لم يمنح الأتراك الديمقراطية، بل أوجد الشروط التي سمحت للديمقراطية بالظهور بعد وفاته.

وقال الغازي لما بدأت قواه بالاضمحلال: «أنا لا أخلّف ورائي موعظة ولا عقيدة، ثم إنني لا أترك، كإرث لي، أي وصيّة جامدة في الزمن أو محفورة في الصخر». وتابع: «إن مفاهيم حسن رفاهية البلدان والشعوب والأفراد تتغيّر. والمحاججة، في

(١) المصدر السابق، ص. ١١٨.

مثل هذا العالم، لقواعد لا تتغيّر أبدًا تعني نكران الحقيقة الموجودة في المعرفة العلمية وفي الحكم العقلاني على الأمور».

وهنا يقع مفتاح نجاح تركيّا كأمّة. فقد أثبتت أنها قادرة على التكيّف مع الزمن. وقد أنشئت تركيا كدولة تسلّطية، زمنَ سيطرت فكرة التسلّط. ولما أصبحت الديمقراطية معتقدًا عالميًّا جديدًا بعد الحرب العالمية الثانية، انتقلت تركيا سلمًا من حكم الحزب الواحد إلى الحكم المتعدّد الأحزاب. ولما شرع العالم في استخدام حقوق الإنسان كمسطرة للقياس مع الدول، أعطت تركيا مواطنيها مزيدًا من الحقوق. ولما قرر الأتراك أنهم يريدون المزيد من الحرية الدينية فسح لهم النظام السياسي في المجال للتعبير عن أنفسهم سلمًا، ولينتخبوا، في مآل الأمر، بطلهم لقيادة البلاد.

ولكن حدث العكس في إيران. فالحكم البهلوي المطلق خنق التطور الطبيعي للديمقراطية. وأدى ذلك إلى الانفجار الذي أوصل إيران إلى المشكلة الراهنة.

بنى أتاتورك المؤسسات، فيما أصبح رضا مهووسًا بسلطة العائلة، وأراد فوق كل شيء ضمان طريق وصول ابنه إلى العرش من دون عائق. واستحال عليه بذلك تعزيز الديمقراطية التي ترفض توريث السلطة.

يعتقد بعض المؤرخين الأميركيين أن من حسن حظ أميركا أن جورج واشنطن كان من دون أولاد، وإلّا لوقع تحت ضغط إنشاء سلالة حاكمة نظرًا إلى فكرة الملكية السائدة في عصره. وينطبق الأمر نفسه على أتاتورك الذي لم يكن له ولد يمكنه أن يحكم تركيا بعد غيابه. وأصبح، في جزء من ذلك، حرًّا في الأمل في أن يتمكن الأتراك يومًا ما من حكم أنفسهم بأنفسهم.

ويوجد عامل آخر يساعد أيضًا في شرح المصيرين الحديثين المختلفين لتركيا وإيران، وهو التدخّل الخارجي. فقد سار البلدان، في الطريق إلى منتصف القرن العشرين، على درب الحكم الذاتي. أجرت تركيا أول انتخابات متعددة الأحزاب برز فيها ابن النسيج البلدي الشعبوي عدنان مندريس. وفي إيران انتُخب البطل

الديمقراطي محمد مصدّق رئيسًا للوزراء. وبدت الطريق سالكة في البلدين إلى الديمقراطية التامة. إلا أن التدخّل الخارجي أخرج إيران عن السكّة.

شكّلت الرغبة العاطفية في التحديث التي سيّرت أتاتورك ورضا، مفتاح نجاحاتهما، إلا انها امتلكت جانبًا مظلمًا. كره الرجلان كلاهما التقليد، الاجتماعي منه أو الديني أو المدني أو الثقافي، على السواء. واعتقد كلاهما بوجود حضارة واحدة ذات شأن على الأرض – سمياها «عالمية»، غير أن الجميع أدرك أنهما يعنيان بها الأوروبية – وطالبا شعبيهما باعتناقها. وحتمت نزعتهما المتشددة أن يتأرجح الرقّاصان التركي والإيراني يومًا ما عائدين صوب العادات والمعتقدات الشديدة التجذّر.

أنقذ رضا شاه إيران من التفكك وفرض نظامًا اجتماعيًّا جذريًّا جديدًا، غير أن أسلوبه الديكتاتوري أسس لنمط أصاب شعبه، مذذاك، كالطاعون. وكان إرث أتاتورك أكثر إيجابية، لكنه مختلط أيضًا. فإخلاصه للجيش جعل منه، على مر الأجيال المقبلة، المؤسسة الطاغية في تركيا، فتدخّل في السياسة وقمع الاندفاعات الديمقراطية، ودفع البلاد إلى مواجهات هي في غنًى عنها. وأوجد النظام التربوي الذي وضعه، أمّة من القرّاء، إلا أن نزعته العرقية وتركيزه على التعليم بالحفظ عن ظهر قلب أنتجا أذهانًا ضيقة لا تجادل. وسبَّب رفضه الاعتراف بالهوية الكردية نزاعًا استعر طوال عقود، وكذلك قراره عدم التحقيق في مصير الأرمن العثمانيين، وهذا فشل محيّر بما أن مجازر العام ١٩١٥ ارتكبها ثلاثي تركيا الفتاة الذي كرهه.

تطورت الديمقراطية التركية على غرار الكثير من الديمقراطيات الأخرى، في صورة متقطّعة وغير منتظمة، مع انتكاسات مؤلمة، إضافة إلى قفزات إلى الأمام. وفشلت في نهاية المطاف كل الجهود الآيلة إلى إعادة فرض النظام التسلّطي. فقد أضحت للعادات الديمقراطية، التي ترسخت، في بطء عبر الاجيال، جذور عميقة في الروح الوطني.

اعتنق الإيرانيون الديمقراطية بالحرارة نفسها التي اعتنقها بها الأتراك – وربما بحرارة أكبر لأنهم أمضوا وقتًا طويلًا جدًّا لا يتمتعون إلا بالقليل جدًّا منها. وكلا الشعبين وارث قرون من الكفاح من أجل الحرية. وليس لأي دولة مسلمة أخرى في الشرق الأوسط ما يقارب هذا التاريخ.

يرى الكثيرون من الإيرانيين أن ثورة العام ١٩٧٩ فشلت، بعدما أثبت قادتهم الدينيون عجزهم عن إدارة المجتمع أو الاقتصاد. فألوف الإيرانيين الموهوبين يعيشون في الخارج غير قادرين على العمل على تحسين بلادهم، لأن النظام ولّد مجتمعًا يشعرون فيه أنهم مقيّدون ومقموعون. وأصبحت إيران، وهي أحد أقدم مجتمعات العالم وأكثرها ثقافة، دولة منبوذة قادها زعماؤها الدينيون إلى العزلة، فضلًا عن أنهم دمّروا آمال الأجيال.

أما في تركيا، فأنتج الوعي الديمقراطي ديمقراطيّة. ويتمتع هذا الوعي بالقدر نفسه من القوة في إيران، بل وأقوى. ولا يُفترض بواقع أنه لم يؤدّ إلى ظهور الديمقراطية، أن يحجب قوته. فالإيرانيون، على غرار الأتراك، استوعبوا جوهر الديمقراطية. وهي لا تشكّل بالنسبة إليهم مجموعة من القواعد التي يؤتى بها من الخارج، بل إنها جزء من تقليدهم الفطري. وما انتفاضتهم العفوية على أثر انتخابات العام ٢٠٠٩ المتنازع عليها إلاّ برهان لولعهم بالديمقراطية.

تشكّل تركيا الدولة الوحيدة في العالم التي يمكن الإيرانيين زيارتها من دون تأشيرة دخول. وتُعدُّ رحلة شركة الخطوط الجوية التركية من طهران إلى اسطنبول بمثابة بوح. فالنساء يصعدن إلى الطائرة مرتديات الزي الوحيد اللون الذي ينبغي لهن ارتداؤه في الديار. وما إن تحلّق الطائرة حتى يشرعن في الاصطفاف أمام المرحاض ليحدث في داخله تحوّل عجائبي. تدخل المرأة محجّبة عديمة الشكل، وتخرج امرأة على الموضة بلباس ملوّن وحلى وتبرّج. وهي كثيرًا ما تتوج زيّها بابتسامة مشرقة مملوءة بالثقة بالذات.

يريد الإيرانيون الحرّية التي يتمتع بها جيرانهم الأتراك. ويوحي التاريخ أنهم سيحصلون عليها ولو أن قلّة تجرؤ على التخمين متى أو بأي ثمن. فتركيا وإيران هما البلدان المسلمان الوحيدان اللذان للديمقراطية فيهما جذور عميقة. وهو ما يجعل مستقبلهما مشرقًا وما يجعلهما أيضًا الشريكين المنطقيّين لأميركا.

الجزء الثالث

بعيدون كلّ البعد

٦
أنت تكسب أيها الأصلع النحس.

لا تسمح النُظم العسكرية بذبح الخراف على سطح السفن الحربية الأميركية، لكنها لا تمنعه أيضًا، وهو ما سمح بإقامة واحدٍ من أغرب تحالفات القرن العشرين.

لمّا أوشكت الحرب العالمية الثانية الانتهاء، اجتمع الرئيس فرانكلين د. روزفلت مع اثنين من حلفائه في الحرب، ونستون تشرتشل وجوزف ستالين، في يالطا في شبه جزيرة القرم. وصاغ مؤتمرهم مصير أوروبا ما بعد الحرب.غير أن روزفلت لم يخبر أيًّا من زميليه، لدى مغادرته، أنه لا ينوي الإبحار عائدًا فورًا إلى بلاده. بل إنه توجه، بدلًا من ذلك، إلى لقاء سرّي سيثبت، في العقود التي تلي، أنه يوازي في أهميته اجتماع يالطا الأكثر شهرة. وامتقع لون تشرتشل عندما علم الأمر، وكان فات الأوان.

سبق للملك عبد العزيز بن سعود، وهو الزعيم الذي خطط روزفلت للقائه، أن أنشأ قبل ثلاثة عشر عامًا فقط دولة في شبه الجزيرة العربية أطلق عليها اسم عائلته: المملكة العربية السعودية.

رزح شبه الجزيرة العربية، طوال عقود تحت السلطان البريطاني، مثل معظم الشرق الأوسط. سوى أن بريطانيا أخذت تصبح قوة في طور الأفول، في وقت شرعت الولايات المتحدة في النهوض، واحتاجت إلى شريك شرق أوسطي. وبدا

ابن سعود، الذي يسيطر على صحراء واسعة غنية بالنفط في حجم أوروبا الغربية، الشريكَ المثالي.

أحيطت التحضيرات لهذا الاجتماع بالكتمان الشديد، فلم يعرف به إلا خمسة أشخاص فقط في المملكة: الملك ووزير خارجيته، والسفير الأميركي وزوجته، والموظف المسؤول عن الشيفرة في السفارة الأميركية. سافر ابن سعود إلى ميناء جدّة متحجّجًا برغبته في زيارة مدينة مكّة المقدّسة المجاورة. واختار في جدّة مئتي شخص من حاشيته لمرافقته. ولمّا انطلقوا أمر الوفد بعدم التوجه إلى مكة بل إلى الميناء، حيث كانت المدمّرة الأميركية مورفي في انتظاره لتقلّه وتتوجه به للقاء روزفلت.

للملوك السعوديين أسلوبهم الخاص بالسفر. فقبل أن يصعد ابن سعود إلى المدمرة مورفي، اقتربت منها زوارق شراعية كبيرة عدة تحمل أطنانًا من الحبوب والخضر ومئة خروف. أصرّ القبطان على استحالة نقل هذه الحمولة إلى السفينة. ودار جدال، إلى أن وصل في النهاية السفير الأميركي وليام إدّي، وهو عقيد متقاعد في البحرية، لتهدئة الأمور– مما جعل منه الأول في عدد كبير من الأميركيين الذين سعوا إلى ردم الهوّة الثقافية والنفسية الكبيرة بين مواطنيهم والعرب الوهّابيين. وشرح، في صبر، لحماة الملك أن سفن البحرية تحتوي كمًّا كبيرًا من المؤن. وأصيب ابن سعود، غير المتآلف مع التبريد، بالحيرة، لكنه لانَ بعدما أُخبر أن الضباط الأميركيين سيُعاقبون، في شدّة، إذا سمحوا بإدخال مؤونته إلى سفينتهم. إلا أنه أصرّ على أن يتوافر اللحم الطازج له ولمساعديه على الأقل. وسُمح، في النهاية، بإصعاد سبعة خراف إلى المتن إلى جانب ثلاثة وأربعين من أفراد الحاشية الملكية. ومع إقلاع السفينة، كان شُرع بالفعل في سلخ أحد الخراف – في ما يُقال إنها المرّة الوحيدة يذبح مسلمون شرعًا حيوانًا على سطح سفينة حربية أميركية.

غطّى السعوديون جزءًا من السطح بالسجاد، ونصبوا خيمة سماها البحّارة «الغطاء الكبير»، وصلّوا في انتظام؛ وأطلعهم الملّاح على الجهة التي يجب الاستدارة إليها

لمواجهة مكّة، وهو ما أكّده المنجّم الملكي. وحضّر الطهاة السعوديون القهوة في أبراج المدافع. وجاب عبيدُ النُوبَة، بطولهم الذي يبلغ سبعة أقدام وبسيوفهم المتدلية من أحزمته، السفينة كالمسحورين.

استطيب ابن سعود بعضًا من الأطباق الأميركية، وأحب، خصوصًا، فطيرة التفّاح مع البوظة؛ وأمر، من ثم، بزراعة أشجار التفاح في السعودية.إلا أنه أُعجب أكثر ما يكون باستعراض المدافع المضادة للطائرات وقنابل الأعماق الذي أقامه ضبّاط السفينة خصّيصًا له. وأثبتت فطيرة التفاح والأسلحة المتطورة أنها تركيبة جذّابة.

شاهد الملك في هذه الرحلة أيضًا فيلمًا سينمائيًّا للمرة الأولى في حياته. واستمتع خصوصًا بوثائقي عنوانه سيّدة الحرب The Fighting Lady، وهو يصف جهاز التشغيل على متن حاملة الطائرات. بيد أنه قال بعد ذلك للسفير إدّي إن الأفلام هي بين الكثير من المنتوجات الأجنبية التي لا يريد وجودها في مملكته.

قال: «لا أعتقد أن على شعبي الحصول على صور متحرّكة، ولو كانت مثل هذا الفيلم الرائع... فهو سيثير لديهم الشهية للتسلية ويلهيهم عن واجباتهم الدينية».

يشكّل الرياء جزءًا أساسيًّا من الحياة السعودية. فاعتقاد ابن سعود بالتنجيم، على سبيل المثال، يشكّل انتهاكاً مباشرًا للشرع الإسلامي، وكذلك نقطة ضعفه حيال ويسكي «جوني ووكر بلاك ليبل». ومن غير المفاجئ، آنذاك، أن تلتهم الحاشية الملكية، المؤلفة في جزئها الأكبر من الأمراء، الأفلام التي تُعرض لأفراد الطاقم حتى لو أفتى مليكهم بوجوب عدم عرضها قط لعامة الشعب. وقد وصف السفير إدّي المشهد في إحدى مذكّراته:

> بعدما عُرضت الأفلام الوثائقية على سطح السفينة وأوى الملك إلى فراشه ليلًا، عرض الفيلم المألوف للطاقم تحت السطح. وبلغ السرّ مسامع ابن الملك الثالث، الأمير محمّد، الذي أخذني جانبًا إلى السياج، في صباحه الأول على المتن، وسألني في هدوء هل أُفضل أن يقضي عليّ دفعة واحدة، أو أن يقطّعني،

قطعة تلو قطعة، أجزاء صغيرة. سألته ما القضية؟ فأجابني أن أفلام هوليوود تُعرض تحت السطح من دون أن يُدعى إلى حضورها. ذكّرته، مستهولًا، أن والده الملك لن يوافق على حضور أي عربي، ناهيك بأبنائه، هذا العرض الأثيم لنساء نصف عاريات، ورجوت منه نسيان الأمر. لم يقل الكثير، سوى أن ما تفوّه به تميّز بالتوكيد – إلى حد أنه إما أن يشاهد هذه الأفلام وإما أن يصبح أولادي أيتامًا في وقت قريب، وأقسمَ بأنني إذا استجبت طلبه فسيحتفظ بالسر ولن يخبر والده.

وفي اختصار، جلس الأمير محمد والأمير منصور، تلك الليلة، في الصف الأمامي للعرض المتأخر المخصص للطاقم لفيلم من بطولة لوسيل بول التي تؤدي دور الفاسقة في منامة معهد للرجال، في وقت متقدم من الليل، وهي بالكاد تنجو من مغامرات طائشة يتمزّق فيها فستانها. وقوبل الفيلم بصفير الطاقم وبصياحه وتصفيقه، وشارك الأميران كلّيًّا في هذا الاستحسان. وحضر العرض التالي للفيلم ما لا يقل عن خمسة وعشرين عربيًّا. ومن حسن الحظ، على حد علمي، أن أخبار هذه العربدة لم تبلغ مسامع الملك.

استغرقت مورفي ليلتين ونهارًا لبلوغ وجهتها في البحيرة المرّة الكبرى الهادئة في قناة السويس، حيث انتظره روزفلت على متن الطرّاد كوينسي. أهدى ابن سعود، قبل مغادرته مورفي، قبطانها دشداشة وخنجرًا ذهبيًّا، وساعات ذهبية نُقش عليها اسمه للضبّاط، ومبلغًا ماليًا لكلّ من البحّارة. وقُدّمت إليه في المقابل الأشياء التي أعجبته أكثر ما يكون خلال رحلته: منظار ورشّاشان حربيّان.

اقتربت مورفي من كوينسي صبيحة الرابع عشر من شباط/فبراير ١٩٤٥. وعبر ابن سعود، بعيد العاشرة، السلّم المتحرّك، حيث استقبله روزفلت في حرارة. إنه يوم عيد العشّاق، الوقت المناسب للقيام بتحالف.

كان روزفلت واهنًا ومريضًا – سيموت بعد ذلك بثمانية أسابيع بالتمام – لكنه،

بحسب السفير إدّي، تميّز في محادثاته مع ابن سعود بأن كان «المضيف الساحر، والمحادث اللبق، مع شرارة الضوء تلك في عينيه وابتسامته اللطيفة التي تشدّ دومًا الناس إليه كلّما تحدّث معهم كصديق». وقد شرعا في مناقشة آفاتهما الجسدية، ولمّا اشتكى ابن سعود من آلام في ساقه تجعل من الصعب عليه السير، أصرّ روزفلت على إعطائه الكرسي المتحرّك الإضافي الذي يبقيه دومًا على مقربة منه. لكنه لم يتسع لابن سعود ـ وهو أضخم بكثير من روزفلت ـ فوجد لما تبقّى من حياته متعة في عرضه على زوّاره على أنه «أثمن ما أمتلكه... هديّة من صديقي الكبير والطيّب الرئيس روزفلت تغمّده الله بواسع رحمته».

أمضى الزعيمان خمس ساعات معًا، وأجمعت الآراء على أنهما اتفقا في شكل رائع. وسبق لابن سعود أن مال لمصلحة الولايات المتحدة. فقد عالج الأطباء المُرسلون الأميركيون آلاف السعوديين مجانًا. وكان ابن سعود نفسه أحد أولئك المرضى وقد أصيب بالتهاب حاد في العين، فاستدعى على عجل رئيس البعثة الطبية الأميركية الذي شفاه في مدة قصيرة. ولاحظ التفاوت الظاهر الذي شاهده أيضًا الإيرانيون وغيرهم في الشرق الأوسط: فقد جاء الأوروبيون للقمع والنهب، فيما لم يأتِ الأميركيون إلا للمساعدة(١).

ويوجد سبب آخر لتفضيل ابن سعود فكرة التحالف مع الأميركيين. وقد اعترف به بعد ذلك بسنوات كثيرة عندما سأله أحد الأميركيين عن سبب اختياره تبنّي الولايات المتحدة بدلًا من قبول العروض التي حصل عليها من شركات النفط البريطانية والفرنسية والألمانية.

وأجاب: «لأنكم بعيدون كثيرًا»(٢).

انتهى روزفلت من دعاباته، ليسأل ابن سعود هل يساند فكرة الدولة اليهودية في

(١) William A. Eddy, *FDR Meets Ibn Saud* (NewYork: American Friends of the Middle East, 1954); James Wynbrandt, *A brief History of Saudi Arabia* (New York: Facts on File, 2004), pp. 197– 98.

(٢) Parker T. Hart, *Saudi Arabia and the UnitedStates: Birth of a Security Partnership* (Bloomington: Indiana UniversityPress, 1998), p. 38.

فلسطين. وأخبره الملك أنه لا يستطيع، وحذّره، في حال إنشاء مثل تلك الدولة، من أن «تنشق السماء، وتتمزّق الأرض، وتهتزّ الجبال لما يطالب به اليهود في فلسطين على الصعيدين المادي والروحي». وسأله روزفلت عما يمكن تقديمه من خيار آخر إلى ألوف اليهود الذين هم من دون مأوى، والخارجون من معسكرات الاعتقال.

أجابه الملك: «أعطوهم وذرّيتهم أفضل أراضي الألمان الذين اضطهدوهم وبيوتهم... ما الضرر الذي ألحقه العرب بيهود أوروبا؟ فالمسيحيون الألمان هم الذين سرقوا بيوتهم وحياتهم. اجعلوا الألمان يدفعون».

وانتقل الزعيمان، من ثم، إلى الموضوع الرئيس: النفط. وقال روزفلت إن السعودية ستنتج الكثير منه، وهي لن تحتاج إلى أسواق له وحسب بل إلى قوّة حامية أيضًا. وأكد لابن سعود أن أميركا، ومهما يحدث في المستقبل، لن تجتاح بلاده أبدًا أو تحتلّها. وذلك ما رغب الملك في سماعه. وقال إنه يكن الإعجاب للولايات المتحدة بصفة كونها قوّة لم تستعمر أحدًا، وإنه يثق بروزفلت لأنه أثبت أنه بطل الحرّية. وأكد أن السعودية ستبقى شريكًا وفيًا، ما احترمت الولايات المتحدة الاستقلال السعودي.

وكتب السفير إدّي، الذي تولّى الترجمة في هذه الاجتماعات، أن «الرئيس قدّم، حينذاك، إلى ابن سعود ضمانًا مزدوجًا عاد وكرّره في رسالته إلى العاهل السعودي المؤرخة في الخامس من نيسان/أبريل ١٩٤٥، أي قبل وفاته بأسبوع: (١) أنه شخصيًا كرئيس لن يقوم أبدًا بما يثبت أنه معاد للعرب؛ (٢) وأن الحكومة الأميركية لن تقدم على أي تغيير في سياستها الأساسية المتعلّقة بفلسطين من دون تشاور مسبق مع كل من اليهود والعرب. وتساوى هذان الضمانان الشفهيان، بالنسبة إلى الملك، مع التحالف؛ ولم يتوقّع أن اجنحة الموت تنتظر لتنقل المتحدّث قبل أن يتم الوفاء بالوعود».

وأُبرم بذلك تحالف مصيري. وسرعان ما تبيّن أن السعودية تمتلك ربع نفط

COURTESY OF DR. THOMAS M. RICKS ©

الأميركيان اللذان كانا من أوائل أبطال الكفاح الإيراني من أجل الديمقراطية. وقد قُتل المدرّس المولود في نبراسكا، هوارد باسكرفيل (إلى اليمين) وهو يقاتل دفاعاً عن الديمقراطية في مواجهة الثورة الملكية المضادة في ١٩٠٩. وأصبح مورغان شوستر (تحت) بعد إحلال الديمقراطية أمين الصندوق العام للإمبراطورية الفارسية وساعد في تنظيم المقاومة في وجه المحتلين الروس والبريطانيين.

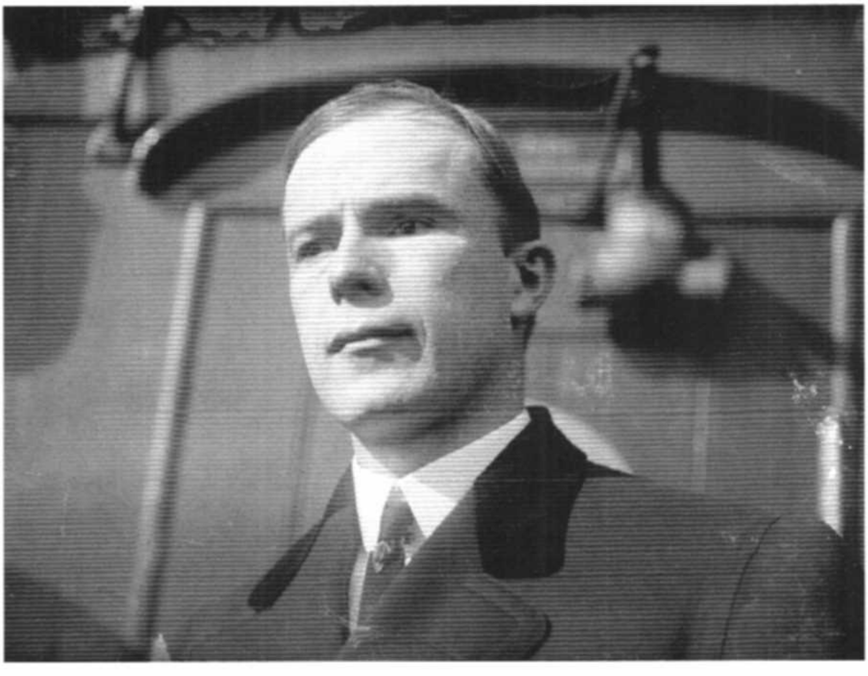

LIBRARY OF CONGRESS, PRINTS & PHOTOGRAPHS DIVISION

كان الرئيس التركي كمال أتاتورك (إلى اليسار) داعيةً إلى الحداثة بحماس، وحوّل بلاده إلى أول دولة علمانية في العالم الإسلامي. أما في إيران فتمتع رضا شاه (الذي يظهر تحت مع ابنه وخليفته محمد رضا) بالقدر نفسه من الراديكالية إلا انه شكّل نمطاً من الحكم القمعي. سافر رضا إلى تركيا في ١٩٣٤ للقاء أتاتورك؛ وأظهرهما أحد الملصقات بأنهما من بناة الأمة الأباة.

ROGER VIOLLET/ROGER VIOLLET COLLECTION/GETTY IMAGES

KEYSTONE/HULTON ARCHIVE/GETTY IMAGES

أصبح بلدا أتاتورك ورضا شاه، بعد وفاتهما، أكثر ديمقراطية. وقد دعا الرئيس التركي عصمت إينونو (فوق) في ١٩٥٠ إلى انتخابات حرّة وتخلّى راضياً عن السلطة بعد خسارة حزبه. أما رئيس الوزراء محمد مصدّق (تحت إلى اليمين)، الجالس مع وزير خارجية الولايات المتحدة دين أتشيسون، فهو أكثر القادة الذين حظيت بهم إيران ديمقراطية، لكن السي. آي. إي. أطاحته بعد تأميمه الصناعة النفطية لبلاده.

DEPARTMENT OF STATE, COURTESY HARRY S. TRUMAN LIBRARY

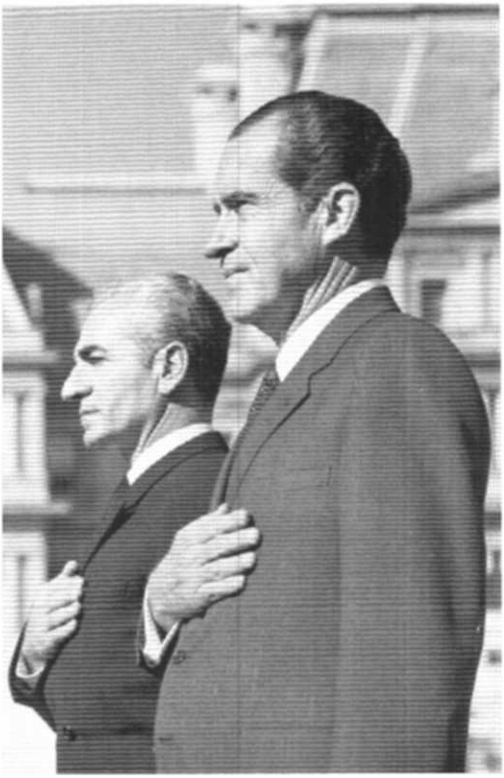

استمر الشاه محمد رضا بهلوي (إلى يسار الرئيس ريتشارد نيكسون) على مدى ربع قرن ديكتاتوراً لإيران وحليفاً وثيقاً للولايات المتحدة. وأدى حكمه القمعي المتزايد إلى إشعال الثورة الإسلامية في ١٩٧٩ التي جاءت إلى السلطة بنظام معاد لأميركا تزعمه رجل الدين المسلم آية الله روح الله الخميني (في الوسط، تحت).

GEORGE BUSH PRESIDENTIAL LIBRARY AND MUSEUM

أعيد خلق تركيا مرتين بعدما اخترعها أتاتورك في العشرينيات. وعمد رئيس الوزراء (ولاحقاً الرئيس) تورغوت أوزال، ويظهر مبحراً في البوسفور مع الرئيس جورج هـ. و. بوش (فوق)، إلى تحطيم دولة الحماية وتحدّي المحرّمات القديمة. وخرج رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان (إلى اليمين)، الذي تولى السلطة في ٢٠٠٣، من خلفية إسلامية سياسية لكنه فاخر باعتناقه المثل الديمقراطية الرأسمالية.

COURTESY HARRY S. TRUMAN LIBRARY

اعترف الرئيس هاري ترومان رسمياً بدولة إسرائيل بعد ١١ دقيقة على إعلانها في أيار/مايو ١٩٤٨. وقد ساهم صديقه الأوثق، إدي جاكبسون (إلى اليمين، فوق)، في إقناعه بالقيام بذلك. ومن يومها أصبحت إسرائيل والولايات المتحدة حليفتين كما ينعكس ذلك في إشارات الشوارع عند أحد تقاطعات القدس.

SETH J. FRANTZMAN

COURTESY OF FRANKLIN D. ROOSEVELT PRESIDENTIAL LIBRARY

شكّلت السعودية الحليف الرئيسي الآخر للولايات المتحدة. وقد توثّق الرباط بين البلدين خلال لقاء سرّي عام ١٩٤٥ في اجتماع بين الرئيس فرانكلين د. روزفلت والعاهل السعودي الملك عبد العزيز بن سعود. واحتضن الرؤساء الأميركيون المتعاقبون جميعهم هذا التحالف، والأكثر ظهوراً من بينهم هو الرئيس جورج و. بوش (تحت) مع الملك عبدالله أحد أبناء ابن سعود.

JIM WATSON/APP/GETTY IMAGES

INGRAM PINN/FINANCIAL TIMES

بعدما تجهّم الاتحاد الأوروبي لفكرة القبول بانضمام تركيا إليه، شرع رئيس الوزراء أردوغان في تعميق روابط بلاده بدول الشرق الأوسط وآسيا. وأعطت هذه الروابط دوراً جديداً لتركيا بوصفها صانعة القرارات الإقليمية والسلام، فيما أثارت المخاوف من أنها ربما تنحرف عن مبادئها العلمانية وتحالفاتها القديمة.

AUTHOR'S COLLECTION

على أثر الانتخابات الرئاسية المُختلَف عليها في حزيران/يونيو ٢٠٠٩، نزل الإيرانيون إلى الشوارع في موجة من الاحتجاجات التي أثارت العالم جدّاً. وقد رغب الكثيرون في العودة إلى الديمقراطية التي تمتع بها أجدادهم في عهد مصدّق. ويحمل المتظاهر في الصورة صورة لمصدّق وللمرشح الرئاسي الإصلاحي مير حسين موسوي، وقد كُتب في أعلاها «لن ندع التاريخ يكرّر نفسه».

العالم. وباعت كمّيات كبرى منه من الولايات المتحدة، وأعادت الكثير من المال الذي كسبته إليها لدفع ثمن منظومات الأسلحة المتطوّرة، وأسهمت، في سخاء، في نصرة الحركات المعادية للشيوعية التي تدعمها أميركا حول العالم. ووفّرت الولايات المتحدة في المقابل الحماية لنظام آل سعود وامتنعت عن التحقيق في وقائع الحياة السعودية المثيرة للقلق.

أعطى اللقاء على متن السفينة بين روزفلت وابن سعود الحياة لواحدة من العلاقتين الأميركيتين الأساسيتين في الشرق الأوسط. ولم تلبث الأخرى، مع إسرائيل، أن ظهرت من بعدها. وصاغت هاتان العلاقتان السياسة الأميركية في الشرق الأوسط طوال أكثر من نصف قرن، على أساس مبدأ دائم في واشنطن مفاده: ما تتمناه السعودية تحصل عليه السعودية؛ وما ترغب فيه إسرائيل تناله إسرائيل.

شكّلت إيران، لحقبة من ذلك الزمن حليفًا وثيقًا لأميركا، سوى أن هذا التحالف انهار، عن آخره، بعد إطاحة محمد رضا شاه عام ١٩٧٩. كذلك شكّلت تركيا، بصفة كونها عضوًا في حلف شمال الأطلسي، حليفًا للولايات المتحدة، غير أنها لا تمتلك لا النفط ولا هوية أمنية متميّزة. وأضحت السعودية وإسرائيل بالتالي شريكتي واشنطن الحميمتين في الشرق الأوسط طوال نصف القرن الماضي.

وقد تجمّدت هاتان العلاقتان في الزمن. ولم تتطوّرا مع تطوّر العالم. وأسوأ من ذلك أنهما أثبتتا أنهما ليستا على مستوى تحدّي السلام. وباتت العقود التي صاغت فيها الولايات المتحدة سياستها الشرق الأوسطية بحسب ما ترى فيه مصالح السعودية وإسرائيل عقودًا من الحرب والارهاب والحرمان والحقد المتزايد. وأضحت أيضًا عقودًا فقدت فيها الولايات المتحدة الكثير من الدعم والنفوذ والقوة الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وسيستمر الأمر على هذا المنوال، ما بقيت هاتان العلاقتان من دون تغيير.

يُفترض، عادةً، أن ترتكز صداقة أميركا مع السعودية على حاجتها إلى النفط.

وكثيرًا ما توصف علاقتها بإسرائيل بأنها تستند إلى القيم المشتركة. وكلتا هاتين البديهيتين صحيحة، لكنها لا تخبر الرواية بكاملها.

لم تعط أميركا أهمية لأي شيء، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، أكثر من الأهمية التي أولتها لخوض الحرب الباردة. وانضمت بلدان كثيرة إلى هذا الصراع. وتعاون معظمها في ضوء النهار؛ فدانت القوة السوفياتية وانضمت إلى حلف شمال الأطلسي أو أيّدته، وساندت أميركا في الأمم المتحدة. لكن عدد هذه البلدان تقلّص ما إن تعلّق الأمر بمعارك الحرب الباردة التي خيضت، في صفة غير مشروعة، في الخفاء، ومن دون قواعد. ولم تكن إسرائيل ولا السعودية قط في عداد المتخلّفين، ما جعل منهما أفضل شريكين لواشنطن – بل وربما الشريكان اللذان لا غنى عنهما – في المواجهة العالمية التي دارت في تلك الحقبة.

أحب منتقدو هاري ترومان المزدرون به تعييره في معظم حياته، بما في ذلك سنواته كرئيس، على أنه «بائع الملابس الفاشل». وقد أدار وشريكه محلًّا لبيع الملابس الرجالية في كنساس سيتي، «ترومان وجاكبسون»، انهار بالفعل بعد ثلاث سنوات تاركًا الرجلين غارقين في الديون. ويشكّل ارتقاء ترومان من هذا الفشل إلى قمة السلطة العالمية، القصة الأميركية الجوهرية المألوفة عن الانتقال من الفقر إلى الغنى. غير أن قصة إدّي جاكبسون، شريكه في الفشل، أقل إلفة. فقد أمضى السنوات العشرين التالية بائعًا متجوّلًا وعاد عام ١٩٤٥ – عام أصبح ترومان رئيسًا بعد وفاة فرانكلين روزفلت – إلى كنساس وفتح محلّه الخاص للألبسة الرجالية. ويسجّل التاريخ دور ترومان الحاسم في إنشاء دولة إسرائيل؛ بيد أن إدّي جاكبسون هو الذي أسهم في إقناع صديقه القديم بأداء هذا الدور.

عندما بدأ حجم المحرقة يتضح، في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، أخذ الرأي العام العالمي في الالتحام حول فكرة دولة يهودية في فلسطين. وقد قرر البريطانيون، الذين أخذت قوتهم الاستعمارية في التراجع، إنهاء انتدابهم

عليها وتمرير المشكلة إلى الأمم المتحدة – وهذا يعني، في الأساس، الولايات المتحدة. وأدرك الزعماء الصهاينة أن أولويتهم الأكثر إلحاحًا تتمثّل في كسب الرئيس ترومان إلى جانب قضيتهم.

وعثروا، خلال تفتيشهم عن الوسائل، على إدّي جاكبسون.

نشأ جاكبسون، وهو ابن مهاجرين يهوديين من ليتوانيا، في الجانب الشرقي الأدنى من نيويورك، وتطوّع للقتال في الحرب العالمية الأولى، فالتقى في فورت سيل في أوكلاهوما متطوّعًا آخر هو هاري ترومان. أدارا معًا مقصف القاعدة، وخدما جنبًا إلى جنب، وأصبحا صديقي العمر وباتا كشقيقين. ومع اقتراب التصويت في الأمم المتحدة، عام ١٩٤٧، على تقسيم فلسطين، علم مسؤول في جمعية الأخوّة اليهودية «بناي بريث»، أمر علاقتهما. وطلب من جاكبسون، وهو أيضًا عضو في «بناي بريث»، مناشدة ترومان. وكانت النتيجة رسالة عاطفية من جاكبسون إلى الرئيس «باسم أبناء شعبي»[١].

«يتوقّف مستقبل مليون ونصف مليون يهودي في أوروبا على ما يحدث في الاجتماع الراهن في الأمم المتحدة»، كتب جاكبسون لأقرب صديق له. «وتعتمد حياة عشرات الألوف على الكلمات الصادرة من فمك وقلبك. هاري، شعبي يحتاج إلى المساعدة وأناشدك مساعدته»[٢].

أتبع جاكبسون رسالته بزيارات عدة خاصة للبيت الأبيض حيث استقبله ترومان كلّما رغب من دون الحاجة إلى موعد. وأتت هذه الاجتماعات ثمارها، وأعلن ترومان أنه يؤيّد قرار الأمم المتحدة الذي ينص على تخصيص قسم من فلسطين لليهود،

(١) David McCullough, *Truman* (New York: Simonand Schuster, 1993), pp. 107– 8, 145– 50; Samuel A. Montague, "The Reform Jew Who Changed Truman's Mind," accessible at http://reformjudaismmag.net/998sam.html; Bernard Reich, *The United States andIsrael: Influence in the Special Relationship* (New York: Praeger, 1984),p. 56.

(٢) Norman H. Finkelstein, *Friends Indeed: The Special Relationship of Israel and the United States* (Brookfield, Conn.: Millbrook Press, 1998), p. 39.

ومارس كلّ قوّة أميركا لتأمين الموافقة عليه[١]. ومرّ القرار في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ فصوتت له ثلاث وثلاثون دولة وعارضته ثلاث عشرة، وامتنعت عشر عن التصويت. وبسماعه النبأ أدخل جاكبسون عبارتين في يومياته: «أُنجزت المهمّة»[٢].

ولكن ليس تمامًا. إذ لا تزال هناك ستة أشهر على انسحاب البريطانيين من فلسطين. وبقي في ذلك الوقت على الزعماء الصهاينة أن يكسبوا دعم ترومان للمرحلة الثانية من مخططهم: إنشاء دولة كاملة على بقعة الأرض التي خصصتها الأمم المتحدة لهم بدلًا من قبول خيار من نوع آخر، مثل أن يصبحوا جزءًا من فدرالية مع دولة عربية جديدة في فلسطين. وشكّلت تلك أشهرًا قاسية. واستذكر ترومان لاحقًا: «لا أذكر أنني عايشت هذا الكم من الضغط والدعاية في البيت الأبيض كما عايشته في هذه الحال». وجاء معظمه من اليهود في واشنطن وفي ما هو أبعد منها[٣].

واشتكى ترومان من أن «يسوع المسيح لم يستطع وهو على الأرض أن يرضيهم. وبالتالي كيف يمكن أيًّا كان أن يتوقّع أن أحظى بهذا الحظ؟»[٤].

أثارت أخبار غضب ترومان المتزايد قلق الصهاينة الذي خافوا من أن تُنتزع منهم في اللحظة الأخيرة الجائزة وهم على وشك الفوز بها. وقرروا مجيء حاييم وايزمان، صاحب الرفعة في الحركة الصهيونية والشخصية القادرة جدًّا على الإقناع، إلى البيت الأبيض. إلا أن ترومان رفض استقباله. وطلب الرئيس الوطني لـ«بناي بريث» فرانك غولدمان من جاكبسون التدخّل، فوافق على كتابة رسالة إلى ترومان الذي بقي جوابه الرفض. فقرر جاكبسون أن يسافر إلى واشنطن ويطرح قضيته بنفسه.

(١) Michael B. Oren, *Power,Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present* (New York: W. W. Norton, 2007), p. 490.

(٢) Michael J. Cohen, *Truman and Israel* (Berkeley:University of California Press, 1990), p. 168.

(٣) Dan Raviv and YossiMelman, *Friends in Deed: Inside the U.S.- Israel Alliance* (New York:Hyperion, 1994), p. 27.

(٤) McCullough, *Truman*, p. 599.

جاء إلى البيت الأبيض صباح السبت الثاني عشر من آذار/مارس ١٩٤٨. وكان الرئيس في مزاج سيّئ يلعن اليهود الذين يضغطون عليه بصفة كونهم «قليلي الاحترام وسافلين»، وبات، بحسب ما كتب جاكبسون لاحقًا، «أقرب ما يمكن شخصًا أن يصبحه في معاداته السامية»(١). وكان ترومان كتب للتو في يومياته أن اليهود «على درجة كبيرة جدًّا من الأنانية»، و«لا يصل ستالين ولا هتلر في معاملة المستضعف إلى ما يصلون إليه»(٢).

بيد أن الصداقة والطابع الملح للمسألة مدّا جاكبسون بالشجاعة للمثابرة.

«هاري، امتلكت طوال حياتك بطلًا»، قال وهو يشير إلى أندرو جاكسون على جدار المكتب البيضاوي. «وفي الحقيقة أنا لدي أيضًا، يا هاري، بطل، رجل لم التقه قط لكنني أعتقد أنه أعظم يهودي يأتي إلى هذه الحياة على الإطلاق... إنه رجل مريض، تكاد تكون صحّته مهشّمة، لكنه سافر الآلاف المؤلفة من الأميال لمجرّد أن يراك ويطرح معك قضيّة شعبي. وها أنت ترفض مقابلته لأنك شعرت بالإهانة من بعض الزعماء اليهود الأميركيين... وهذا لا يُشبهك، يا هاري... وما كنت لآتي إلى هنا لو أنني لم أعرف أنك إذا قابلته فستطلع في شكل صحيح ودقيق على الوضع كما هو في فلسطين، ومع ذلك فأنت ترفض رؤيته»(٣).

"أنت تكسب أيها الأصلع النحس»، قال. «سأراه»(٤).

اهتزّ جاكبسون كثيرًا من هذا اللقاء فلم يتوجه على الفور إلى غولدمان في فندقه، بل توقّف في إحدى الحانات وارتشف كأسين من البوربون، وهي المرة الأولى يتذوّق الكحول في حياته. ولما أطلع غولدمان على الأخبار عانقه الأخير وقبّله.

(١) Melvin Urofsky, *A Voice That Spoke for Justice: The Life and Times of Stephen S. Wise* (Albany: State University of New York Press, 1982), p. 25.

(٢) Oren, *Power, Faith, and Fantasy*, p. 492.

(٣) Finkelstein, *Friends Indeed*, pp. 41–42.

(٤) Oren, *Power, Faith, and Fantasy*, p. 495; Montague, “Reform Jew Who Changed Truman’s Mind.”

بعد ذلك بخمسة أيام، ووكب وايزمان سرًّا إلى البيت الأبيض. وكان بين أكثر رجال الدولة حماسة في الالتزام في العالم، وفعل سحره فعله مع ترومان. وفي الرابع عشر من أيار/مايو، قبل يوم على انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، أعلنت إسرائيل ولادتها كدولة بدءًا من منتصف الليل. وبعد إحدى عشرة دقيقة على ذلك، في الساعة ٦:١١ صباحًا بتوقيت واشنطن، اعترفت بها الولايات المتحدة دولة ذات سيادة. وبعث جاكبسون في ذلك المساء ببرقية إلى ترومان اكتفى فيها بالقول: «شكرًا، وليباركك الله».

عاد وايزمان بعد ذلك بأسبوعين إلى واشنطن رئيسًا لإسرائيل. ووصل هذه المرّة في موكب بدلًا من تسلله إلى البيت الأبيض. واستقبله ترومان، في حرارة، وقدّم إليه وايزمان، في المراسم التي أجريت في الرواق ذي الأعمدة، مخطوطة للتوراة.

ليست جهود جاكبسون وحدها التي أقنعت ترومان. بل إن مأساة المحرقة أرخت بثقلها عليه. فقد أقام الصهاينة التجمعات عبر الولايات المتحدة ونظموا حملات أدت إلى انهمار مئات الآلاف من الرسائل والبطاقات البريدية على البيت الأبيض. ولم يخف على ترومان، وقد باتت حملة إعادة انتخابه في أوجها، أن من شأن حشد الصوت اليهودي أن يساعد. وقرر الاعتراف بإسرائيل، على رغم اعتراض قوي أبداه الرجال الثلاثة الذين يعتمد، عادة، على توجيهاتهم في السياسة الخارجية وهم: وزير الدفاع جيمس فورستال، ونائب وزير الخارجية دين أتشيسون، ووزير الخارجية جورج مارشال[1].

بعد بضعة أشهر على مغادرة ترومان السلطة، أقام له المعهد الديني اليهودي في نيويورك وليمة تكريمية. وقدّمه إدّي جاكبسون، وقال للجمهور: «هذا هو الرجل الذي ساعد في إقامة دولة إسرائيل».

وهدر ترومان صائحًا ردًّا عليه: «ماذا تعني بـ«ساعد في إقامة»؟ فأنا قورش! أنا قورش»[2]!

---

(١) Finkelstein, *Friends Indeed,* p. 36.

(٢) Oren, *Power, Faith, and Fantasy*, p. 501.

لم يشتهر عن رجل العصابات الأميركي الرؤيوي باغزي سيغل، وقد أسهم في بناء مركز القمار الذي تديره العصابات في لاس فيغاس، بأنه عاطفي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى العميل الصهيوني الذي تقدّم منه قبل تصويت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ وطلب منه المساعدة. وأبلغه العميل أن اليهود في فلسطين يعتقدون أنهم سيتوجّب عليهم القتال للدفاع عن البلاد التي توشك الأمم المتحدة إعطاءها لهم. وقال إن إرث سيغل وغيره من زعماء الجريمة اليهود، أمثال مائير لانسكي وميكي كوهين، ومودااليتز، يلزمهم المساعدة.

وسأله سيغل غير مصدّق: «أتريد أن تقول لي فعلًا إن اليهود في فلسطين قد حملوا السلاح وهم يطلقون النار ويقاتلون؟»

«نعم».

«وعندما تقول 'يقاتلون' تعني يقتُلون؟»

«نعم».

«وجدت فيَّ إذًا ضالّتك»(١).

وطوال بعد ذلك أخذ سيغل يتصّل بصديقه، في انتظام، ويبلغه الموعد الذي ستنتظره فيه أكياس النقود في أحد مطاعم لوس أنجلس. وجنّد للقضيّة رجال عصابات وفنانين، معظمهم من اليهود ولكن أيضًا من المشاهير ذوي الارتباطات بالعصابات أمثال فرانك سيناترا الذي وافق في إحدى أمسيات العام ١٩٤٨ – وهو يتناول الشراب بعد تأدية وصلته في الكوباكابانا في نيويورك – على نقل حقيبة ملأى بالنقود غير الشرعية إلى قبطان مركب ينتظر عند الشاطئ. وقد امتلأ المركب بالأسلحة والذخائر للمقاتلين اليهود في فلسطين، إلا أن القبطان رفض الإبحار ما لم يُدفع له مُسبقًا. وكان تيدي كوليك، العميل الصهيوني الذي يدير تهريب السلاح – وأصبح لاحقًا رئيسًا لبلدية القدس – خاضعًا لمراقبة الـ«أف. بي. آي.» ولم يتمكن

(١) Raviv and Melman, *Friends in Deed*, p. 41.

من تسليم المال. وتدبّر أن يزوره سيناترا في جناحه في الفندق ويتسلّم الحقيبة الملأى بالمال، وينسلّ بها من الباب الخلفي، فيما غادر كوليك من الباب الرئيس ومراقبه في الـ«أف. بي. آي.» يتعقّبه من مسافة قصيرة(١).

شكّلت عمليات التهريب المشابهة جزءًا من حملة متعدّدة الأوجه أدت إلى دعم أميركي حاسم للقضية الصهيونية. وجُنّد عشرات الطيارين الأميركيين السابقين وأكثر من ألف من قدامى الجيش الأميركي، معظمهم من اليهود، للقتال في فلسطين. وجمع «النداء اليهودي الموحّد»، بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٨، أكثر من ٣٥٠ مليون دولار للقضية اليهودية. وساعد الأميركيون في ضمان أن يصبح اليهود على أهبة الاستعداد عندما تقع الحرب على الأراضي المقدّسة(٢).

في الأيام التي تلت إعلان إسرائيل استقلالها في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، اقتحم حدودها خمسة وعشرون ألف جندي من لبنان وسوريا ومصر وشرق الأردن والعراق. قاومت إسرائيل في قوّة مثيرة للإعجاب. وفي الحادي عشر من حزيران/يونيو دخلت الهدنة التي توسّطت فيها الأمم المتحدة حيّز التنفيذ. ونجت إسرائيل، وأميركا إلى جانبها، من محاولة جيرانها خنقها في المهد.

ما إن تحقق الفوز بهذه المعركة حتى شرعت الولايات المتحدة في معاملة إسرائيل مثل أي دولة نامية. وباتت مؤهّلة للحصول على المساعدة بموجب برنامج «النقطة الرابعة» الذي سيوفّر لها من ثلاثة ملايين دولار إلى أربعة ملايين في السنة. غير أن إسرائيل أرادت ما هو أكثر بكثير، وبدأ سفيرها في واشنطن أبا إيبان بالعمل للحصول عليه. وأسهم أبا إيبان، بداية عقد الخمسينيات، في تشكيل مجموعة لوبي تسمّى «المجلس الأميركي الصهيوني»، وقد أعيدت تسميته لاحقًا لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية، أو «إيباك». وحقق سلسلة من النجاحات السريعة مقنعًا

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤-٤٥.

(٢) Tom Segev, *One Palestine, Complete: Jews andArabs Under the British Mandate (New York: Metropolitan Books,2000)*, p. 45.

الكونغرس بالموافقة على مساعدة لإسرائيل بقيمة ٦٥ مليون دولار إضافة إلى قرض بقيمة ٧٠ مليون دولار أخرى بفوائد متدنية، لم يطلب البيت الأبيض أيًّا منهما.

دار الكثير من الكلام، خلال رئاسة أيزنهاور، على «الحياد الودّي» في الشرق الأوسط والمقاربة «المتوازنة» للعرب والإسرائيليين. وجال وزير الخارجية جون فوستر دالاس، عام ١٩٥٣ على الشرق الأوسط، وأبلغ رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون أن الولايات المتحدة تحتاج إلى علاقات جيّدة مع الدول العربية كما مع إسرائيل. وفي وقت لاحق من تلك السنة، علّق الرئيس أيزنهاور موقّتًا المساعدة الأميركية لإسرائيل بعدما قتل الجنود الإسرائيليون عشرات المدنيين في ما وصفته الحكومة الإسرائيلية بالغارة الانتقامية على مدينة قبية الأردنية. وناشد مساعد وزير الخارجية هنري بايرود إسرائيل تغيير أساليبها:

أقول للإسرائيليين إن عليكم أن تتوصّلوا فعلًا إلى عدِّ أنفسكم دولة شرق أوسطية، وتنظروا إلى مستقبلكم من ضمن هذا السياق بدلًا من عدِّ أنفسكم مقرًّا أو نواة، على سبيل الكلام، لمجموعة عالمية من الناس الذين يتبعون دينًا محدّدًا ويجب أن يتمتعوا بحقوق دينية خاصة في داخل دولة إسرائيل وبواجبات حيالها. يجب أن تتخلوا عن وضعية الفاتح وعن الاقتناع بأن القوة وسياسة الانتقام القاتلة هي السياسة التي يفهمها جيرانكم. على أفعالكم أن تتوافق مع كلامكم المتكرّر عن الرغبة في السلام[١].

أزعج هذا النوع من الخطابات أبا إيبان، على رغم أنها لم تتضمن أي تهديد صريح. وقال إنها تذكّره بالقاضي الذي وعد المتهم بالعدالة، سوى أن المتهم أجاب «هذا بالتحديد ما يخيفني. فأنا أبغي الرحمة»[٢]. ثم جاء حدثان دراميّان، تتاليا سريعًا، ليعيدا صياغة السياسة بطرق جعلت الولايات المتحدة تعاود تقويمها لإسرائيل.

(١) Reich, *United States and Israel*, p. 27.

(٢) Raviv and Melman, *Friends in Deed*, p. 72.

تبلّغت الـ«سي. آي. إي.» ربيع العام ١٩٥٦ تقارير تفيد أن الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشيف ألقى خطابًا سرّيًا وصف فيه ستالين بالقامع والقاتل الجماعي. وسعى مدير الـ«سي. آي. إي.» ألن دالاس يائسًا للحصول على نسخة من هذا الخطاب، لكنه فشل. وحصلت إسرائيل، من خلال أحد العملاء في بولندا، على نسخة مررتها إلى الأميركيين الذين عمموها على العالم. وادعى دالاس لاحقًا أن هذا الأمر شكّل أكبر انتصار له في حياته العملية[1]. ومضت سنوات كثيرة قبل أن يتضح أن الفضل في ذلك يعود إلى إسرائيل. ولكن تكوّن لدى الذين عرفوا الأمر احترامًا جديدًا لإسرائيل بصفة كونها شريكًا استراتيجيًا.

وفي وقت لاحق من العام ١٩٥٦ أذهل الرئيس المصري جمال عبد الناصر العالم بتأميمه قناة السويس. ورأت بريطانيا وفرنسا، وهما القوتان اللتان بنتا القناة وتملكانها، في هذا تحدّيًا حقيقيًّا لحقوقهما الاستعمارية. وقررتا غزو مصر، واستعادة القناة، وإسقاط نظام عبد الناصر إذا أمكن. وانضمت إليهما إسرائيل التي تعدُّ عبد الناصر عدوّها الرئيس. شنت القوى الثلاث هجومها في التاسع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر. واستاء الرئيس أيزنهاور، في واشنطن، مما عدَّه محاولة ارتداديّة لإعادة فرض الاستعمار الأوروبي على الشرق الأوسط. وقاد جهدًا دبلوماسيًّا عالميًّا، تركّز على الأمم المتحدة، أجبر الغزاة على الانسحاب.

أظهرت أزمة السويس للإسرائيليين أن الولايات المتحدة باتت القوة المهيمنة في منطقتهم، وبالتالي حليفتهم التي لا يمكن الاستغناء عنها. وتكوّن لدى الأميركيين في المقابل احترام جديد للقوة العسكرية الإسرائيلية.

نظر الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته دالاس إلى العالم عبر عدسة واحدة، هي عدسة الحرب الباردة. حاولا استمالة عبد الناصر الذي أخذ يبرز أكثر الزعماء العرب إثارة منذ أجيال، لكنه اختار أن يلعب ورقته مع السوفيات. وبحلول العام ١٩٥٦،

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠.

أخذت أسلحة الكتلة السوفياتية في التدفّق على مصر. وهو ما سهّل على واشنطن عملية الحساب التالية: مصر تابعة للسوفيات؛ وإسرائيل تعارض مصر؛ وعلى إسرائيل بالتالي أن تصبح صديقة أميركا.

صاغ الزعماء الإسرائيليون والأميركيون في السنوات التالية علاقة ودّية، وأصبح الأميركيون العاديون معجبين بإسرائيل – ولكن لأسباب لا علاقة لها بالسياسة.

شكّلت ملحمة ليون أوريس الخلّابة «الخروج» Exodus الكتاب الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة عام ١٩٥٨ – باع مليوني نسخة في غضون أشهر، أكثر من أي كتاب منذ «ذهب مع الريح» Gone with the Wind – وهو يتعلّق بتأسيس إسرائيل. بطله، آري بن كنعان، محارب يهودي من أجل الحرّية عذّب العرب خطيبته حتى الموت. وبين الشخصيات الأخرى ممرضة أميركية مثالية حملها ضميرها على الانضمام إلى القضية الصهيونية، وضابط بريطاني تتآكله ذكريات معسكر اعتقال أسهم في تحريره، ومراهق بولندي هادئ أصبح من مقاتلي حرب العصابات المعادين للعرب ولاحقًا ضابطًا في الجيش الإسرائيلي.

وكتبت الباحثة الإسرائيلية راشيل فايسبرود أن «هذه الميلودراما تجرف القارئ في موجة من الانخراط العاطفي والتماهي مع الأبطال وتقسم العالم في شكل واضح بين نقيضين متعارضين... ويستغل [أوريس] المزايا الخاصة بالميلودراما – النزاع الخارجي بدلًا من الداخلي، المغالاة في رسم الشخصيات بالأسود والأبيض، والإخلاص للمعتقدات المقبولة – لرسم صورة متوقّدة للمغامرة الصهيونية»[1].

حُوّل «الخروج»، بعد سنتين على نشره، فيلمًا مؤثّرًا من إخراج أوتوبرمينغر وبطولة بول نيومان وإيفا ماري سانت، وأحدث وقعًا أكبر حتى على الوعي الأميركي. وطُرح إنشاء إسرائيل كِفاحًا نموذجيًا في سبيل الحرّية والخلاص، فيما لا يبدو أن للعرب

(١) Rachel Weissbrod, "Exodus as a Zionist Melodrama," *Israel Studies* 4, no. 1 (1999): 129–52.

المجهولين من دوافع أخرى، غير الحقد الأعمى الذي حرّك النازيين الوحوش. وتضمّنت موسيقى الفيلم أغنية لاقت رواجًا عظيمًا في نُسخٍ غنّاها أندي وليامز، وبات بون، وكوني فرانسيس، وطائفة غيرهم.

وتقول كلمات الأغنية: «الأرض ملكي، عطيّة من الله. وإذا توجّب عليّ القتال، فسأقاتل لأجعل من هذه الأرض ملكًا لي... وإلى أن أموت، ستبقى هذه الأرض لي!»

وشهدت تلك المرحلة أيضًا موجة من الأفلام التوراتية، أبرزُها ملحمة بن ـ هور التي فازت عام ١٩٥٩ برقم قياسي هو إحدى عشرة جائزة أوسكار بما فيها جائزة أفضل فيلم. وكان لهذه الأفلام، إلى جانب «الخروج»، وقع هائل على الوعي الشعبي الأميركي. وتبلّغ الأميركيون منها رسالتين: أن المسيحية واليهودية مترابطتان في شكل وثيق، وأن للأميركيين والإسرائيليين قيمًا مشتركة وتقاليد ومُثلًا[١].

بعد اغتيال الرئيس كنيدي عام ١٩٦٣، قال خليفته ليندون جونسون لأحد الدبلوماسيين الإسرائيليين: «لقد خسرتم صديقًا عظيمًا جدًا، لكنكم عثرتم على واحد أفضل». كان جد جونسون معمدانيًا متزمّتًا طلب منه، لدى دخوله معترك السياسة، أن «يعتني باليهود، شعب الله المختار»؛ وحذّرته عمّته المتمسّكة بالكتاب المقدّس من أن «العالم سينتهي إذا دُمّرت إسرائيل».

وكتب المؤرخ مايكل أورين، الذي أصبح لاحقًا سفيرًا لإسرائيل في الولايات المتحدة، أن «إسرائيل شكّلت بالنسبة إليه «ألامو» هذا الزمان وهي محاطة من كل جانب بأعداء لا يعرفون الرحمة... أما عبد الناصر فهو تجسيد لـ«سانتا آنا»[٢].

حلّقت في وقت مبكر من صباح الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ أسراب من الطائرات المقاتلة الإسرائيلية، وكلها من صنع الولايات المتحدة، في تشكيلات

(١) Oren, *Power, Faith, and Fantasy*, p. 518.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٥٢٢-٥٢٣.

متراصة في طريقها إلى مصر. وأمضت النهار وهي تقصف القواعد المصرية. ودمّرت، مع هبوط الليل، أكثر من ثلاثمئة طائرة حربية على الأرض – سلاح الجو المصري كلّه تقريبًا[١].

بعد ذلك بيومين استولت قوّة بريّة إسرائيلية على القدس. واندفعت قوّة ثانية عبر صحراء سيناء حتى حافة قناة السويس، واحتلّت ثالثة أجزاء من سوريا. وحققت إسرائيل أحد أسرع الانتصارات وأكثرها مأسوية في تاريخ الحروب الحديثة.

شكّلت حرب الأيام الستة التي شنّتها إسرائيل للوقاية مما اعتقدت أنه هجوم عربي وشيك، الفصل الأكثر حسمًا في تاريخ العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية.

فحتى هذه اللحظة عدَّ حتى أشد القادة الأميركيين موالاة لإسرائيل أنها مستهلك للأمن الأميركي وحليف ضعيف يتوجّب على الولايات المتحدة الدفاع عنه. إلا أنها، وبعد انتصاراتها في ساحات المعركة على بلدان أكبر منها بكثير، بدت فجأة كبلد يمكنه توفير الأمن. وبدلًا من أن تكون عائقًا أمام الغرب – وقد عدَّها جون فوستر دالاس «حجر الرحى المعلّق بأعناقنا» – أضحت قوة إقليمية مسيطرة[٢].

وقال مبعوث جونسون إلى المنطقة هاري ماكفرسون، في تقريره إلى البيت الأبيض، أن «إسرائيل، في المناسبة، دمّرت في الحرب الصورة الشائعة عن اليهودي الشاحب الهزيل». وأضاف أن «الجنود الذين شاهدتهم أقوياء مفتولو العضلات وقد لوّحتهم الشمس»[٣].

وأصدر مجلس الأمن الدولي، بعد خمسة أشهر على هذه الحرب الخاطفة، قراره الشهير الرقم ٢٤٢ الذي لا يزال يُستخدم على نطاق واسع حتى اليوم، وأكثر من أي وثيقة أخرى، كأساس للسلام الطويل الأمد في المنطقة. وعدَّه معظم العالم، ولا يزال، تسوية منطقية. ومن غير المفاجئ أنه لم يُرضِ أيًّا من المتحاربين.

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢٣؛ Martin Gilbert, Israel: AHistory (London: Black Swan, 1999), p. 385.

(٢) Oren, *Power, Faith, and Fantasy*, p.513.

(٣) Gershom Gorenberg, *The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967– 1977* (New York: Times Books, 2006), p. 48.

وفسّرت إسرائيل البند الذي يطالبها بالانسحاب «من أراضٍ احتلّتها في النزاع الأخير» بأنه يعني أن عليها الانسحاب من بعض الأراضي، لا منها كلّها. وأصرّ العرب على أن تتخلّى عن كل الأراضي المحتلّة، فضلًا عن أنهم رفضوا قبول مطلب القرار القاضي باعترافهم «بسلامة أراضي إسرائيل واستقلالها السياسي».

وقد بذلت الولايات المتحدة، في السنوات التي تلت، جهودًا متفرّقة، فشلت كلّها، لدفع إسرائيل والعرب صوب السلام الشامل. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ هاجمت سوريا ومصر إسرائيل في عيد يوم الغفران اليهودي. وسارت هذه الحرب في البداية في شكل سيّئ على إسرائيل، سوى أن الولايات المتحدة أقامت بعد اندلاعها بسبعة أيام جسرًا جويًّا للتموين. وحطّت الطائرات المحمّلة بالأسلحة بمعدّل نحو واحدة في الساعة خلال ٢٤ ساعة في اليوم، ولأكثر من أسبوع. ووافق الكونغرس الأميركي، والجسر الجوي لا يزال قائمًا، على طلب الرئيس ريتشارد نيكسون تزويد إسرائيل ما قيمته ٢,٢ مليار دولار من المساعدة العاجلة لإسرائيل بالسلاح. وحوّل الجنود الإسرائيليون، وقد أعادوا دعم أنفسهم، مجرى الحرب واندفعوا إلى مسافة خمسين ميلًا من القاهرة(١).

طوّرت إسرائيل، عقب حرب يوم الغفران، ثقافة استراتيجية ترتكز على الاستخدام غير التقليدي للقوة العسكرية. وراق ذلك للزعماء الأميركيين التوّاقين إلى شن معارك حرب باردة خفيّة في أنحاء مختلفة من العالم، لكن القيود القانونية المزعجة تعرقلهم. وأصبحت إسرائيل شريكًا قيّمًا شبه سرّي للولايات المتحدة: أضحت مدرّبًا للقوى المعادية للشيوعية التي لا يمكن الولايات المتحدة تولّي تدريبها مباشرة، وقناة لتسليح الأنظمة ومجموعات المتمردين التي لا يمكن الولايات المتحدة تسليحها على المكشوف، ومصدرًا خصبًا للمعلومات الاستخبارية من مختلف أنحاء العالم.

(١) Rachel Bronson, *Thicker Than Oil: America's UneasyPartnership with Saudi Arabia* (New York: Oxford University Press,2006), p. 117.

نزل الموت من السماء في مرتفعات غواتيمالا البركانية الخصبة حيث عاش هنود المايا منذ الأزمنة السحيقة. فخلال عقدي السبعينيات والثمانينيات، قتل الجنود أناسًا في غواتيمالا أكثر مما قتلت بلدان أميركا اللاتينية مجتمعة. وكثيرًا ما شنوا هجماتهم من طائرات لم يشهد هؤلاء الهنود المعدمون مثيلًا لها من قبل.

يعمد الجنود بعد اندفاعهم من تلك الطائرات الغريبة المنظر إلى تطويق إحدى القرى وتجميع سكّانها وقتل المحظوظين منهم - إذ يُبقى على الآخرين للتعذيب - ببنادق هجومية من أحدث طراز. ووجد تحقيق للأمم المتحدة، بعد ذلك بأعوام، أن الجنود الغواتيماليين قد جمحوا «بوحشية مطلقة أدت إلى القضاء بالجملة على مجموعات من المايا المسالمين». وقدّرت الأمم المتحدة أن الجنود الغواتيماليين قتلوا، ما بين العامين ١٩٧٨ و١٩٨٤، نحو ١٨٠ ألف شخص معظمهم من الفلاحين العُزّل.

وقد منع قانون سنّه الكونغرس الولايات المتحدة، معظم تلك المرحلة، من بيع النظام الغواتيمالي الأسلحة. ومع ذلك تدفّقت عليه الأسلحة. والأكثر لفتًا للنظر بينها تلك الطائرات التي تقلع وتهبط على مدرج قصير وتسمى «أراڤاس»، وتنقل الجنود إلى القرية التي يمارسون فيها القتل. واشترى الجيش أيضًا طائرات هليكوبتر وزوارق دورية وقطع مدفعية وقاذفات قنابل وألف رشّاش وخمسين ألف بندقية هجومية جاءت كلّها من المصدر نفسه: إسرائيل.

تقفّى ضباط الاستخبارات الغواتيمالية ضحاياهم بمساعدة من منظومة حواسيب وضعتها مؤسسة إسرائيلية في القصر الوطني. وأصبح أحد قدامى الجيش الإسرائيلي الذي درّب القوات الأمنية في بلاده كبير مدرّبي الجيش الغواتيمالي[١].

(١) Bishara Bahbah, *Israel and Latin America:The Military Connection* (New York: Palgrave Macmillan, 1986), p. 147;Benjamin Beit-Hallahmi, *The Israeli Connection: Who Israel Arms andWhy* (New York: Pantheon Books, 1987), p. 80; Andrew Cockburn andLeslie Cockburn, *Dangerous Liaison: The Inside Story of the U.S.- Israeli Covert Relationship* (Toronto: Stoddart, 1991), pp. 218- 19.

ولمّا سئل المتحدث باسم وزارة الخارجية الأميركية عن الدعم الإسرائيلي لغواتيمالا أجاب: «أشرنا إلى أننا لسنا سعداء بتقديمهم المساعدة»[١].

رأى الرئيس رونالد ريغان أن تمرّد رجال حرب العصابات في غواتيمالا جزء من الهجوم الشيوعي الشامل الذي أقسم على محاربته. وطلب من الإسرائيليين، وقد صمّم على سحق التمرّد، أن يبيعوا الجيش الغواتيمالي كل ما يريده. ووافقت إسرائيل، في لهفة. وزودت الشركات الإسرائيلية، في عزّ الحرب الأهلية، الجيش كل أنظمته التسليحية تقريبًا – بما قيمته ٢٠ مليون دولار عام ١٩٨٤ وحده.

وذكرت صحيفة هاأرتز عام ١٩٨٥ أن «رشيش «عوزي» هو السلاح المفضّل لوحدات التصفية التي تعمل في الساعات الباكرة ضد المنشقين، الهنود منهم وغير الهنود، أو ضد الكامبيسيونس، المزارعين الفقراء، كلما بادروا بتنظيم التعاونيات الزراعية أو حاولوا معرفة مصير أقاربهم المخفيين... ويذهل الإسرائيليون الذين يزورون غواتيمالا لدى رؤيتهم وحدات الجيش الخاصة ترتدي البزّات الإسرائيلية ومُجهّزة بالأسلحة الإسرائيلية»[٢].

فيما تضرّجت مرتفعات غواتيمالا بالدماء، حدث الأمر نفسه في السلفادور المجاورة. وأصبحت إسرائيل مزوّدة السلاح الرئيسة للسلفادور، بعدما قطع عنها الرئيس جيمي كارتر المساعدة العسكرية عام ١٩٧٧. ودرّب المستشارون الإسرائيليون الشرطة السرّية ووحدات النخبة في الجيش[٣]. وأصرّ المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية على أن الإسرائيليين الموجودين في السلفادور هم من «المستشارين الزراعيين»، غير أن طبيعة عملهم الحقيقية عُرفت على نطاق واسع جدًا، إذ نشرت

(١) Bahbah, *Israel and Latin America*, p. 167.

(٢) *Ha'aretz*, November25, 1985.

(٣) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison,* pp. 238– 39; Jane Hunter, *Israeli Foreign Policy: South Africa and Central America* (Boston: South End Press, 1987), pp. 99–100.

إحدى صحف تل أبيب معروضًا موقعًا من ١٤٤ تلميذًا ثانويًا يحتجّون فيه على دور بلادهم في الحرب الأهلية في السلفادور[١].

أما النزاع الثالث الذي استعر في أميركا الوسطى خلال عقد الثمانينات، فدار في نيكاراغوا حيث حارب رجال عصابات «الكونترا» المدعومين من أميركا لإطاحة النظام الساندينى اليساري. وشعر الرئيس ريغان برابط عضوي مع «الكونترا» ووصفهم بأنهم «المثل الأخلاقي لآبائنا المؤسسين». ولجأ إلى إسرائيل بعدما قطع الكونغرس المساعدة عن «الكونترا». وهكذا بدأت «عملية الغلاية ذات الغطاء» التي تقوم إسرائيل بموجبها، بحسب أحد منظّميها، المقدّم أوليفر نورث، «بتزويد الكونترا سرًّا أسلحة بمئات عدة من الأطنان». وعمل الإسرائيليون على تغطية آثارهم، فلم يرسلوا أسلحة من صنعهم بل من تلك التي استولوا عليها من الفلسطينيين أو اشتروها بواسطة وكلاء من بولندا وتشيكوسلوفاكيا. وقال المقدّم نورث في شهادته أمام المحكمة إن الولايات المتحدة أكّدت لإسرائيل، تعويضًا لذلك، «أن الحكومة الأميركية ستعتمد، في مقابل الأسلحة، ما أمكن من المرونة في مقاربتها لحاجات إسرائيل العسكرية والاقتصادية، وأنها ستجد طريقة لتعويض إسرائيل في مقابل مساعدتها»[٢].

أقامت الكونترا قواعد لها في هندوراس ما حوّل جيشها حليفًا رئيسًا آخر للولايات المتحدة. بيد أن ذلك الجيش، بما لا يختلف عن جيشي غواتيمالا والسلفادور، تصرّف في وحشية نفّرت الكثيرين في الكونغرس. ودخل المقاولون الإسرائيليون من تلك الثغرة، وبعثوا بمستشارين لتدريب وحدات النخبة الهندوراسية، بما فيها الكتيبة الـ٣١٦ السيئة السمعة التي تبيّن لاحقًا أنها خطفت وقتلت أعدادًا كبيرة من

(١) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison*, p. 240.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢٨-٢٢٩، ٢٥٧؛ Jack Colhoun, “Israel and the Contras,”Race & Class 28, no. 3 (1987): 61– 66; Hunter, Israeli ForeignPolicy, pp. 145– 66.

منظمي النقابات العمالية ومعارضي الحرب وغيرهم من المنشقين[1]. وعام ١٩٨٢، في عزّ حملة القمع هذه، زار وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون هندوراس وأعلن أن إسرائيل ستبيع جيشها دبّابات وطائرات مقاتلة[2].

وقال قائد الجيش الهندوراسي الجنرال والتر لوبيز بعد تركه الوظيفة: «وُجد مستشارون إسرائيليون في القوات الخاصة الهندوراسية. وقد أعارتهم وزارة الدفاع الإسرائيلية إلى قواتنا الخاصة، على رغم أنهم جاءوا رسميًّا بصفة كونهم «غير حكوميين». تلطّوا خلف واجهة تدريب مجموعات أمنية خاصة لحماية الرئيس والقادة الأمنيين، غير أن كلّ شيء آخر حدث بالتواري خلف ذلك: دورات في العمليات الخاصة، ودورات في طرق السيطرة على المباني والطائرات والرهائن... وقد قام تنسيق بينهم وبين الـ«سي. آي. إي.»[3].

بات الجنرال مانويل أنطونيو نورييغا، رجل بنما القوي، التابع الرئيس الآخر لواشنطن في برزخ أميركا الوسطى. وهو الذي كدّس ثروة من التجارة بالمخدرات فيما أخذت الـ«سي. آي. إي.» تدفع له مئتي ألف دولار سنويًّا بصفة كونه ركيزة قيّمة. وكان كبير مستشاريه وأليفه هو العميل الإسرائيلي الأكثر توقّدًا في أميركا اللاتينية، مايك هراري، المسؤول السابق في الموساد، وقد اشتهر بترؤسه فرقة الموت التي طاردت وقتلت إرهابيين فلسطينيين قتلوا الرياضيين الإسرائيليين في دورة الألعاب الأولمبية عام ١٩٧٢ في ميونيخ. ودبّر «مايك المجنون» في بنما عملية تبييض للأموال أودع نورييغا من خلالها أرباحه من المخدّرات في المصارف السويسرية، وصمم أنظمة تنصّت ومراقبة سمحت لنورييغا بالتجسس على أعدائه، وأدى أيضًا

(١) Cockburn and Cockburn, Dangerous Liaison, pp. 224–25.

(٢) *New York Times*, December 6, 1982.

(٣) Jon Lee Anderson, "Loose Cannons: On theTrail of Israel's Gunrunners in Central America,"*New Outlook*, February1989, p. 26.

دور الوسيط ذي الأجر المرتفع في شراء نوريبغا ما قيمته نصف مليار دولار من الأسلحة الإسرائيلية(١).

«تؤدي إسرائيل دور مقاول «الأعمال الوسخة» للإدارة الأميركية في أميركا الوسطى»، بحسب ما قاله عضو الكنيست الإسرائيلي الجنرال ماتتياهو بيليد وقد بلغت عمليات بلاده في تلك المنطقة ذروتها. «تمارس إسرائيل دور المتواطئ مع الولايات المتحدة، وذراعها»(٢).

لم تنفرد جيوش أميركا الوسطى في طلب المساعدة من إسرائيل. فقد جهَّز ديكتاتوريون من مختلف أنحاء العالم، من بوليفيا وتشيلي وجمهورية الدومينيكان إلى بورما والفيليبين وإندونيسيا، جنودهم ببنادق جليل الهجومية ورشاشات عوزي(٣).

أصبحت إسرائيل أيضًا مزوِّدة السلاح الأولى لنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا الذي دعمه الرئيس ريغان، في حماسة، لكنه لم يتمكن من تسليحه بسبب القيود التي وضعها الكونغرس. درّب الإسرائيليون نخبة وحدات الشرطة والجيش في جنوب أفريقيا، وباعوا جيشها الدبابات وتكنولوجيا الطيران، وأعطوا رخصة بتصنيع بنادق جليل في أحد مصانعها بل إنهم قدّموا المشورة إلى النظام لتطوير الأسلحة النووية. وحظي رئيس وزراء جنوب أفريقيا جون فورستر الذي سجنه البريطانيون خلال الحرب العالمية الثانية بسبب نشاطاته المؤيدة للنازية، باستقبال السجادة الحمراء في إسرائيل عام ١٩٧٦، ووضع إكليلًا من الزهر على نصب المحرقة «يادفاشيم»، واستمع إلى رئيس الوزراء إسحق رابين يشيد به في إحدى المآدب الرسمية «على مناخ التعاون المزدهر» بين بلديهما(٤).

(١) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison*, pp. 244– 61.

(٢) Beit- Hallahmi, *Israeli Connection*, p. 78.

(٣) Noam Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians* (New Delhi: India Research, 2004),pp. 21– 26; Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison*, p. 161.

(٤) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison,pp. 283– 87; Beit-Hallahmi, Israeli Connection,* pp. 108– 74; Hunter, Israeli Foreign Policy, pp. 19– 91.

درّب الإسرائيليون أكثر من دزّينة من قوات حرب العصابات والقوات شبه العسكرية التي تباركها واشنطن. وأنشأوا قوات أمنية خاصة في كولومبيا استخدمها أصحاب المزارع ومهرّبو المخدرات لحماية أنفسهم وقتل أعدائهم، وقاموا بالأمر نفسه في الفيليبين في عهد ديكتاتورية فرديناند ماركوس. وعام ١٩٨٦ عمل المستشارون الإسرائيليون والأميركيون معًا لتحويل ألفي منفي ليبي قوة حرب عصابات تقاتل نظام معمّر القذافي. ولمّا حظر الكونغرس المساعدة الأميركية للثوار المناوئين للماركسية في أنغولا، أرسلت إسرائيل إليهم مدربين دفعت إدارة ريغان أجورهم في شكل غير مباشر(١).

أخبر رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز، في وقت لاحق، كاتب سيرته أن «دور إسرائيل الأساس في هذه الشراكة كان دور الوسيط. فهناك بلدان... أرادت الولايات المتحدة مساعدتها. وبدا من الملائم في حالات كهذه توفير المساعدة من خلال إسرائيل، أو تشجيع إسرائيل على زيادة صادراتها إلى تلك البلدان»(٢).

امتلكت هذه البلدان البغيضة أصدقاء أقوياء في واشنطن، غير أن هؤلاء الأصدقاء لم يستطيعوا احتضانها علنًا. ولم تمتلك إسرائيل مثل تلك التحفّظات. فكل دولة أرادت الولايات المتحدة مساعدتها ولم تستطع، أمكن إسرائيل القيام بذلك وفعلت.

واستذكر لاحقًا كبير الدبلوماسيين الإسرائيليين في تلك الحقبة ديفيد كيمحي، قائلًا: «حافظنا على حوار حميم، وحميم جدًّا في شأن أنحاء مختلفة من العالم. تعودنا أن نناقش ماذا على المرء أن يفعل في بلدان العالم الثالث، وفي الشرق الأوسط، وإلى آخره. ندلي برأينا ويدلون برأيهم. شكّل ذلك حوارًا حميمًا جدًّا»(٣).

(١) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison*, pp. 121, 214– 15, 232.

(٢) Matti Golan, *The Road to Peace: A Biography of ShimonPeres* (New York: Warner Books, 1989), p. 119.

(٣) Cockburn and Cockburn, *Dangerous Liaison*,p. 12.

في أحد أيام مطلع العام ١٩٨٤، قال مستشار الأمن القومي للرئيس ريغان، روبرت ماكفرلين، للسفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان اللبق والخبير بشؤون الحياة والناس أن عليهما إجراء «حديث اللاحديث». ولبندر وصول إلى دفتر شيكات المملكة وعرف ما الذي سيأتي.

وسأله: «ما الذي تريده؟.»

وجاء الجواب، مليون دولار في الشهر للكونترا في نيكاراغوا.

شكّل هذا مبلغًا زهيدًا لبلد كسب في السنة التي انتهت للتو ٣٦ مليار دولار من مبيعات النفط. وقال الأمير بندر إن السعودية ستوفّر المبلغ. وما لبث ماكفرلين أن طلب منه بعيد ذلك مضاعفة الإسهام؛ فوافق على ذلك أيضًا. وقد أسهمت السعودية بما مجموعه ٣٢ مليون دولار لقضيّة الكونترا، وجُمع المبلغ كلّه في الخفاء على هامش القانون الأميركي(١).

لم تكن نيكاراغوا وحدها في بال الولايات المتحدة خلال عقد الثمانينات. فقد دارت حرب معادية للشيوعية على بعد نصف عالم منها، في أفغانستان، حيث حارب رجال العصابات المدعومون من الـ«سي. آي. إي.» الجيش الأحمر العظيم. شكّلت تلك العلمية الأكثر كلفة التي تشنها الـ«سي. آي. إي.»، على الإطلاق. واستجاب السعوديون بفتح صناديقهم بطريقة لم يفعلها أي بلد قط في حرب أميركية خفيّة.

وهنا أكّدت السعودية في شكل حيوي التزامها جانب الولايات المتحدة في الحرب الباردة: دفتر شيكاتنا هو دفتر شيكاتكم.

بلغ إعجاب الأمراء السعوديين بمدير الـ«سي. آي. إي.» وليام كايسي حدًّا زوَّدوه معه فيلّته الخاصة في عاصمتهم الرياض، وميزتها مجموعة من الطاسات

(١) Patrick Tyler, *A World of Trouble: The White House and the Middle East— From the Cold War to the War on Terror* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009), pp. 312– 15; Tim Weiner, *Legacy of Ashes: The History of the CIA* (New York: Doubleday, 2007), p.399.

المصممة بطريقة فنّية يحتوي كلّ منها نوعًا مختلفًا من الكاجو، وجبة كايسي الخفيفة المفضّلة. غير أن كايسي كان يبحث، عندما سافر سرًّا إلى السعودية عام ١٩٨٤، عما هو أكثر من الفستق[١].

أصبحت ثورة المجاهدين في أفغانستان بالفعل أكثر العمليات طموحًا وكلفة في تاريخ الـ«سي. آي. إي.». وأراد كايسي توسيعها أكثر. وأبلغ الملك فهد أنها معركة العصر الحاسمة، وفرصة للأميركيين والسعوديين للمشاركة في تحطيم القوة السوفياتية التي يكرهونها معًا. وهو أمر يحتاج إلى مال أكثر مما يمكن الولايات المتحدة تأمينه.

وسأل كايسي الملك فهد: «ما الذي يمكنم فعله لمساعدتنا؟».

"إفعلوا ما في وسعكم»، أجاب فهد، «وأنا سأطابقه»[٢].

سافر، بعيد ذلك، ضابط استخبارات سعودي كبير إلى باكستان حيث توجد قواعد المجاهدين الأفغان. واستقبله ديكتاتور باكستان الجنرال محمد ضياء الحق شخصيًّا. لم يهتم ضياء لسماع ما يريد قوله، بل بالأحرى في رؤية ما يوجد داخل الصناديق التي جلبها معه. وأمر الجنرال اثنين من مساعديه بأخذ الصناديق إلى غرفة أخرى وفتحها. وما لبثا أن عادا بالأخبار الطيبة: فقد امتلأت الصناديق برزم جديدة من فئة المئة دولار بقيمة مليون وثمانمئة ألف[٣].

ومنذ تلك اللحظة، دفع السعوديون، في صدق، دولارًا في مقابل كل دولار بعثت به الـ«سي. آي. إي.» إلى المتمرّدين الأفغان. وهو ما يعني ٤٧٠ مليون دولار عام ١٩٨٥، و٦٣٠ مليونًا عام ١٩٨٦، ومبالغ أخذت تتزايد، في اضطراد، طوال السنوات

(١) George Crile, *Charlie Wilson's War: The Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History* (New York: Atlantic Monthly Press, 2003), p. 340.

(٢) المصدر نفسه، ص. ٢٣٨.

(٣) Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, From the Soviet Invasion to September 10, 2001* (New York: Penguin Press, 2004), pp.71– 72.

التالية. وأسهم السعوديون في مآل الأمر بأكثر من ستة مليارات دولار دعمًا للتمرّد الأفغاني[1].

وشرح الأمير تركي الفيصل رئيس الاستخبارات السعودية الذي مضى عليه زمن طويل في هذا المنصب، في إحدى المرات: «أننا لا نقوم بعمليّات، ولا نعرف كيف نقوم بها. وجل ما نعرفه هو كيف نكتب الشيكات»[2].

أرسل السعوديون، إلى جانب إسهامهم الضخم للمجاهدين، بمئات الملايين من الدولارات إلى الجيش وجهاز الاستخبارات في باكستان[3]. لا بل ساعدوا أي حكومة أو قوّة تمرّد أو زعيم عدُّوا، وأصدقاءهم الأميركيين، أنهم يستأهلون المساعدة. فأرسلوا إلى الرئيس المصري أنور السادات، الزعيم العربي المفضل لدى واشنطن، معونة سنويّة بقيمة ٢٠٠ مليون دولار[4]؛ وأعطوا النظام اليمني المحافظ المال لشراء السلاح الأميركي لمّا واجه تمرّدًا يساريًّا؛ ودفعوا، في مقابل، النقل الجوي الطارئ للجنود المغاربة إلى زائير عندما هدد الثوّار الديكتاتور موبوتو سيسي سيكو؛ وأسهموا بـ١٥ مليون دولار لدعم الثوار الموالين لأميركا في أنغولا؛ وقدّموا ما عدَّته نيويورك تايمز «كميات ضخمة من المال، أواخر عقد السبعينات، إلى حكومة الصومال ساعدت في نقل ولاء ذلك البلد من الاتحاد السوفياتي إلى الغرب»[5].

وكتب هنري كيسنجر لاحقًا: «كثيرًا ما وجدتُ، عبر قنوات أخرى، بصمة سعودية مساعدة موضوعة في شكل خفي، حتى إن هبَّة ريح واحدة يمكن أن تخفي كل آثارها».

(١) Robert Baer, *See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA's War on Terrorism* (New York: Three Rivers Press,2002), p. 100; Bronson, *Thicker Than Oil*, p. 173; Coll, Ghost Wars, p.151.

(٢) Coll, *Ghost Wars*, p. 72.

(٣) المصدر السابق، ص. ٧٣-٨١.

(٤) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston:Little, Brown, 1982), p. 661.

(٥) Bronson, *Thicker Than Oil,* pp. 177– 80; Robert Lacey, *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, andthe Struggle for Saudi Arabia* (New York: Viking, 2009), pp. 64– 74; *NewYork Times*, June 21, 1987, July 2, 1987.

ساند السعوديون مشاريع حبّذها الزعماء الأميركيون حول العالم، بيد أنهم لم ينسوا قط الزعماء الأميركيين أنفسهم. فقد سعدوا بتقديم المساعدة، في أي وقت أراد الرئيس أو غيره من الشخصيات النافذة مالًا لمشروع محبّب إلى قلبهم، من مركز جون ف. كنيدي لفنون المسرح، إلى حملة مكافحة المخدّرات «قل لا وحسب». وقد أسهم السعوديون، منذ جيمي كارتر، في بناء كل مكتبة رئاسية بهبات بحدود عشرة ملايين دولار[1]. وما إن أدركت الحكومة السعودية أن لنانسي ريغان نقطة ضعف حيال المجوهرات، حتى أرسلت إليها حقيبة تحتوي ما قيمته مليونا دولار من الألماس وضعتها على تاج عند المصمم النيويوركي هاري ونستون[2]. وبعد ذلك بقليل، سألت السيدة ريغان الأمير بندر عن إمكان إيجاد وظيفة للمساعد السابق في البيت الأبيض مايكل ديفر الذي تعثّرت أوضاعه؛ فاستخدمه بندر مستشارًا ودفع له خمسين ألف دولار في الشهر من دون أن يطلب منه أبدًا القيام بأي عمل[3].

بلغت السعودية حدًّا كبيرًا من الثراء، حتى إن هذه الإسهامات بالكاد خدشت خزينتها. وحلّقت مداخيلها مع أسعار النفط. فموازنتها العامة بلغت ٩,٢ مليار دولار في السنة ما بين العامين ١٩٦٩ و١٩٧٤، لتصبح في السنوات الخمس التي تلت ١٤٢ مليارًا.

حقّقت الأموال التي أرسلتها السعودية إلى الثوار الأفغان إيرادات حسنة. فساعدت المتمرّدين في توجيه ضربة إلى السوفيات الذين كرههم السعوديون الشديدو المحافظة. وأكسبتهم الكثير من العرفان بالجميل في الولايات المتحدة التي رغبوا في أن يشتروا منها أنظمة الأسلحة المتطوّرة. وحصلوا سريعًا على مكافأتهم الأولى عندما طلبوا من الرئيس ريغان تزويدهم أربعمئة صاروخ ستينغر المضاد للطائرات الذي يحظر القانون نقله. واستحضر ريغان بندًا يتعلّق بعملية تزويد طارئة وأرسل الصواريخ.

(١) Lacey, Inside the Kingdom, pp.214– 15.

(٢) Tyler, *World of Trouble*, p. 319.

(٣) المصدر نفسه، ص. ٣٢٠.

وقال للأمير بندر: «نحن لا نضع شروطًا على الأصدقاء»[١].

اشترت السعودية، على مرّ العقود التي تلت، أسلحة من الولايات المتحدة أكثر مما اشترته أي دولة أخرى. فابتاعت عام ١٩٧٢ ما قيمته ٣٠٥ ملايين دولار؛ وارتفع المبلغ في حلول العام ١٩٧٢ أكثر من عشرة أضعاف ليصبح خمسة مليارات دولار. بل إن التحالف السياسي الذي دفع بهذه المبيعات عبر الكونغرس – وقوامه صناعة الدفاع الأميركية والبيت الأبيض والسعوديون أنفسهم – تمكّن من توجيه الهزيمة الوحيدة الكبرى التي مني بها اللوبي الإسرائيلي في تاريخه[٢]. وقد وقعت عام ١٩٨١ عندما وافق الكونغرس، بفارق ضئيل من الأصوات، على صفقة من طائرات الإنذار المبكر، «أواكس»، للسعودية بقيمة ٨,٥ مليار دولار، على رغم الاعتراضات الشديدة من إسرائيل[٣].

وقال بندر خلال هذه النقاشات: «لو عرفتم ما الذي نقوم به فعلًا من أجل أميركا لما اكتفيتم بإعطائنا الأواكس، بل لقدّمتم إلينا الأسلحة الذرّية»[٤].

لم تتوقف مبيعات الأسلحة هذه، أو حتى تتراجع، مع تبدّل العالم. وجاء في عنوان للنيويورك تايمز عام ١٩٩٠: «مبيعات أسلحة أميركية للسعودية بقيمة ٢٠ مليار دولار في صفقة الأسلحة الأكبر في التاريخ». وكاد يطابقه عنوان آخر ظهر بعد ذلك بسبع عشرة سنة: «الولايات المتحدة ماضية في عرض صفقة أسلحة بعشرين مليار دولار للسعودية ودول خليجية أخرى»[٥].

وفّرت هذه الصفقات للسعودية قوّة عسكرية كبرى، لكنها ألقت على النظام

(١) Bob Woodward, *Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981– 1987* (New York: Simon and Schuster, 1987), p.349.

(٢) Bronson, *Thicker Than Oil*, p. 127.

(٣) Raviv and Melman, *Friends in Deed*, pp. 190– 95.

(٤) William Simpson, *The Prince: The Secret Story of the World's Most Intriguing Royal: Prince Bandar bin Sultan* (New York: Regan Books, 2006), p. 112.

(٥) عنوانا النيويورك تايمز ظهرا في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، و٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٧.

ظلالًا من الشك لأنها تكشف علاقته الحميمة بالولايات المتحدة. ورأى سعوديون في هذه الشركة – بين نظام يعدُّ نفسه المدافع عن طهارة الإسلام والدولة المسيحية الأقوى في العالم – رمزًا لرياء النظام. كذلك امتعضوا من أسلوب حياة بعض الأمراء السعوديين وقد ربطوه باليخوت وبالطائرات الخاصة وبالعقارات الفاخرة وبالمقامرة في الكازينوهات وبفورات التسوّق بملايين الدولارات وبالفسق الفاسد.

أخذ الغضب من هذا الرياء في تحويل بعض الشبّان السعوديين الذين تشرّبوا المبادئ المتشددة للإسلام الوهابي، أعداء للنظام. وهل هناك من وسيلة للنظام لحماية نفسه من هذا الوصف أفضل من إرسال هؤلاء المثاليين المتحمّسين للقتال في الخارج؟ وسافر آلاف السعوديين إلى أفغانستان للقتال إلى جانب المجاهدين. وحارب آخرون في كشمير والبوسنة والشيشان. ولا بد من أن بعضهم على الأقل كان سينقلب على النظام السعودي لو لم يجدوا قضايا أخرى لهم في أمكنة بعيدة.

يتطلّب العمل التوازني الذي قام به آل سعود – التبشير بالإسلام المتزمّت فيما هم يحتضنون الولايات المتحدة ويسمحون للأمراء بحياة تشتهر بأنها غير إسلامية – ترتيبًا خاصًّا. وهذا التدبير هو كناية عن صفقة بين العائلة وعلماء الدين الوهّابيين، وهو الذي جاء بالنظام إلى السلطة وساند مذذاك حكمه.

يرفض المسلمون الوهّابيون، الذين يُفضّلون أن يسمّوا أنفسهم «الموحّدين»، كل ما له مسحة من البهرجة، من الموسيقى إلى الجوامع المغطّاة بالقرميد إلى طلاء الأظافر. ويعارض بعضهم استخدام أي جهاز اخترع بعد القرن السابع، وهو القرن الذي عاش فيه النبي محمّد. ويمقتون استخدام «الرسوم المنحوتة»، ومعها الرسم والتصوير الفوتوغرافي والتلفزيون. ويحتقرون المسيحيين واليهود، لكنهم يدينون، في شراسة أكبر، من يعدونهم من المرتدين عن الإسلام، ويخصّون بينهم الصوفيين والشيعة.

شنّ تحالف عائلات آل سعود وآل وهّاب سلسلة من الحروب هزّت شبه الجزيرة

العربية، ما يقارب مئتي سنة. وبمساعدة من بريطانيا اجتاحوا، بداية القرن العشرين، معظم شبه الجزيرة العربية، وأقاموا عام ١٩٣٢ دولتهم، السعودية. وتزعّمهم عبد العزيز عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، الذي يُعرف في الغرب بابن سعود؛ وهو الذي التقى فرانكلين روزفلت على متن كوينسي مع انتهاء الحرب العالمية الثانية.

شعر الزعماء الأميركيون بالسعادة لحصولهم على دولة شريكة توفّر النفط، في سخاء، وتعيد معظم أرباحها إلى الولايات المتحدة بشرائها الأسلحة وتساند، في إخلاص، المصالح الأميركية حول العالم. وباتت العلاقة بينهما الحجر الأساس للسياسة الخارجية الأميركية، وهي قد تجاوزت السياسة. ولم يبالغ جيمي كارتر، ربّما، عندما قال إن «ما من دولة في الأرض كانت أكثر تعاونًا من السعودية». وامتلك جورج و. بوش ما يوازي ذلك من الأسباب ليتعهد، بعد ذلك بجيل، «الصداقة الأبدية» مع نظام آل سعود الملكي.

وتحكم هذه الملكية بموجب اتفاق لتقاسم السلطة مع علماء الدين الوهّابيين، تسمح بموجبه العائلة المالكة لهؤلاء بفرض الشريعة الدينية القاسية، وتوفّر لهم أيضًا مبالغ كبيرة من المال الذي يستخدمونه لبناء المدارس الدينية الأصولية في السعودية وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ويتجاهل رجال الدين في المقابل سبل آل سعود غير الإسلامية ويباركون تحالفهم مع الولايات المتحدة.

ويرتكز أساس تلك الصفقة، على ما يشرحه المدير السابق لـ «سي. آي. إي.» جايمس وولسي، على «أن يُعطى الوهّابيون كل مال العالم الذي يمكنهم أن يحلموا ولو من بعيد أنهم يحتاجون إليه أو يريدونه لنشر معتقدات طائفتهم، على أن يتركوا بيت آل سعود وشأنه»[1]. وهزّ السعوديون الذين أغضبهم هذا التدبير المملكة مرّات عدّة. ولأنهم ممنوعون من الكلام، كما يمكنهم أن يفعلوا في مجتمع منفتح، انفجروا مرّات عدّة في أعمال عنف.

(١) "The Global Spread of Wahhabi Islam:How Great a Threat?" accessible at http://pewforum.org/events/?EventID=77.

جاءت الضربة الأكثر إذهالاً التي وجهت إلى الدولة السعودية، على الإطلاق، مع انتشار الدعوة إلى الصلاة عبر هواء مكّة الصحراوي الحار، الساعة ٥:١٨ من فجر العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩. تحرّك أحد المتآمرين جهيمان العتيبي، في صمت، بين المؤمنين. وهو هارب ترك الحرس الوطني لأنه شعر بعدم القدرة على خدمة عائلة آل سعود غير الطاهرة وكتب سلسلة من المناشير التي تندّد بالعائلة بصفة كونها ينبوعًا من «الشر والفساد».

جاب جهيمان، طوال أشهر، المدن التي يعرف فيها مؤمنين متحمّسين، وبعضهم من قدامى تمرّد ديني سحقه النظام قبل ذلك بأعوام. وجمع مئات من الأتباع وجاء بهم إلى مكة. ونقلت مجموعات منهم حمّالات ملفوفة بالأكفان كتلك التي تُستخدم لجلب الجثامين إلى المسجد الحرام للصلاة الأخيرة عليها. وأخفيت تحت هذه الأكفان مسدسات وبنادق آلية وكمّيات من الذخيرة.

ولما شرع إمام الجامع في الدعوة إلى صلاة فجر اليوم العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، انطلق ظلّ جهيمان الحافي القدمين من بين الحشود.

«هوذا المهدي! هوذا المهدي المنتظر!» صاح أتباعه من الباحة الكبيرة. وأقفلوا، وهم يهتفون، بوّابات الجامع الخمس والعشرين وسحبوا الأسلحة من تحت عباءاتهم وأطلقوا النار على جميع الحرّاس الأمنيين ورجال الشرطة الذين حاولوا المقاومة.

وقد استولى المؤمنون، لا الكفار، على المسجد الحرام الذي يتوجّه إليه المسلمون في كل مكان، ليصلّوا إلى الله. وامتلكوا ثلاثة مطالب: أن يُخلع آل سعود عن العرش، وأن تُقطع العلاقات مع الولايات المتحدة، وأن تُفرض الشريعة الدينية المتشدّدة على كل أنحاء المملكة.

استغرق الجنود السعوديون، الذين ساعدهم المغاوير الفرنسيون المسلحون بقنابل

تصيب بالشلل، أربعة عشر يومًا لاستعادة المسجد الحرام. فقد انسحب المتمرّدون إلى متاهة من الأنفاق والأقسام التي تنتشر تحت الأرض.

وكتب المؤلف البريطاني روبرت لاسي في روايته للحصار: «لم يستسلم متمرّد واحد طوعًا؛ نصبوا المكامن وقاتلوا في شراسة حتى النهاية المرّة... وأخيرًا، ويوم الثلاثاء الرابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩، وبعد أسبوعين على بدء الحصار، اقتحم المهاجمون أحد الأبواب الحديد ليعثروا على مجموعة محتشدة من الرجال، وقد اسودّت وجوههم من السخام وتلوّثت ثيابهم الممزّقة بالدماء والقيء. لقد فعل الغاز فعله. وأخذ بعضهم يرتجف بطريقة لا يمكن السيطرة عليها. سوى أن أحدهم احتفظ، وقد اختبأ وسط صناديق من السلاح وأكوام من المناشير الملوّنة، بالعينين الوحشيتين، ولكن الخائفتين الآن في شكل مدهش، لحيوان جارح محشور في الزاوية. «ما اسمك؟ سأله النقيب السعودي وهو يصوّب إليه سلاحه. «جهيمان»، جاء الجواب»[١].

مات، بحسب الروايات الرسمية، ما لا يقل عن مئة رجل من كل طرف في المسجد الحرام؛ ورفعت تقديرات أخرى العدد إلى آلاف. وبعد مدة قصيرة على ذلك، قُطع رأس جهيمان واثنين وستين من أتباعه في الساحات العامة في مناطق مختلفة من البلاد. ودعي المواطنون ليشهدوا على مصير من يعتقدون أنهم يعرفون مشيئة الله أكثر من أسرة آل سعود[٢].

وصاح أحد الرجال ـ الضحايا، فيما الجلاد على وشك أن يضربه بسيفه: «تعرفون ما الذي قاموا به! لقد شهدتم على خطاياهم وفسادهم! فلتحل بهم أسوأ نهاية»![٣]

(١) Lacey, *Inside the Kingdom*, p. 34.

(٢) Lawrence Wright, *The Looming Tower: Al- Qaeda and the Road to 9/11* (New York: Knopf, 2006), p. 94.

(٣) Lacey, *Inside the Kingdom*, p. 36.

هزّ الاستيلاء على المسجد الحرام نظام آل سعود، في شدة. وبات عليه أن يقرر كيف يرد: هل بمحاولة سحق المتحمّسين الدينيين، أو بمحاولة احتوائهم. واختار، بما لم يفاجئ أحدًا، احتواءهم. وأمر النظام المصمم على إثبات إخلاصه للمبادئ الوهابية، بشن حملة على الحداثة الزاحفة، بما في ذلك إقفال كل صالونات تصفيف الشعر والاستغناء عن خدمات جميع المذيعات التلفزيونيات.

واشتكى أحد الصحافيين السعوديين بعد ذلك بسنوات: «قتلنا المتطرفين عام ١٩٧٩، سوى أننا لاحقًا، بعد بضعة أشهر على قتلنا لهم، تبنّينا أيديولوجيتهم... كنا أعطيناهم ما أرادوا الحصول عليه وهم لا يزالون أحياء»(١).

واجه النظام السعودي أزمته الكبرى التالية عام ١٩٩٠، بعدما بعث صدّام حسين الجنود العراقيين لاجتياح الكويت واحتلالها. وخشي آل سعود أنه قد يعمد تاليًا إلى اجتياح السعودية، إذا لم يتم إيقافه. وعاش الملك فهد حالًا من الذعر المكبوح عندما وصل إلى الرياض مساعدون رفيعو المستوى للرئيس جورج هـ. و. بوش. وقال لهم فهد إن السعودية مستعدة لدفع تكاليف الحرب على صدّام مهما بلغت.

وجادل أن «ما قيمة المال بين الاصدقاء؟ ما عليكم إلا الذهاب إلى وزير المال وإبلاغه ما تعتقدون أنه مناسب، أو ما تحتاجون إليه».

دفعت السعودية خمسين مليار دولار لتمويل حرب الخليج. وتدفّق مئات الآلاف من الجنود الأميركيين وكميات ضخمة من المعدات العسكرية إلى المملكة. وخيضت الحرب من القواعد الموجودة فيها. واغتاظ بعض السعوديين من قرار العائلة المالكة الانحياز إلى الأميركيين ضد دولة مسلمة شقيقة. وشرع الإرهابيون، بعد الحرب، في الضرب في داخل المملكة. وحققوا نجاحات، بينها تفجير العام ١٩٩٦ الانتحاري لمجمّع أبراج الخبر السكني على مقربة من الخليج، وقد قُتل فيه ١٩ جنديًا أميركيًا وجُرح نحو أربعمئة.

(١) Public Broadcasting System, "*The Armingof Saudi Arabia,*" *Frontline* 1112, February 16, 1993.

ثم جاءت الهجمات في خارج السعودية وقد نُسبت إلى القاعدة، وهي مجموعة إرهابية إسلامية ناشئة بقيادة المليونير السعودي أسامة بن لادن. وفُجّرت عام ١٩٩٨ السفارتان الأميركيتان في كينيا وتنزانيا؛ وقُتل فيهما ٢٤٤ دبلوماسيًّا وغيرهم. وبعد ذلك بسنتين، أدى الهجوم التفجيري على المدمّرة الأميركية كول الراسية قبالة الساحل اليمني إلى مقتل ١٧ بحّارًا أميركيًّا.

ولم يكن من المفاجئ أن ١٥ أو ١٩ من الخاطفين الذين نفذوا هجمات ١١ أيلول/سبتمبر الإرهابية، إضافة إلى الرجل الذي أرسلهم في مهمتهم، كانوا من السعودية. لم يعد ممكنًا تحمّل فعل التوازن الذي قامت به أسرة آل سعود. فركيزتاه المزدوجتان – الولايات المتحدة والإسلام الوهابي – على درجة كبرى من التعارض المتأصل بحيث بات على أحدهما أن يفتك بالآخر. وضرب نتاج السعودية أوّلًا.

«لا تكذب عليّ!» صاح الرئيس رونالد ريغان عبر هاتف البيت الأبيض وقد استبد به الغضب.

حاول رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن، غير المتعود أن يخاطبه الزعماء الأميركيون على هذا النحو، تهدئة الرئيس. وقال له بيغن إنه مخطئ جدًّا لو اعتقد أن القوات الإسرائيلية تقصف بيروت وتقتل شعبها. بل أكّد لصديقه، على العكس، أن قوات الغزو الإسرائيلية قد غادرت بيروت بعد عملية سريعة وهي في طريقها إلى الانسحاب إلى أراضيها.

لطالما كان ريغان صديقًا لإسرائيل، لكنه عرف أن بيغن لا يقول الحقيقة. فقد أنهى للتو مكالمة هاتفية مع مبعوثه الشخصي في بيروت فيليب حبيب، الذي شهد على المجزرة ووصفها له بالتفصيل المريع. وإذا احتاج الأمر إلى مزيد من الدليل فهو موجود في البث الحيّ على محطات التلفزة الأميركية التي أخذ مراسلوها في بيروت يقدّمون التعليقات وهم يلهثون فيما القنابل الإسرائيلية تُدمّر المدينة.

وصاح ريغان ببيغن: «أنا جالس هنا أشاهد الأمر على السي. أن. أن! ويجب على كل زعيم عالمي أن يلتزم كلمته التي يقولها لزعيم عالمي آخر. وأنت قلت لي بالأمس إنكم شرعتم في الانسحاب. بل قلت لي إنكم انسحبتم بالفعل، وها أنا أجلس هنا وأشاهد ذلك!»[١].

دفعت حرب إسرائيل الطويلة في لبنان، وبخاصة مقتل مئات عدة من المدنيين الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا على أيدي الميليشيا التي تحميها إسرائيل، بعض الأميركيين إلى الشروع في إعادة صياغة نظرتهم إلى إسرائيل. وازداد، في السنوات التي تلت، توسّع المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. وقام الفلسطينيون بانتفاضتين قمعتهما إسرائيل في وحشية. وبنهاية العام ٢٠٠٨، وبعد مرور ثلاثة أعوام على سحب إسرائيل جنودها من قطاع غزّة وتخلّيها عن المستوطنات المدنية فيها، شنّت هجومًا مدمّرًا على القطاع، ردًّا على الهجمات الصاروخية الفلسطينية، ثم فرضت حصارًا قاسيًا عدَّه محقّقو الأمم المتحدة «هجومًا غير متكافئ مقصودًا يهدف إلى معاقبة السكان المدنيين وإذلالهم وإرهابهم»[٢]. وأخذ إعجاب الأميركيين بإسرائيل التي جعلوها مثالية – وقد سمي أحيانًا بـ«عامل الخروج» ـ في الاضمحلال.

وأدت المفاوضات بين إسرائيل والعرب، خلال تلك الأعوام، إلى نتائج مهمة، وخصوصًا قرار إسرائيل سحب قواتها من شبه جزيرة سيناء ومنح حكم ذاتي محدود للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزّة. تصافح رئيس الوزراء بيغن والرئيس السادات، عام، ١٩٧٩ على عشب البيت الأبيض، ومنحهما اتفاقهما جائزة نوبل للسلام. وبعد ذلك بأربع عشرة سنة، وأيضًا على عشب البيت الأبيض، تصافح رئيس الوزراء اسحق رابين والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في صفقة أخرى وفازا أيضًا بجائزة نوبل للسلام. وشرع بعض الدول، ولو على مضض، في قبول فكرة أن وجود إسرائيل

(١) Tyler, *World of Trouble*, pp. 283– 84.

(٢) *New York Times*, September 16,2009.

أضحى واقعًا دائمًا في حياة الشرق الأوسط. ولكن تبيّن أن هذه النجاحات، مع كل ما رافقها من طبل وزمر، ليست سوى نجاحات موقتة. واستمع العالم إلى سلسلة من العبارات اللافتة للانتباه – مثل اتفاقات كامب ديفيد، ومؤتمر مدريد، وعملية أوسلو، وخارطة الطريق، ومذكّرة واي ريفر، ومؤتمر أنابوليس للسلام – غير أنها لم تشكّل بالنسبة إلى الكثيرين من الفلسطينيين أكثر من ضوضاء خلفيّ. وجرجرت الأزمة أذيالها إلى ما لا نهاية. وستستمر ما استمرّت الولايات المتحدةً – اللاعب الأكثر نفوذًا في الشرق الأوسط – في التصرّف كما في الماضي.

خدمت الشِّرْكتان اللتان ربطتا الولايات المتحدة بإسرائيل وبالسعودية غايةً استراتيجيّة واضحة، ما استمرّت الحرب الباردة في الاستعار. غير أن العالم تغيّر مذذاك في شكل حاسم. وباتت الفرصة مؤاتية الآن للولايات المتحدة، وقد تحرّرت من قيود المنافسة بين القوتين العظميين، في إعادة تصوّر هاتين الشِّرْكتين. فهل يمكن أن تتغيّر بطرق قد تعيد صياغة الشرق الأوسط؟ وهل يجب على الولايات المتحدة البحث عن شركاء استراتيجيين جدد؟ وأين عليها، والحال هذه، أن تفتّش؟ فمن المشهور عن النظام السياسي الأميركي أنه سيّئ في الإجابة عن أسئلة معقّدة كهذه.

لا تفعل المقاربات القديمة للشرق الأوسط سوى أنها تكرّر الإخفاقات السابقة. فالتفاوض بات عدوًّا للسلام. وها إن المنطقة تصرخ طلبًا لما هو جديد. فما الذي يمكن أن يكونه؟

٧
متشابكة إلى حدٍّ كبير

من الأفضل لكم أن ألتزم الحياد. لا تجبروني. لا تدفعوني إلى خيانة جيراني. لا تجبروني على القيام بأشياء تحوّل أصدقائي وعائلتي أعداء.

جلسنا في وقت متقدم من إحدى ليالي الصيف في مطعم في الهواء الطلق على مقربة من البحر الأحمر في جدّة، وأجابني صديقي خالد باطرفي بما سبق عندما سألته كيف على الولايات المتحدة أن تعامل بلاده. كانت أمسيتنا أقرب إلى المتعة بقدر المتعة التي يمكن المرء أن يستمتع بها قانونًا. تلألأت النجوم من فوقنا، وارتطم الموج بالشاطئ من تحتنا. ولمعت من ورائنا لافتات النيون للمطاعم الأكثر شعبية – فرايدايز، أبلبيز، روبي تيوزداي، برغر كينغ – إلا أننا استمتعنا بثمار البحر ذات النكهة اللطيفة.

يُنظر بعين كبيرة من الشك في السعودية إلى فكرة المتعة – اللحظات الخالية من الهم، اللذة الحسية، الهرب من طغيان الروتين والفرائض. ويُحظر تعاطي الكحول. ولا يمكن أي رجل أن يتناول الطعام مع امرأة في مكان عام، إلا إذا كانا متزوجين. وعلى رغم أن المحادثة حرّة، من غير الجائز نشر الأفكار غير التقليدية. امتهن خالد الصحافة، لكنه تخلّى عنها بعدما رفض ناشروه الكثير من مقالاته تطبيقًا للكثير من

القوانين الحكومية غير المكتوبة. وهو يُدرّس الآن إدارة الأعمال في معهد لإدارة الفنادق.

يعتقد البعض أن على الولايات المتحدة دفع السعودية إلى الخروج من قوقعتها الرجعية، والتخلي عن تحالفها مع الأصولية الوهابية، وإزالة كل القيود على حريّة التعبير، والسماح لمواطنيها بالعيش، كما يرتؤون. ويعتقد البعض الآخر أن على الولايات المتحدة تحذير آل سعود من الإصلاح لأنه قد يؤدي إلى الانتفاضة والثورة والحكم الأصولي. فأي منهما يشكّل المسار الصحيح؟

ولا واحد.

كيف يريد الأميركيون للسعودية أن تكون؟ وتفعل؟ وتعزّز؟ وتقمع؟ من هم زعماء الشرق الأوسط الذين عليها أن ترعاهم وتدعمهم، تعارضهم أو تقاتلهم؟ ما هي البلدان التي عليها أن تزودها النفط؟ وما هي التي يجب أن تقاطعها؟ هل تشكّل الملكية المطلقة أفضل أشكال الحكم للسعودية؟ وما هو النظام السياسي الأفضل؟ وكيف على الولايات المتحدة أن تدفع آل سعود في الاتجاه الذي يجب عليهم السير فيه؟

انقضى ما يقارب ثلاثة أرباع القرن منذ لقاء فرانكلين روزفلت مع ابن سعود على متن السفينة الحربية الأميركية كوينسي، كرّس خلاله صانعو السياسة الأميركيون طاقة ضخمة في مناقشة أسئلة كهذه. وربما ارتدت هذه النقاشات معنى في وقت ركّزت الولايات المتحدة على الحرب الباردة. وهي لم تعد كذلك. لم يعد من شأن أميركا تصوّر السعودية وصياغتها وتوجيهها، بل إنه شأن السعودية نفسها.

لا تتطلّب إعادة تصفير مقاربة الولايات المتحدة للشرق الأوسط بناء شِرْكات جديدة وحسب، بل أيضًا إعادة صياغة القديمة منها. والاثنتان الأقدم هما اللتان تربطان الولايات المتحدة بالسعودية وبإسرائيل. عادت هاتان العلاقتان على الأميركيين بالكثير من الأمور القيّمة التي ستستمر مستقبلًا. ولا مصلحة لأميركا في

قطعهما، ليس للأسباب السياسية والاقتصادية والأخلاقية الواضحة فحسب، بل أيضًا لأن القوى العظمى تُضعف نفسها عندما يُعدُّ أنها مستعدة لتبديل الشركاء كلّما تبدّلت الرياح السياسية. فصحيح أن على الولايات المتحدة أن تبقي على صداقتها مع كل من السعودية وإسرائيل، ولكن، ومع تغيّر الأزمنة، ينبغي لطريقة هذه الصداقة أن تتغيّر أيضًا. فما صبّ جيّدًا في مصلحة هاتين العلاقتين على امتداد نصف قرن لم يعد صالحًا لهذه الخدمة الآن.

ليس العثور على طريقة للتحلل من الصداقة مع السعودية وإسرائيل هو التحدّي الذي يواجه أميركا اليوم، بل العثور على طرق جديدة للصداقة مع هاتين الدولتين من شأنها، في الظروف التي تغيّرت في حقبة ما بعد الحرب الباردة، أن تخدم فعلًا مصالح الأطراف جميعًا. ومفتاح القيام بهذا التغيير هو في أن يجرؤ الزعماء الأميركيون على أمر جديد. فلا يمكن أيًّا من السعودية أو إسرائيل، ولأسباب مختلفة، تفصيل سياسات تخدم مصالحها الاستراتيجية البعيدة المدى أو تطويرها. فكلتاهما عالقة في أنماط من تدمير الذات. والفارق بالنسبة إلى الولايات المتحدة هو أن قوتها وبعدها عن المنطقة وغنى خياراتها الاستراتيجية وأهمية السلام في الشرق الأوسط لأمنها الخاص، تعطيها القدرة على الانفصال عن الأنماط القديمة. وما لم تفعل ذلك لن يتغيّر شيء في تلك المنطقة التي أدركها الليل. وسيكون ذلك سيّئًا للولايات المتحدة ولصديقاتها.

لم تُقِم الولايات المتحدة في أي مكان آخر من الأرض تحالفًا يتطلّب ضمان أن يحكم الورثة الذكور لعائلة واحدة إلى ما لا نهاية، وكما يرون ذلك مناسبًا. هذا هو جوهر التزام فرانكلين روزفلت عام ١٩٤٥ لابن سعود. ونمت مذذاك العلاقة، في اندفاع، وخارج نطاق السيطرة، لتبلغ ذروة مستغربة في عهد رئاسة جورج و. بوش، إذ دُهش الكثيرون في البلدين من الصورة الشهيرة لبوش ممسكًا بيدي الملك عبدالله خلال زيارة الأخير لتكساس. وهي صورة بلورت إلفة تطوّرت من صداقة بين دولة ودولة إلى شبكة فريدة كثيفة من الروابط السياسية والاقتصادية.

«في حصيلة الأمر، شق ما لا يقل عن ١,٤٧٦ مليار دولار طريقه من السعوديين إلى دار بوش وحليفاته من الشركات والمؤسسات»، على ما كتب كريغ أنغر في كتابه المندد بدار بوش، وبدار آل سعود. «لم يسبق قط أن كانت ثروات الرئيس الشخصية والسياسات العامة متشابكة إلى هذا الحد الكبير مع دولة أجنبية»[1].

فرضت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، خلال الحرب الباردة، انضباطًا شديدًا على أتباعهما. فلم يمكن المجتمعات أن تتطوّر، في حرّية، لأن نزوات واشنطن وموسكو حرّفتها. وقد عرّض هذا التنافس العالمي الخانق الشرق الأوسط للتشوّه الرهيب وأخّره جدًّا عن إيجاد نموذج جديد لحقبة ما بعد الحرب الباردة.

عام ٢٠٠٢ أكّد ريتشارد هاس مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأميركية، «أننا بفشلنا في المساعدة في تعزيز المسارات التدريجية صوب الديمقراطية في الكثير من علاقاتنا المهمة، بإنشائنا ما يُمكن تسميته «الاستثناء الديمقراطي»، فوّتنا فرصة مساعدة هذه البلدان على أن تصبح أكثر استقرارًا وازدهارًا وسلمًا، وأشدّ تكيّفًا مع ضغوط العالم المعولم». وأضاف أن «ليس في مصلحتنا، أو مصلحة الناس المقيمين في العالم الإسلامي، أن تستمر الولايات المتحدة في هذا الاستثناء»[2].

تكمن مأساة كبرى وراء عبارة «الاستثناء الديمقراطي». فهي اختصار مؤسف لواقع أن الدول العربية هي، كمجموعة، الوحيدة التي فشلت في الانضمام إلى المسيرة العالمية صوب الحرية. وقد بدا، منذ مدة طويلة، أن تصوّر كوريا جنوبية ديمقراطية، وبرازيل ديمقراطية، وبولندا ديمقراطية، أو ليبيريا ديمقراطية، ما كاد يكون ممكنًا. وقد أصبحت كل هذه التخيّلات واقعًا. وبقي العالم العربي يقاسي تحت حكم الأنظمة الاستبدادية الفاسدة فيما بلغت موجة الحرّية هذه شواطئ كثيرة.

---

(١) Craig Unger, *House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship Between the World's Two Most Powerful Dynasties* (New York: Scribner, 2004), p. 200.

(٢) Richard Haass, "Towards Greater Democracyin the Muslim World," speech to the Council on Foreign Relations, December 4, 2002.

وكان للحفاظ على هذه الأنظمة مغزاه في الحرب الباردة. ولكن حان الوقت الآن لتخفف الولايات المتحدة من روابطها بهذه الأنظمة وتسمح للعرب بصياغة قدرهم بأنفسهم.

وتشكّل السعودية مكانًا جيّدًا للشروع في ذلك.

تميّز معظم التحليل الأميركي للسعودية بالتبسيط المؤلم. فطوال عقود، صوّرت الصحافة الأميركية، وقد صاغت واشنطن إدراكاتها، النظام السعودي حليفًا وثيقًا وقيّمًا لها، ومنارة للاعتدال والاستقرار، في منطقة تبدو دومًا معادية للولايات المتحدة في شكل أشد جذرية ولا يمكن فهمه. وفجأة تأرجح الرقّاص في صورة هوجاء، بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، ليصل إلى الطرف الآخر الأقصى. فتمت أبلسة السعودية كمرجل للإرهاب والحقد. وشرع أعضاء في الكونغرس ممن ساندوا، في حماسة، مبيعات الأسلحة الضخمة من السعودية في التنديد بزعمائها وفي معارضة جهودها للانضمام إلى مؤسسات دولية مثل منظمة التجارة العالمية[١].

السعودية دولة غنية بتعقيداتها، تحكمها عائلة تمسك بالسلطة المطلقة، لكنها مضطرة إلى موازنة مصالح مجموعات كثيرة، وفئات، وقبائل، ومناطق. وكان لتحالف الأسرة المالكة مع الإسلام الوهابي تأثيرات رهيبة، لكنه وفّر للبلاد أيضًا سلامًا داخليًّا ما ينقطع، فيما انزلق الكثير من جيران المملكة إلى العنف والفقر. فهذه الدولة، وتحت كل نزاعات اللحظة السياسية، وفي ما هو أبعد من الثروة التي أغرقتها منذ اكتشاف النفط فيها، هي منشأ الإسلام. ويشعر سكّانها شعورًا عميقًا بهذا الإرث ويعتنقونه في حرارة. وأيًّا تكن الحكومة يبقَ شبه الجزيرة العربية يؤدي دورًا أساسيًا في الضمير الإسلامي.

فهل يجب على آل سعود الاستمرار في أن يكونوا هذه الحكومة؟ وإذا كان

(١) Rachel Bronson, *Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia* (New York: Oxford University Press, 2006), p. 256.

الجواب نعم، هل يجب أن تبقى العائلة ممسكة بالسلطة المطلقة؟ وإذا كان لا، فأي نظام يجب أن يُستبدل بها؟ ومناقشة هذه المسائل في العلن محظور في المملكة. إلا أن هناك بعض السعوديين على الأقل ممن يودّون القيام بذلك.

شن عمّال النفط موجة من الاحتجاجات عام ١٩٥٦، مطالبين بالحقوق العمالية وبإقفال القاعدة الجوية الأميركية في الظهران؛ فأوقف منظّمو الاحتجاجات وضُربوا[١]. وعام ١٩٦٢، دعا أفراد كثيرون من الأسرة المالكة هذه العائلة علنًا إلى قبول دستور، حتى أنهم أعدّوا واحدًا؛ لكن المجموعة الحاكمة رفضته[٢]. وبعد ذلك بسبع سنوات، قمعت العائلة ضبّاطًا في سلاح الجو اعتقدت أنهم يخططون لانقلاب، وأعدمت عددًا منهم وأوقفت المئات من الموظفين الحكوميين، ممن عدَّتهم متعاطفين معهم، وسحقت ما سمته نيويورك تايمز «الحركة الثورية» وهي «الأكبر التي تكتشف حتى الآن في السعودية»[٣].

انتهكت سبع وأربعون امرأة عام ١٩٩٠ أحد القيود المُضعفة الكثيرة لحرّية المرأة، بقيادتهن السيّارات في قافلة غير مشروعة عبر الرياض[٤]. بعد ذلك ببضعة أشهر، أصدر أربعمئة من رجال الدين والعلماء «رسالة مطلبية» تدعو النظام إلى التخلّي عن الفساد وإنهاء التحالفات الأجنبية التي قالوا إنها تنتهك الشرع الإسلامي[٥]. وعام ٢٠٠٣، بعث ناشطون من مؤيدي الديمقراطية باقتراح إلى العائلة المالكة تحت عنوان «نظرة استراتيجية من أجل الحاضر والمستقبل»، يطالبون فيه بالمزيد من الحرّيات العامة وبالملكية الدستورية؛ وأُدخل قادتهم إلى السجن. وأوقف في وقت لاحق من

---

(١) James Wynbrandt, *A Brief History of Saudi Arabia* (New York: Facts on File, 2004), p. 213.

(٢) المصدر السابق ص. ٢١٩-٢٢٠؛ Bronson, Thicker Than Oil, p.83.

(٣) New York Times, September 10, 1969; Alexei Vassiliev, *The History of Saudi Arabia* (New York: New York UniversityPress, 2000), p. 371.

(٤) Robert Lacey, *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists,Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia* (New York: Viking,2009), pp. 134- 40.

(٥) Bronson, *Thicker Than Oil,* p. 212; Wynbrandt, *Brief History of Saudi Arabia*, pp. 259- 60.

السنة نفسها بضع مئات من المحتجين في تظاهرة ضد لجنة حقوق الإنسان الحكومية التي نددوا بها على أنها خداع. وأوقف عام ٢٠٠٧ عشرة رجال في جدّة بتهم التآمر لتشكيل حزب سياسي. وعام ٢٠٠٩، أرسل سبعة وسبعون سعوديًا، عرّفوا عن أنفسهم بأنهم مدافعون عن حقوق الإنسان، عريضة إلى الملك عبدالله يطالبون فيها بتعيين رئيس للحكومة من العامة، وبانتخاب برلمان يُعطى دورًا في اختيار الملوك في المستقبل، وبمنح جميع المتهمين بأعمال جرمية «محاكمات عادلة وعلنية».

ويجب ألا تؤخذ المثابرة على هذه الاحتجاجات على أنها تعني أن المملكة تشتعل بالحماسة الإصلاحية أو أن العائلة المالكة ترفضها في شكل قاطع. ففي مقابل كل واقعة مرعبة – مثل وفاة ١٤ فتاة عام ٢٠٠٢ عندما رفض المطاوعة السماح لهن بالهرب من مدرستهن المشتعلة لأنهن لسن محجّبات كما يجب – توجد أخرى مُشجّعة مثل الانتخابات البلدية المحدودة عام ٢٠٠٥، أو افتتاح جامعة عام ٢٠٠٩ يمكن فيها الطلاب الذكور والإناث الاختلاط في حريّة. كذلك لا يمكن السعوديين تجاهل أهوال الديمقراطية التي يرونها في الكويت المجاورة حيث يتشاجر البرلمان المنتخب مع الأمير، في استمرار، أو حتى في شكل أوضح في العراق حيث جلب فرض الديمقراطية بفوهة البندقية موتًا ورعبًا يفوقان التصوّر[1].

يوجد اتفاق واسع، في داخل المملكة كما في خارجها، على أن آل سعود يحتاجون إلى التقدّم صوب الإصلاح. ويتجادل الكثيرون، في ما هو أبعد من الإجماع العام، في شأن «مقياس السرعة» – بأي سرعة يمكن الشروع في الإصلاح من دون تهديد الاستقرار. ويشكّل تحديد سرعة التغيير التحدّي الأساس للسعودية. إلا أنه تحدّ سعوديّ، لا أميركي، ويجب أن يبقى كذلك. ولو دفعت الولايات المتحدة إلى تغييرات كاسحة فستنزع الشرعية عن الإصلاحيين السعوديين بتحويلهم بيادق

(١) Sherifa Zuhur, "Saudi Arabia: Islamic Threat,Political Reform, and the Global War on Terror," Strategic Studies Institute,March 2005, accessible at http://www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pdffiles/PUB598.pdf.

أميركية. وإذا حذّرت من التغيير تضع نفسها في مواجهة أولئك الإصلاحيين الذين يعتنق الكثيرون منهم قيمًا عزيزة على قلب الأميركيين. والمسار الأفضل هو التخلي عن فكرة أن تحديد السرعة وظيفة أميركية، لأنها من شأن السعوديين.

على الولايات المتحدة، بدلًا من تغيير وجهة نظرها في ما هو الأفضل للسعودية، أن تتوقف وحسب عن محاولة صياغتها وتوجيهها. والخدمة الأكبر التي يمكن الأميركيين تقديمها إلى قضية الإصلاح في السعودية هي تخفيف الروابط بين واشنطن والرياض. وهذا خيار لم تجرّبه الولايات المتحدة قط في السعودية – أو في مصر، والعراق، وسوريا، والأردن، أو لبنان، وهو السماح للحياة السياسية بالتطور من دون تدخّل. فالطريقة الفضلى للقوى الخارجية لمساعدة السعودية وغيرها من الدول العربية على تظهير أنظمة شعبية وشرعية هي في اتخاذ موقف الحياد منها. لا تحاولوا توجيه تطوّرها الداخلي. أو ما يوازي ذلك أهمية وهو عدم الضغط عليها لتصبح حليفات في حروب خارجية، وبخاصة ضد دول مسلمة. إذ لا يؤدّي القيام بذلك إلا إلى إضعاف شرعيتها في نظر شعبها.

لا يعني هذا أن على الولايات المتحدة أن تقطع روابطها بالسعودية. فللبلدين مصالح مشتركة، وبخاصة في تعزيز السلام الإقليمي وفي محاربة الإرهاب. كذلك لا يتطلّب أن تبقيا على «العلاقة الخاصة» الشديدة الحميمية التي ربطت بينهما خلال الحرب الباردة. فهذه العلاقة تلطّخ كلا البلدين، إذ حوّلت الولايات المتحدة عدوًّا للإصلاحيين السعوديين وحمّلتها حصّتها من الملامة على التشدد العنيف الذي برز في المجتمع السعودي. وهي في الوقت نفسه تضعف النظام السعودي بوصمه بالمتعاون مع السياسات الأميركية التي يعدُّها الكثيرون من السعوديين وغيرهم من العرب مناهضة للإسلام ومنحازة في شكل شرّير إلى إسرائيل.

يجب ترك المجتمع السعودي ينضج على طريقته، ويرتكب أخطاءه، ويتلمّس طريقه. كذلك يتوجّب التخفيف من «العلاقة الخاصة» التي ربطت الولايات المتحدة

بالسعودية منذ العام ١٩٤٥. وستعود هذه المقاربة بالنفع على مصالح البلدين في القرن الواحد والعشرين.

هل تعاني الولايات المتحدة اقتصاديًا إذا سلكت هذا المسار؟ ربما. فقد ضخّت مشتريات الأسلحة السعودية طوال ربع القرن الماضي كميات ضخمة من المال في الاقتصاد الأميركي؛ ووجد تقرير للكونغرس عام ٢٠٠٣ أن هذه المشتريات وفرت آلاف فرص العمل وأسهمت في «الحفاظ على قاعدة الصناعة الأميركية»[١]. وما ليس معروفًا كثيرًا، لكنه يتعادل على الأقل مع ذلك أهمية، هو الاستثمار السعودي الضخم في القيم المالية المنقولة للحكومة الأميركية. والمبلغ سرّي – لا يُسمح حتى للدبلوماسيين في السفارة الأميركية في الرياض بمعرفته – لكنه يصل بالتأكيد إلى عشرات المليارات من الدولارات وربما أكثر بكثير.

يمكن تخفيف الروابط بين الولايات المتحدة والسعودية أن يؤدي إلى زيادة في أسعار النفط على الأميركيين ولو أن ذلك أبعد من أن يتأكّد بما أن النفط يُباع، في ازدياد، في السوق العالمية بدلًا من الصفقات التي تُجرى من دولة إلى دولة. وإذا عمدت السعودية إلى الضغط على أميركا بهذه الطريقة فستسدي إلى الأميركيين خدمة كبيرة، لأنهم يحتاجون، يائسين، إلى أسباب لخفض اعتمادهم على النفط الخارجي، وإذا وفّر ارتفاع الأسعار مثل هذا السبب فيجب الترحيب به. وقد أوحى وزير النفط السعودي عام ٢٠٠٩ أن برنامجًا مُسرَّعًا تقوم به الدول الغربية لتطوير مصادر بديلة من الطاقة سيشكّل «سيناريو الكابوس» للدول المنتجة للنفط[٢]. وهذا مشكوك فيه، لكنه سيشكل سيناريو الحلم بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

هل يؤدي تخفيف العلاقات الأميركية ـ السعودية إلى وقف محاربة الإرهاب؟ بالتأكيد لا. فقد أبطأت السعودية في الاستيقاظ على تورّط مواطنين سعوديين في

(١) Alfred B. Prados, "Saudi Arabia: Current Issuesand U.S. Relations" (Washington, D.C.: Congressional Research Service,2003).

(٢) *Wall Street Journal*, February 11, 2009.

الإرهاب العالمي، سوى أن قرار الإرهابيين البدء بشن هجمات في داخل المملكة أيقظها على التصرّف. وقد أودت الموجة الأقوى من هذه الهجمات، بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، بحياة نحو مئتي شخص وتضمنت عمليات تفجير وقطع رؤوس وإطلاق نار من سيارات مسرعة وهجومًا على القنصلية الأميركية في جدّة وغارة مروعة على منشآت النفط على مقربة من الخليج الفارسي. وردّ النظام بقوة أثارت حتى إعجاب المسؤولين في واشنطن الذين شعروا طوال سنين بالإحباط من رفضه مواجهة هذا التهديد.

يواجه المجتمع السعودي تحدّيات تلوح في الأفق. فنصف السكان هم دون العشرين من العمر. والكثيرون من الشبان السعوديين يدرسون في الخارج، بمن فيهم ١٨ ألفًا في الولايات المتحدة، حيث يتشرّبون أفكارًا تختلف اختلافًا جذريًّا عن تلك التي تُسوّق في ديارهم. ويعودون إلى مجتمعٍ يعيش في ظل قيود خانقة. وتزداد النساء إحباطًا. وتحتاج السعودية، يائسة، إلى مفكّرين نقديين، إلا أن النظام محافظ جدًّا ويخشى التفكير النقدي. وتقف السعودية، على غرار الدول العربية الأخرى، متفرّجة على طريق التقدّم السريع.

كذلك يواجه آل سعود خيارات صعبة تتعلق بالخلافة على العرش. فكل ملك منذ ابن سعود كان واحدًا من أبنائه. وهناك أكثر من بضعة أمراء يرغبون في الإصلاح، ولكن لا توجد إشارات إلى أن حكم الشيوخ سيسمح لهم بالوصول إلى السلطة – وأقل من ذلك تجاوز جيل بحيث يمكن أن يبرز عاهل يجسّد تطلّعات الشبان والشعب الذي عيل صبره.

ضجر كل من النظام السعودي والشعب من مطالب واشنطن. وسيتواصل الترحيب في شكل واسع بأي قرار أميركي بالتوقّف عن دفع السعودية في هذا الاتجاه أو ذاك. ولا يمكن التنبّؤ تمامًا بوقع مثل هذا القرار على مسار الحياة السياسية السعودية، ولكن أيضًا لا يمكن الولايات المتحدة أن تصرّ على قدرتها على توقّع في سياسات الدول الأجنبية ويجب ألا تفعل ذلك.

ورأت الولايات المتحدة، خلال الحرب الباردة، أن من المهم في شكل حيوي إبقاء الأنظمة الصديقة حول العالم في السلطة. سوى أن تلك الأيام قد ولّت. ولم يعد من شأن أميركا إنقاذ حكومات لا يساندها شعبها. وإذا كان دور المدافع الأخير عن الأنظمة في الشرق الأوسط امتلك معنى في سياق الحرب الباردة، فإنه لا يخدم اليوم أيًّا من المصالح الأميركية أو العربية. ويجب، على ما يقرره آل سعود، أو ما يقرره القدر لهم، ألا يستحوذ بعد الآن على الاهتمام الأميركي الطارئ.

لا يعني هذا عدم وجود ما تستطيع الولايات المتحدة القيام به للمساعدة على تشجيع التقدّم الديمقراطي في السعودية. وفي وسعها، في الحقيقة، اتخاذ ثلاث خطوات من شأنها أن تعود بفائدة غير محدودة على السعودية وتخدم في الوقت نفسه المصالح الاستراتيجية الأميركية. فيمكنها العمل، في قوة، لتهدئة الوضع في العراق الذي يرى فيه الكثيرون مثالًا للمأساة التي تحل بأي بلد تصل إليه الولايات المتحدة بمخططها الخاص؛ والامتناع عن الشروع في حروب جديدة في الشرق الأوسط؛ والقيام بكل ما يلزم لحل النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

لا يزال لدى السعودية والولايات المتحدة مصالح مشتركة – ولو أنها ليست تمامًا كتلك التي كانت عليه في الحرب الباردة – ولكن لا يربط بين مجتمعيهما سوى القليل النادر من القيم. ويشبه الأمر زواجًا فاشلًا تراود فيه الشريكين اللذين ينامان في سرير واحد أحلام مختلفة. وإذا لم يتغيّر الأمر فسيذهب بالفريقين إلى الأسى.

«يحتاج كل من يريد تغيير الشرق الأوسط إلى قصّة نجاح»، قال لي خالد باطرفي ونحن ننهي عشاءنا الطويل عند شاطئ البحر. فهل يمكن أن تكون السعودية؟ ربما – ولكن لو أن الولايات المتحدة تخفّف، فحسب، من عناقها الخانق وتسمح للسعودية بسلوك طريقها الخاص.

جلّ ما نريده هو الحق الإنساني الأساسي في العيش في سلام وحرّية؛ يهاجمنا الغاشمون ويرعبوننا؛ وعلينا الدفاع عن أنفسنا للبقاء.

هذا هو جوهر كلا الخطابين الإسرائيلي والفلسطيني. فما ستة عقود من الحرب ومن المعاناة بلا حدود إلا نتاج صورة المرآة المعكوسة هذه.

يخشى بعض الإسرائيليين والفلسطينيين السلام، لسببين: الأول هو أن جراح التاريخ عميقة جدًّا، والعدالة تصرخ من أجل تعويضها، والثاني هو أن ما من دولة أو شعب يقدّم تنازلات أمنية إلا إذا شعر بالأمان، ومفهوم «السلام» الغامض بما يسبّب من جنون لا يضمن السلامة.

يسهل فهم سبب بروز الميول الراديكالية القوي جدًّا في الحياة السياسية الإسرائيلية والفلسطينية. إذ توجد دومًا، في مثل هذا المناخ السام، سوق سياسية للتشدّد ولمساعي استرداد الأرض. فستون سنة من النزاع لا تكفي بالنسبة إلى بعض الفئات في المجتمعين. وهي أبعد ما تكون عن الإصابة بالإنهاك، ومستعدة للقتال ستين سنة أخرى أو أكثر.

سوى أن الطابع المميز لهذا النزاع ليس في أن بعضَ من في الجانبين يريد متابعة القتال، بل في أن الكثيرين جدًّا يريدون وقفه. وقد بلغت أجيال كثيرة سن الرشد وهي لا تعرف سوى النزاع والحقد، وتتوق إلى حياة طبيعية يجلبها إليها سلام مضمون. بيد أن الديناميات الداخلية لمجتمعيها تمنعها من بلوغ ذلك الهدف. فالنظام الانتخابي الإسرائيلي منحرف بطريقة تعطي الفئات الراديكالية سلطة غير متكافئة في شكل شاذ مع أحجامها يستحيل معها القيام بخطوات حاسمة في اتجاه السلام. والمجتمع الفلسطيني محرَّف هو الآخر بطريقة أكثر رعبًا حتى: فالحياة تحت الاحتلال أعطت القوة لرجال غاضبين يحملون السلاح، وهمّشت من يؤمنون بالسلام. وإذا تُرك هؤلاء الأعداء وشأنهم فقد لا يصنعون السلام خلال حياة أي شخص موجود الآن على سطح الأرض.

ما يجعل هذا الشلل محبطًا إلى هذا الحد هو أن الخطوط العريضة لحلّه واضحة على عكس أي نزاع عميق غيره. وليس على الوسطاء البدء من الصفر. وكل ما عليهم

فعله هو تحويل وعد «الأرض في مقابل السلام» واقعًا. وهذه صيغة يكرّسها القرار الدولي الرقم ٢٤٢ الذي تم تبنّيه عقب حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ وأعيد تأكيده في قرار ثان بعد حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣.

استخدم المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون هذين القرارين إطارًا لصياغة خطة سلام في مؤتمر عُقد عام ٢٠٠٠ في مدينة طابا عند الحدود الإسرائيلية - المصرية؛ غير أنه لم يسفر عن شيء بسبب التبديل الذي حدث بعيد ذلك في الحكومتين الإسرائيلية والأميركية. وبعد ذلك بسنتين، أصدرت جامعة الدول العربية، بإلحاح من الملك السعودي عبدالله، نسخة عن الخطة نفسها وافق عليها زعماء السلطة الفلسطينية على الفور. وقد اجتذبت أيضًا بعض الزعماء الإسرائيليين؛ ورحّب بها رئيس الوزراء السابق شمعون بيريز بصفة كونها «استدارة كاملة،» وعدَّها إيهود أولمرت، الذي سيصبح رئيسًا للوزراء في المستقبل، «طريقة جديدة في التفكير - يشكّل فيها الاستعداد للاعتراف بإسرائيل كواقع قائم، ولمناقشة شروط الحل المستقبلي، خطوة لا يسعني إلا تقديرها». ورفضها أصحاب الفكر المطلق، وبينهم قادة في مجموعة حماس الفلسطينية المجاهدة وزعيم المعارضة الإسرائيلية حينذاك بنيامين نتنياهو[1].

بات الطريق المؤدي إلى السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين واضحًا للجميع، وقد مضت عليه سنوات وهو على هذا الوضوح: ستخلي إسرائيل تقريبًا كل مستوطناتها في الضفة الغربية وتعطي الفلسطينيين أرضًا في مكان آخر تعويضًا للمستوطنات التي تحتفظ بها. وتقام دولة فلسطينية منزوعة السلاح في الضفة الغربية وغزة عاصمتها، على غرار إسرائيل، القدس. ويتمتع الفلسطينيون بحق العودة إلى هذه الدولة من أي مكان موجودين فيه، ويُعوَّضون الأراضي والبيوت التي خسروها في ما يُعرف اليوم بإسرائيل. وستعترف دول المنطقة كلّها بعضها ببعض وتتعهد حل النزاعات مستقبلًا بالطريقة السلمية.

(١) *Washington Post*, April 2, 2007.

ينادي العرب والإسرائيليون بالسلام، ولكن لا يوجد أي سلام. فهم منقسمون في ما بينهم انقسامًا حادًّا، ويُقعدهم الخوف والارتياب، وهم أسرى ذكريات آلام مبرحة، ولا يمكنهم بالتالي التحرّك إلى ما هو أبعد من نموذج النزاع. وتعلّم المجتمعان، ولو في شقاء، العيش مع النزاع والحرب. ويصبح السلام بلادًا مجهولة ملأى بالأهوال. ولا يتضح إلا القدر الذي يلي في شأن السلام بين إسرائيل والفلسطينيين:

أنه شرط مسبق أساس للأمن في أكثر مناطق العالم تفجّرًا.

على رغم أنه يبدو بعيدًا جدًّا، بل يستحيل تحقيقه، فإن العكس في الواقع هو الصحيح: فهو في متناول اليد.

لن يمكن بلوغه إذا تُرك للأطراف المتقاتلين أن يصيغوه بأنفسهم.

يبدو أن أي رئيس أميركي لن يتخلى عن إسرائيل. وإسرائيل تدعي امتلاك شرعية للوجود أقوى من شرعية الكثير من الدول العربية، بحجّة أن إنشاءها حظي بمباركة الأمم المتحدة، فيما لم تبصر سوريا الحديثة والعراق والكويت والأردن ولبنان النور إلا على يد الدبلوماسيين الأوروبيين الذين وضعوا الخرائط حتى من دون معرفة أحد في الشرق الأوسط، وإن كان صحيحًا أن إسرائيل وُلدت بالخطيئة، وأن هذه حال دولٍ أخرى. وعلى أي حال، فإسرائيل في الوقت الراهن تشكل واقعًا دائمًا في حياة الشرق الأوسط. فالتاريخ والأخلاق والواقعية السياسية تربط، وستبقى تربط، الولايات المتحدة بإسرائيل. ولهذا السبب تستطيع الولايات المتحدة وحدها أن تكون الضامن الطويل الأمد للسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين – ووحدها الولايات المتحدة تستطيع فرضه.

يتفق معظم الإسرائيليين والعرب والأميركيين، إلى جانب العالم كلّه تقريبًا، على الشكل الذي ينبغي للشرق الأوسط أن يتَّخذه. سوى أن السؤال المُقعِد هو في سبيل الوصول إلى ذلك. فما من أزمة في العالم تتضح فيها الخطوط العريضة للحل إلى هذا الحد فيما احتمالات الوصول إليه تبلغ هذا القدر من الكآبة. والسبب في ذلك هو

غياب عامل واحد: قوّة خارجية تفرض الحلّ على الأطراف الذين لا يمكنهم قبوله بأي طريقة أخرى. وحدها الولايات المتحدة تستطيع أداء هذا الدور.

لو أعلن أحد رؤساء الولايات المتحدة نيته فرض سلام شامل على الإسرائيليين والفلسطينيين – وأوضح ما ستستتبعه خطته المفروضة – لصاحَ أصحاب الفكر المطلق احتجاجًا. وسيبرز على الفور «مثلّث حديدي» من المعارضة، أوله لوبي المستوطنين وغيرهم في إسرائيل ممن يخشون أن يشكّل أي اتفاق سلام خطرًا مميتًا على دولتهم؛ وثانيه مؤيدو إسرائيل الفائقو التنظيم في الولايات المتحدة وقد أقنع الكثيرون منهم أنفسهم بأن الطريقة المثلى للدفاع عن إسرائيل هي في دعم حكومتها من دون شروط؛ أما الثالث فسيتألف من بعض العرب، وبخاصة الزعماء العرب الذين يريدون إبقاء النفوذ الأميركي خارج منطقتهم ويخشون ما قد يحدث في مجتمعاتهم متى عجزوا عن التلويح براية الموت لإسرائيل.

يجب الترحيب بهذا الكورس بما هو عليه: أي بصفة كونه البرهان على أن أطراف هذا النزاع عاجزون عن صنع السلام بأنفسهم. فقد استهلكتهم نزاعاتهم الداخلية ومشاحناتهم السياسية اليومية حتى فقدوا كل مقدرة على القيام بما يتوجّب عليهم القيام به لضمان مستقبلهم.

وإذا أمكن أي رئيس أميركي أن يصمد أمام هذا الاستنكار، فقد يهرع الزعماء من كل زوايا العالم لمساندته – وسيكون دعمهم حاسمًا إذ سيحوّل الأمر من مبادرة أحادية الجانب، واحدةً تحظى بدعم معظم العالم. وفي النهاية، سيصبح للمتشدّدين في الطرفين شكل جديد بالكامل من التغطية السياسية، أي القدرة على إبلاغ ناخبيهم: «نحن نكره الأمر، لكن العالم يجبرنا على قبوله».

هل تملك الولايات المتحدة القوة لفرض حلّ على إسرائيل والفلسطينيين؟ قد تملكه – ما دامت تلتزم استخدام كل الوسائل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية التي في تصرّفها. فإسرائيل، في النهاية، تتوقع، عن حق، من الولايات المتحدة أن

تكون صديقتها وحاميتها؛ فقد تلقّت في السنوات الستين الأولى من عمرها أكثر من مئة مليار دولار من المساعدة الأميركية، أكثر من نصفها على شاكلة أسلحة قُدمت بلا ثمن. ويدرك الفلسطينيون أيضًا الواقع المتمثل بضرورة أن تكون الولايات المتحدة القوّة الموجّهة لأي تسوية سلمية، ويرحّبون بذلك في بعض الأحيان.

لن يفيد الولايات المتحدة أن تأتي صائحة، ومعلنة أنها استنبطت صيغة للسلام الإسرائيلي ـ الفلسطيني وسترسل الفرقة المجوقلة الثانية والثمانين لفرضها. فالأكثر صدقية هو الصيغة القسرية للغرفة العابقة بالدخان مع رئيس أميركي قوي يجلس إلى رأس الطاولة. وعليه أن يأتي متسلّحًا بكل شيء، ما عدا الأسلحة الشخصية، وهو مصمم على ليِّ الأذرع وشد الأذيال وعدم التوقف لدى سماعه صراخات الألم.

من يضمن أن تؤدي صفقة السلام في مقابل الأرض، إلى السلام؟ من سيتولى حراسة الحدود؟ من سيدفع التعويضات للفلسطينيين الذي سيتخلّون عن حقهم في العودة إلى ما أصبح الآن الأراضي المحتلة؟ على الولايات المتحدة أن تؤدي بنفسها هذه الأدوار أو أن تتدبّر قيام المجتمع الدولي بممارستها. وقد تنجح إذا أبدت استعدادًا للقيام بهذا – إذا فرضت خطة سلام وبقيت ملتزمة أن تراها وقد نجحت مهما بلغت الأثمان. أما إذا كانت اختبارية أو فاترة، أو إذا تأرجح الرئيس تحت وطأة الاحتجاجات التي ستثيرها قطعًا، أو إذا شرّع خطته أمام نوع المفاوضات التي لا تنتهي والتي أعاقت الحل طويلًا، فستمنى بالفشل.

احتاج الأمر عام ١٩٥٦ إلى رسالة وحيدة من رئيس الولايات المتحدة – مدعومًا بخمسة وستين صوتًا في الأمم المتحدة في مقابل صوت واحد – لإجبار إسرائيل على سحب جيشها من شبه جزيرة سيناء الواسعة، على رغم أن رئيس الوزراء بن غوريون تعهّد قبل ذلك بأيام فقط لشعبه أن سيناء ستبقى إلى الأبد «جزءًا من مملكة إسرائيل الثالثة». واضطرت إسرائيل، طوال سنوات بعد ذلك، إلى أخذ الردّ الأميركي في الحسبان قبل أي عملية عسكرية. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين، فليس لهم أيضًا

مكان آخر يذهبون إليه إذا قررت الولايات المتحدة أن تصبح الأداة التنفيذية للسلام. وسيصبح لدى الطرفين دوافع قويّة للانصياع، ولو على مضض، إلى ما تطلبه الولايات المتحدة.

ستسمح هذه المقاربة أيضًا للولايات المتحدة بتجنّب السؤال الصعب المتعلّق بمن يجب أن تتفاوض معه. فهي تؤكّد، في انتظام، أن هذا النظام، أو الفئة، خارج على المنحى الحضاري ولا يمكن دعوته إلى مفاوضات السلام، ويشمل هذا أنظمة وفئات لا يمكن من دون تعاونها بلوغ السلام. أما طريقة حلّ هذه المعضلة فبسيطة: عدم التحدّث إلى أحد. لقد جرّت أزمة الشرق الأوسط أذيالها طويلًا، حتى بات موقف كل طرف واضحًا في شكل مؤلم. ولا حاجة إلى مزيد من المفاوضات لأنها تجرجر إلى ما لا نهاية فيستخدمها أصحاب الفكر المطلق لشراء الوقت، ونادرًا ما تؤدّي إلى نتائج حاسمة. لقد انقضى وقت التفاوض. وسيصبح نداء بوق رئيس الولايات المتحدة، لا الجولة الأخرى من المحادثات، السبيل إلى إنهاء هذا النزاع المأسوي.

سيجازف أي رئيس يقوم بهذه الخطوة الجريئة سياسيًا. فجسم السياسة الأميركية أصبح مرتاحًا مع الوضع القائم في الشرق الأوسط. ولا تتحمّل الولايات المتحدة كلفة سياسية، وإنما في الغالب الكثير من المنفعة، في تكرار لازمة «إسرائيل – على – حق – أو – على – خطأ». لن يُستساغ البديل سياسيًّا، إلا أنه واضح وبسيط. فإسرائيل عاجزة عن تلمّس طريقها للخروج من المتاهة الرهيبة التي تجد نفسها فيها. وأملها الوحيد في الأمن، على المدى الطويل، هو في السلام مع جاراتها. وتقدّم الولايات المتحدة إلى إسرائيل ولجاراتها، بفرضها السلام وضمانه، مأثرة (وردت في النص بالعبرية «ميتزفاه») ذات أبعاد تاريخية.

بدا السلام بين إسرائيل والفلسطينيين، لمدّة طويلة، نائيًا حتى عمي البعض عن الوقع الضخم الذي يمكن أن يُحدثه. فمكاسبه الممكنة – ليست مكاسب مؤكدة لكنها مع ذلك ممكنة – مغرية جدًّا:

- سيقوم بأكثر مما فعلته أي حرب سبق للولايات المتحدة أن خاضتها لإضعاف حركات الإرهاب المعادية للغرب.

- سيصبح معه إيجاد حل لأزمات الشرق الأوسط أكثر سهولة.

- سيحرّر إسرائيل من التهديد الديمغرافي الماثل أمامها؛ وبحلول العام ٢٠٥٠ سيعيش ثمانية ملايين يهودي إسرائيلي إلى جانب عشرين مليون فلسطيني، وهي، في غياب السلام، وصفة لخطر متفجّر.

- سيفرغ مخيمات اللاجئين التي تشكّل أرضًا خصبة للكراهية.

- سيحوّل إسرائيل عضوًا يتمتع بالاحترام الكامل في المجتمع العالمي ويحررها من عار احتلال الأرض.

- سيؤدّي إلى زعزعة استقرار كل حكومة عربية، وهو ما سيكون مُربِكًا في البداية لكنه سيُنتج شرق أوسط أكثر ديمقراطية وأمنًا.

- سيعزل الأنظمة الراديكالية ويقوّض الحركات الجهادية التي تتغذى على غضب المسلمين وإحباطهم.

- سيسمح لشعبين – اليهودي والفلسطيني ـ تتضمّن تقاليدهما الدينية جوانب علمانية قويّة بطرح بديل من الأصولية للشرق الأوسط.

- سيظهر للعالم أن الولايات ترغب، في القرن الحادي والعشرين، في أن تصبح صانعة سلام، لا داعية للحرب.

- قد يفضي إلى ترتيبات أمنية إقليمية ومن ثم إلى التعاون في طائفة من المجالات، من التعليم إلى الرعاية الصحية إلى السياحة، ومصادر المياه، والتطوير في مجال الطاقة.

- وأهم من ذلك أنه سيعيد إلى الفلسطينيين كرامتهم واحترامهم، وسيوفّر للإسرائيليين أمنًا على المدى الطويل.

ـ لن تعمد الولايات المتحدة، بفرضها السلام، إلى إضعاف أصدقائها أو استرضاء المعتدين، أو مكافأة أعداء الحرّية. بل إنها على العكس من ذلك ستخدم مصالحها الاستراتيجية وتضمن مستقبلًا آمنًا لحليفة وثيقة تتمتع بتقديرها، وتوفّر لملايين الرجال والنساء والاطفال المحرومين فرصة حياة جديدة.

سيفسّر البعض مثل هذه المبادرة الأميركية القوية بأنها مناهضة لإسرائيل أو للفلسطينيين. وقد يحاججون بأن للأطراف المتحاربين الحق الحصري في تقرير متى يقيمون السلام وكيف. وسيصرّون على أن قادة الشعب وحدهم مجهّزون لاتخاذ أكثر القرارات دقّة في شأن مستقبلهم.

إلا أن التاريخ يوضح، في شكل مؤلم، أن ليس في وسع إسرائيل ولا العرب اتخاذ هذه القرارات. وقد أسهمت إخفاقاتهم في سلسلة من الأزمات المتصاعدة دومًا حول العالم وقد انتفخ بعضها ليتحوّل تهديدات عالمية مرعبة. ويطرح السماح لذلك بالاستمرار مخاطر شديدة على الأميركيين والشعوب حول العالم. فهذا ليس بنزاع يمكن حصره بمنطقة واحدة من دون أن يؤثر في الأخرى. فهو، في شكل ساحق جدًّا، النزاع الأكثر زعزعة للاستقرار من أي نزاع آخر في العالم. ولا يمكن الولايات المتحدة، إذا لم تجبهه مباشرة، أن تحفظ أمنها الخاص أو أمن حليفاتها.

هل يُعدُّ أخذ الولايات المتحدة على عاتقها فرض تسوية بهذه الطريقة عملًا من أعمال الغطرسة؟ ربما، مع أنه سيكون أقل غطرسة من أي انتهاك أميركي حديث وأكثر عنفًا بكثير في الشرق الأوسط والمناطق المجاورة. لكن الحرب الباردة قد انتهت ولم تعد الولايات المتحدة في حاجة إلى اعتناق سياسات البلدان الأخرى على أنها سياستها في مقابل دعمها ضد عدو عالمي. وما من خطوة يمكن الولايات المتحدة أن تتخذها في أي مكان في العالم ستؤدّي إلى مثل هذا التأثير المفاجئ والإيجابي على الأمن العالمي، أو تحمل في طياتها هذا القدر من القدرة على توسيع الحريّة الإنسانية، مثل فرض السلام على الإسرائيليين والفلسطينيين. فهي ستثير العالم في قوّة.

كيف يمكن فرض مثل هذا الترتيب إذا أمكن الوصول إليه؟ في صعوبة. إذ سيسعى المفسدون من الطرفين إلى تقويضه وليس دائمًا باستخدام الوسائل غير العنفية. وربما تدعو الحاجة إلى قوة سلام مسلّحة، لسنوات على الأقل. ولا شك في أن هذه القوة ستواجه تحديات صعبة، ودامية ربّما، مثل سحب المستوطنين الإسرائيليين من منازلهم أو قمع فئات عربيّة مجاهدة.

بيد أن التحديات العسكرية المرعبة لفرض السلام ليست الأكثر تعقيدًا. فهناك تحدّ اقتصادي ضخم: كيف يمكن الإسرائيليين والعرب أن يتعاونوا في حين أن مستويات التنمية لديهما متفاوتة إلى هذا الحدّ الكبير؟ سوى أن الأكثر تحدّيًا هو الحاجز النفسي الذي يفرضه كون الكثيرين من العرب لم يفكّروا قط في عدِّ إسرائيل لاعبًا مشروعًا في سياسات الشرق الأوسط، وأقل من ذلك... شريكًا. فالدول العربية تجد صعوبة في التعاون بعضها مع بعض؛ ودعوتها إلى التعاون مع إسرائيل يعني طلب الكثير منها.

لن تؤدي العلاقات الطبيعية بين إسرائيل والفلسطينيين إلى مهرجان محبّة إقليمي. ثم إن الإسرائيليين لن يثقوا بالعرب ولن يقبلوا، فرحين، القيود المفروضة على حرّيتهم في العمل العسكري. ولن يعترف العرب، في سهولة، بالوجود الدائم لإسرائيل، فضلًا عن أن المجتمع العربي لن يكف عن معاناته من الاختلال الوظيفي. ولن تنسى الفصائل الفلسطينية خلافاتها العميقة. ولن يختفي التطرّف الديني الآخذ في النمو في المجتمعين ويشكّل عائقًا خطيرًا أمام السلام. وسيتساءل الزعماء الأقوياء – بمن فيهم رئيس وزراء إسرائيل ورئيس السلطة الفلسطينية – هل يؤدي قبولهم الاتفاق إلى خسارتهم وظائفهم. وإذا فعل فلا يوجد ضمان بأن تخلفهم شخصيات أكثر اعتدالًا، بل قد يحدث العكس.

ويمكن أيضًا هذا الجانب أو ذاك أن يرفض هذه الخطة في شكل قاطع، فلا يعود لأي درجة من الضغط أو الاقناع أي تأثير. ولكن يجب على هذا الاحتمال ألا يردع الولايات المتحدة عن المحاولة.

جرّ البحث عن السلام بين إسرائيل والفلسطينيين أقدامه مدة طويلة جدًّا وأدى إلى نشوء طبقة خاصة به من المحترفين، بعضهم دبلوماسيون جدّيون أقحموا أنفسهم في تفاصيل النزاع يحدوهم الأمل الصادق بتحقيق اختراق. ويستخدم البعض الآخر المفاوضات التي لا تنتهي كتكتيك لضمان ألا يحدث أبدًا أي تغيير جوهري. والجامع بينهم كلّهم هو الفشل.

قد لا أتمتع بالواقعية في تصوّري أن رئيسًا أميركيًّا قد يرغب في فرض تسوية على الإسرائيليين والفلسطينيين، أو يشعر بمقدرته على القيام بذلك. إلا أن هذا فحسب، أو أي تحوّل جذري راديكالي آخر عن التقليد الدبلوماسي، يمتلك فرصة لكسر المأزق الشرق الأوسطي في أيامنا.

الجزء الرابع

الباب مفتوح على مصراعيه

٨
من حيث أنها تأتي معًا

التواصل والحوار هما الطريق إلى السلام والتسوية(١)

ـ رئيس الوزراء التركي رجب طيّب أردوغان

لم يسبق لأحد أن تخيّل المشهد الذي دار في أنقرة، صباح أحد أيام خريف العام ٢٠٠٧. صعد الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز، في عزم، إلى منصة الجمعية الوطنية الكبرى وشرع في التحدث بالعبرية، وهي المرّة الأولى يخاطب زعيم إسرائيلي برلمان أي بلد مسلم.

قال بيريز في القاعة التي عمّها الصمت إن «تركيّا تشكّل ترسيخًا للثقة... وأنا قد جئت للإعراب عن التقدير لتركيا».

أضحت مهمة تركيا العالمية ترسيخ الثقة. ففي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين قادت مجموعة رؤيوية من الزعماء الأتراك البلاد إلى العالم. ولم يكتفوا بكسر القوقعة التي اختبأ الأتراك في داخلها على مدى أجيال، بل اعتمدوا الأصول

(١) M. Hakan Yavuz, ed., *The Emergence of a New Turkey: Democracy and the AK Party* (Salt Lake City: University of Utah Press, 2006), p. 337.

التاريخية والجغرافية والثقافية والسياسية الفريدة لتحويل تركيا لاعبًا واعدًا جدًّا على المسرح العالمي.

مضى أكثر من نصف قرن على تركيا وهي حليف سياسي وعسكري للولايات المتحدة. ولم تخلُ هذه العلاقة من المشكلات، لكنها تناسبت دومًا مع حاجات اللحظة. وشكّلت الحرب الباردة أطول هذه اللحظات، تناغمت في حقبتها حاجات البلدين الاستراتيجية تناغمًا جيّدًا. إذ أرادت الولايات المتحدة حلفاء يعتنقون اعتناقًا تامًّا المبادئ الأساسية لسياستها الخارجية. وشكّلت تركيا دولة ثقة من دول خط الجبهة مع القوة السوفياتية.

بيد أن تركيا بقيت، في كل الجوانب الأخرى، دولة تقع عند الحد الخارجي، فهي مجاورة للشرق الأوسط والبلقان والقوقاز وشمال أفريقيا والعالم السلافي، لكنها ليست جزءًا من أي منها. وباتت تركيا، نتيجة خيارها الخاص من ناحية، ومن ناحية أخرى نتيجة لجغرافية تلك الحقبة السياسية، أحد شواذات الحرب الباردة، واستدراكاً استراتيجيًّا من دون أي دور محدّد لها في العالم أو حتى في منطقتها.

أمضت الجمهورية التركية، بعدما أخضعت نفسها لما سماه أحد الباحثين «جراحة تاريخية في فصوص المخ»[1]، ثلاثة أرباع قرن تنفي وتختبئ من ماضيها العثماني الذي حكم فيه الأتراك أمبراطورية واسعة امتدت من الجزائر إلى مكة إلى بودابست. وربما كان لذلك معنى؛ فتركيا واجهت تحدّيات ملحّة في الداخل ولم تشأ أن يُنظر إليها بصفة كونها نيو ـ أمبريالية، واعتنقت الأهداف الاستراتيجية الغربية كأنها أهدافها.

قليلة هي البلدان ألتي أعادت كلّيًا صياغة مقاربتها للعالم بعد الحرب الباردة. لم تعد تركيا، على خارطة العالم الجديدة، عند طرف أي شيء. بل عادت

(١) Ian O. Lesser, *Beyond Suspicion: Rethinking U.S.-Turkish Relations* (Washington, D.C.: Woodrow Wilson Center, 2007),p. 27.

لتصبح مرّة أخرى ذلك الجزء الجغرافي الذي كانت عليه منذ زمن سحيق: نقطة المركز في مساحة اليابسة الأوراسيوية الشاسعة. فموقع تركيا وإرثها العثماني ومزيجها الناجح من الإسلام والديمقراطية تعطيها إمكانًا استراتيجيًا هائلًا. وهي تمسك بهذا الإمكان بطريقة لا تفيد بها نفسها فيها وحسب، بل أيضًا الولايات المتحدة والغرب.

أخذت تركيا على عاتقها دور الوسيط والمصلح والحكم. ويحتاج العالم، في إلحاح، إلى بلد ما يؤدي هذا الدور، وقليلة هي البلدان المجهّزة للقيام به أكثر من تركيا.

عندما رغبت إسرائيل في الشروع في محادثات سرّية مع سوريا، طلبت من تركيا ترتيبها. ولما قرر سُنَّة العراق مقاطعة الانتخابات الوطنية، أقنعتهم تركيا بتغيير رأيهم وبالمشاركة. وكلّما هبط مسؤولون أتراك في بلدان منقسمة، في حدّة، على نفسها مثل لبنان أو باكستان أو أفغانستان، تتلهّف كل فئة فيها للتحادث معهم. وتعمل تركيا على تهدئة التوترات بين إيران والولايات المتحدة، وبين سوريا والعراق، وبين أرمينيا وأذربيجان. ولا يحظى دبلوماسيو أي بلد بمثل الترحيب الذي يحظى به الأتراك في كل من طهران وواشنطن، موسكو وتبليسي، دمشق والقاهرة. وما من دولة أخرى تتمتع بهذا القدر من الاحترام لدى حماس وحزب الله والطالبان فيما تحتفظ في الوقت نفسه بعلاقات جيدة مع الحكومات الإسرائيلية واللبنانية والأفغانية.

يقدّم المفهوم الكبير لوزير الخارجية أحمد داود أوغلو، وقد سماه «العمق الاستراتيجي»، تصوّرًا لتركيا كصانعة سلام فائقة النشاط. وقضى مشروعه الأول بحل كل خلافات تركيا مع جاراتها؛ وقد نجح في ذلك إلى حد كبير. أما طموحه الثاني فأكبر، ولا يقضي فحسب «بتصفير المشكلات مع الجارات»، بل أيضًا «بتصفير المشكلات بين الجارات». وحاجج بأن كل خلاف في جوار تركيّا الموسّع يهدد السلام ويحد من فرص التنمية الإقليمية؛ وكلها بالتالي تشكّل مصدر قلق ملحًّا لتركيا.

نظر العالم الإسلامي إلى تركيا، في معظم تاريخها الحديث، على أنها مرتدّة.

فقد انتزعتها إصلاحات أتاتورك حتى الآن بعيدًا جدًّا عن الإسلام، حتى بدا أنها لا تتمتع بأي شرعية دينية. كذلك عُدَّت خادمة لأميركا، وقد شوّه من سمعتها اعتناقها الكثير من السياسات الأميركية التي يجدها الكثيرون من المسلمين بغيضة.

ولا ينطبق أي من هذه الاعتراضات على تركيا اليوم، إذ يحكمها إسلاميون ورعون، وتمتلك سياستها الخارجية الخاصة. ويلقى زعماؤها ترحيبًا حارًّا في أماكن كثيرة لم يكونوا ليهتموا في الماضي بزيارتها.

واللافت أن تركيا لم تواجه مقاومة تُذكر لطموحها الجديد. وهي، بتدخلها فحسب عندما يُطلب منها ذلك، وباحتفاظها بعلاقات طيبة مع مثل هذا الحيّز الواسع من الحكومات والفئات، تؤدي دورًا لا يمكن أي دولة أخرى أن تؤديه. وهي تملك أوراق اعتماد فريدة. وتركيا كبيرة بعدد سكانها السبعين مليونًا وتمتلك الاقتصاد الأكبر في الشرق الأوسط. وتشكّل أيضًا نموذجًا جذّابًا ليس بسبب بحبوحتها النسبية فحسب، بل لأنها أيضًا مجتمع على هذا القدر من الحرّية.

تحدّث الباحث اللبناني فراس بريزات نيابة عن الكثيرين من المفكّرين الشرق الأوسطيين عندما وصف تركيا بـ«النموذج الذي وازن، في نجاح، بين التقليد والحداثة»(١). وأعرب الزعيم الفلسطيني محمود عباس عن إعجابه بتركيا «كمثال يُحتذى في الطريق إلى الديمقراطية»(٢). بل إن سيدات لاسينر، المستشار النافذ في وزارة الخارجية التركية الذي يدير إحدى خلايا التفكير في أنقرة، يذهب إلى ما هو أبعد بتأكيده أن «أزمات مثل فلسطين، واحتلال العراق، والشيشان، وأفغانستان، واحتلال الأرمن قره باخ، أوجدت الكثير من اليأس». وأضاف أن «غالبية الشعوب الإسلامية لا تثق بحكوماتها في إيجاد حل لمشكلاتها السياسية والاقتصادية

(١) Meliha Benli AltuniŞik, “The Possibilities and Limits of Turkey’s Soft Power in the Middle East,”*Insight Turkey* 10, no.2 (2008): 48.

(٢) Sedat Laçiner et al., *Europe an Union with Turkey:The Possible Impact of Turkey's Membership on the European Union* (Ankara, Turkey: ISRO, 2005), p. 61.

والاجتماعية. وهي تحتاج إلى رؤية معجزة – وتركيا هي المعجزة التي احتاجوا إلى رؤيتها».

تملّصت تركيّا من المدار الأميركي، وأصبح البلدان، بلغة الجغراسيين، «غير مترابطين». بيد أن دور تركيّا الجديد يعد الولايات المتحدة بالكثير، إذ يمكن تركيا، بصفة كونها بلدًا إسلاميًّا على معرفة وثيقة بالمنطقة المحيطة بها، أن تذهب إلى أمكنة، وتتعاطى مع شركاء، وتعقد صفقات لا يستطيع الأميركيون القيام بها. وما فعلته لفصل نفسها عن الولايات المتحدة – كمثل رفضها السماح للقوات الأميركية باجتياح العراق من الأراضي التركية، أو تنديدها بأعمال إسرائيل في غزة – قد عزّز من سمعتها في بلدان إسلامية أخرى. وهو ما يزيد في قدرتها على التأثير فيها.

وتؤدي سياسة تركيا الخارجية، على رغم استقلالها، إلى دعم سياسة أميركا الخارجية. فللبلدين الأهداف الاستراتيجية الأساسية نفسها، وكلاهما محافظ في الأساس، وعاد عليهما النظام العالمي الموجود بالنفع، ويريدان تقويته لا إعادة صياغته في شكل جذري.

يريد البلدان، كلاهما، رؤية عراق مسالم وديمقراطي؛ ونهاية للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني؛ وشرق أوسط مستقرًّا خاليًا من القوى الراديكالية؛ وإضعاف الأصولية الدينية؛ واستراتيجية عالمية مُنسّقة مناهضة للإرهاب؛ وشبكة من خطوط الأنابيب تنقل النفط والغاز إلى الغرب من دون خطر التعرّض للابتزاز السياسي أو الاقتصادي؛ ووضع حد لـ«النزاعات المجمّدة» من قبرص إلى كشمير؛ والاستقرار في أفغانستان وفي باكستان؛ واستقلالًا حقيقيًّا لدول جنوب القوقاز. ولا تكتفي تركيا بمشاركة أميركا في هذه الأهداف، بل هي أيضًا في موقع جيّد للمساعدة في تحقيقها.

استنتج المحلل السابق في «سي. آي. إي.» غراهام فولر أن «بحث تركيا الجديد عن استقلال سياستها الخارجية، مهما كان معقّدًا أو مثيرًا للاستياء بالنسبة

إلى الولايات المتحدة، سيخدم مع ذلك أفضل مصالح تركيا والشرق الأوسط، بل وحتى الغرب». وأضاف أن «العالم الإسلامي يبحث عن زعيم. ونظرًا إلى الإفلاس الراهن لقياداته الراهنة – إذ لا يكاد يوجد زعيم واحد يحظى بالاحترام الواسع في المنطقة – أضحت تُركيا تحظى بقدر أكبر من الإصغاء بصفة كونها صوتًا مسلمًا يتمتّع بالاحترام المتزايد وبالاستقلال والنجاح... سيُقدّر المراقبون المتنوّرون الأميركيون وجود تركيا الجديدة هذه، المتقوّية والمتجذّرة في العملية الديمقراطية، كركيزة للاستقرار في منطقة الشرق الأوسط المضطربة والعاصفة»[١].

وبالتزامن مع كتابة فوللر هذه الكلمات، نشر الباحث الاستراتيجي الأميركي جورج فريدمان دراسة تحت عنوان «السنوات المئة المقبلة: توقّع للقرن الواحد والعشرين The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century». وكتب: «عندما ننظر إلى حطام العالم الإسلامي بعد الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣ ونفكّر بالدولة التي يجب أن تؤخذ على محمل الجد في المنطقة، نجد، في وضوح، أنها تركيا». وأرفق توقّعه بخارطة للشرق الأوسط وشمال أفريقيا وجنوب شرقي أوروبا تحت عنوان «دائرة النفوذ التركية عام ٢٠٥٠». وبدت في شكل لافت أشبه بخارطة الأمبراطورية العثمانية[٢].

ولو اختلفت الظروف لأمكن بروز مصر، أو باكستان، أو العراق لقيادة العالم الإسلامي. سوى أن مجتمعاتها ضعيفة، ممزقة، وآخذة في التفتّت. وتشكل أندونيسيا مرشحًا واعدًا أكثر، لكنها لا تملك تراثًا تاريخيًّا من الزعامة، وهي بعيدة عن مركز الأزمات الإسلامية. فتبقى تركيا، وهي، لحسن المصادفة، توّاقة إلى أداء هذا الدور.

لا يزال أمام تركيا، على رغم أنها في طريقها لتصبح إحدى القوى العالمية التي

(١) Graham E. Fuller, *The New Turkish Republic: Turkey as a Pivotal State in the Muslim World* (Washington,D.C.: United States Institute of Peace, 2008), pp. 5, 23, 180.

(٢) George Friedman, *The Next 100 Years:A Forecast for the 21st Century* (New York: Doubleday, 2009), pp. 81– 82.

لا يمكن الاستغناء عنها، عائق واحد تقفز من فوقه. إذ عليها، وقد حلّت تقريبًا كل خلافاتها الدولية، أن تنتهي من ترتيب بيتها الداخلي. فالقانون التركي ما زال يحدّ من حرّية التعبير. ويواصل الجيش أداء دور سياسي غير مقبول في الدول الديمقراطية. وتستمر الأقليات في وضع لا يؤمّن لها الحماية الكاملة - ليس فحسب الأكراد الذين عانت ثقافتهم الأمرّين عقودًا من القمع الرسمي قبل أن يُقنع رئيس الوزراء أردوغان المجلس الوطني الكبير عام ٢٠٠٩ بإعادة الكثير من حقوقهم إليهم، بل أيضًا المسيحيون والمسلمون الذين لا يتبعون التيار السائد، والملحدون. ولا تزال مسحة من الشوفينية القومية موجودة في الثقافة السياسية التركية. والصحافة ضعيفة وفاسدة. والأحزاب السياسية كناية عن مؤسسات استبدادية مُغلقة. والنظام التعليمي جامد ولا يشجّع على التفكير الحرّ. وإلى أن تصبح الديمقراطية التركية كاملة ستبقى قدرتها على أداء دور منارة الحرّية، محدودة.

بعض العوائق أمام القوة التركية تقنية؛ وقد اشتهر دبلوماسيوها، على سبيل المثال، بثقافتهم الرفيعة، ولكن بالكاد يوجد ألف منهم، وهذا لا يكفي أبدًا لنشر رسالة بلادهم في العالم. وتأتي التحدّيات الأخرى من الدول المنافسة. ومع أن الزعماء الأتراك يهوون القول إن هدفهم لا يتعارض مع هدف أي أحد آخر، إلا أن هذا لا يصحّ مطلقًا على دولة طموحة. فعندما تشجّع تركيا كلًّا من جورجيا وأرمينيا وأذربيجان على المطالبة باستقلالها التام، تغضب روسيا. وعندما تهرع للدفاع عن المسلمين الصينيين تتحدّى بكين. وعلى تركيا، مع اتساع مداها العالمي، أن تتعلم إدارة هذه النزاعات ويتأكد لها عدم تطوّرها إلى مواجهات.

الأتراك شعب انفعالي، وهو ما يطرح تحدّيًا آخر لأن الانفعال عدو للسياسة الخارجية السليمة. وقد سمح الزعماء الأتراك أحيانًا لانفعالهم بالتأثير في موقفهم من إسرائيل. وقد غضبوا في شكل مفهوم من الأفعال الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، وبخاصة الدمار الذي أنزلته بغزة في اجتياحها نهاية العام ٢٠٠٨ وبداية العام ٢٠٠٩ وما تبعه من حصار تأديبي. ولو أرادت تركيا أن تشكّل جسرًا بين الأمم، لا يمكنها

تاليًا أن تتحمّل إغضاب أي منها من دون مبرّر. فقد جلبت الولايات المتحدة على نفسها الكثير من الأسى بعزلها إيران؛ وستصبح تركيا على الدرجة نفسها من الحماقة برفض إسرائيل. فإسرائيل، على غرار إيران، منبوذة في الكثير من الدوائر ومُستبعدة عن أي ترتيبات أمنية في الشرق الأوسط، وقد لا يكون ذلك في خدمة قضية السلام. ويُذكر أن لتركيا تاريخًا من العلاقات الممتازة مع اليهود، وقد أصبحت، عام ١٩٤٩، ثاني بلد مسلم بعد إيران يعترف بإسرائيل. وهي بإدارة ظهرها لهذا الإرث تناقض دورها الدبلوماسي الجديد كوسيط في التسوية.

بيد أن هذا الانجراف لا يجرّد تركيا من صفة كونها شريكًا ذا قيمة فريدة للولايات المتحدة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى تركيزها الجديد على الشرق الأوسط وآسيا. فتركيا تعزز جاذبها الجغراسي من خلال توسيع امتدادها السياسي.

توصل الأميركيون إلى الإدراك أنهم يفتقرون إلى الأدوات التاريخية والثقافية الضرورية للتحرّك، في فاعلية، في الشرق الأوسط والمناطق المحيطة به، ويحتاجون إلى إرشاد. وربما كان الأتراك على أهبة الاستعداد لهذا النوع من العلاقة مع الولايات المتحدة، سوى أن أميركا تفتقر إلى الخبرة في الاستماع إلى القوى الأخرى. لكن أحداث العقد الماضي الساحقة – بما فيها هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، والانعكاسات الدامية لغزو العراق، والتحديات الشاقة التي تبرز من أفغانستان وباكستان، إضافة إلى ظهور شبكات الإرهاب العالمية – هزّت ذهنية الأميركيين الواثقة بالنفس، إذ إنهم، وللمرة الأولى في تاريخهم، يرون أن هناك أمورًا في العالم لا يمكنهم تحقيقها بأنفسهم مهما بلغ تصميمهم والمبالغ المالية التي ينفقونها. وأدرك الكثيرون الآن أنهم يحتاجون إلى المساعدة في فهم الأزمات العالمية وإيجاد حل لها. وإذا انتهوا إلى قبول هذه الحقيقة واتفقوا على أن العالم الإسلامي هو المكان الذي يحتاجون فيه أكثر ما يكون إلى المساعدة، تصبح تركيا عندذاك ثاني أفضل صديق لأميركا.

لماذا ابتعدت تركيا عن سياستها الخارجية التقليدية التي ترتكز على العلاقات مع أوروبا والولايات المتحدة، وأضحت أكثر نشاطًا في الشرق الأوسط وآسيا؟ لقد

نضجت كدولة وامتلكت الآن الثقة بالنفس لأداء دور عالمي؛ حررها انتهاء الحرب الباردة من القيود السياسية ووفر لها فرصة ملاحقة مصالحها الأوسع؛ وهي ترى حيّزًا واسعًا من الفرص السياسية والاقتصادية وتريد أن تستغلّها. ولكن يوجد سبب آخر من وراء ذلك كلّه، وهو أن أوروبا تصفق الباب في وجه تركيا الدولة الأبيّة التي لا تتفاعل في شكل طيّب مع الإهانة وترد بالسعي إلى إيجاد الأصدقاء في مكان آخر.

همدت بالتأكيد قصة الحب التي لم تتصف قط بالعاطفية، بين تركيا وأوروبا. ولم تعد نهايتها الرسمية إلا مسألة وقت لا تتضح مدته. فقد ناقض بعض الزعماء الأوروبيين في شكل مباشر الوعد الذي قطعه الاتحاد الأوروبي لتركيا – بأنها «دولة مرشحة إلى الانضمام إلى الاتحاد» – بتشديدهم على أنهم لا يريدون أبدًا لتركيا أن تنضم إليهم. وما إن أصبح الانقلاب في الموقف الأوروبي بيّنًا في شكل مؤلم حتى تباطأت سرعة الإصلاح في تركيا، وهو ما أعطى، بدوره، الأوروبيين سببًا إضافيًّا لانتقاد تركيا. وأصاب هذا المسار الانحداري الطرفين بالضرر.

والأمر سيّئ لتركيا لأن الاتحاد الأوروبي شكّل، ولسنوات، القوة الخارجية الأساسية التي تدفعها إلى إنجاز مسيرتها نحو الديمقراطية. صحيح أن لتركيا أسبابها الخاصة في توسيع حقوق الأقليات ورفع القيود على حرية التعبير ووضع حد لنفوذ العسكر في السياسة، إلا أن احتمالات العضوية في الاتحاد الأوروبي زودتها دافعًا قويًّا، في نوع خاص، للقيام بذلك. ومع تلاشي هذا الاحتمال، تلاشى أيضًا الضغط من أجل الإصلاح.

تحتاج تركيا إلى قوّة أوروبا لبلوغ الحد الأقصى من نفوذها الاستراتيجي، إذ يسعها، وأوروبا من ورائها، المساعدة في إعادة صياغة العالم. وهي تستطيع، من دون أوروبا، تعزيز نفوذها، لكن قوتها ستبقى محدودة.

وتعاني أوروبا أيضًا هذا الصدع، إذ يمكن الاتحاد الأوروبي، وتركيا عضو فيه، أن يصبح لاعبًا دوليًّا رئيسًا. غير أنه لا يملك الكثير من الحظ في ذلك، في غيابها.

فتركيا بلاد تنبض بالحياة، وهي ملأى بالشبان المتلهفين للعمل ولدفع الضرائب التي تملأ صناديق تقاعد شيب البلدان الأوروبية. وأهم من ذلك كلّه أن تركيا تشكّل أفضل أمل في تهدئة راديكاليي العالم الإسلامي الذين يشكّلون تهديدًا لأوروبا، إضافة إلى أي منطقة أخرى. وكان من شأن قبول تركيا أن يشكّل رسالة واضحة يبعث بها الاتحاد الأوروبي إلى البلدان الإسلامية، ومفادها أنكم إذا أصبحتم ديمقراطيين فسيفتح لكم العالم أبوابه. وهو، برفضه تركيا، يبعث بالرسالة المعاكسة: لا نريدكم، مهما فعلتم.

وكتب المعلّق المغربي عبدالله تركماني: «إذا انضمت تركيا إلى الاتحاد الأوروبي فستمتلك تأثيرًا عميقًا في العالم الإسلامي بكامله وفي العالم العربي خصوصًا. وستسهم هذه العملية في تحديثهما السياسي والفكري. وسيُضطران في المستقبل، القريب أو البعيد، إلى محاكاة ما تفعله تركيا»[١].

لا يعلّق العرب وحدهم، بل المسلمون في كل مكان، الأمل الكبير على العلاقة بين تركيا والاتحاد الأوروبي. ويؤكّد الباحث الباكستاني رسول بخش ريس أن «تركيا، بصفة كونها نموذجًا للتقليد وللحداثة، تجتذب الكثير من انتباه المفكرين والسياسيين وصانعي السياسة في باكستان وغيرها من الدول المسلمة». ويضيف أن «من شأن دمج تركيا بأوروبا أن يعزّز القوى الديمقراطية في الدول المسلمة المنخرطة في كفاح مع المجموعات الإسلامية التقليدية حيال تحديد هوية الدول والمجتمعات في العالم الحديث».

لماذا فقد الاتحاد الأوروبي هذا القدر من حماسته للفكرة، على رغم الفوائد التي يعود عليها بها احتضان تركيا؟ يقع جزء من الجواب على أن الأوروبيين العاديين لم يتحمّسوا لذلك قط. ولطالما كان الاتحاد الأوروبي مشروعًا للنخبة، إلا مواطنيه، وقد باتت لهم كلمة أكبر في قراراته، يعربون عن عدم رضاهم عن فكرة عضوية تركيا.

(١) Hakan Altinay et al., eds., Reflections *of EU-Turkey Relations in the Muslim World* (Istanbul: Open Society Foundation, 2009), p. 17.

ويعتقد الكثيرون أن لا مكان لبلد مسلم في الاتحاد الأوروبي؛ ويخشى آخرون كلفة الدعم الأوروبي المستقبلي لتركيا؛ بيد أن آخرين سيطر عليهم «تعب التوسيع» بعد قبول الكثير من الدول في الاتحاد في السنوات الأخيرة. وقد أدرك السياسيون في بعض الدول الأوروبية أنهم يكسبون الأصوات من خلال تعهّد إبقاء تركيا خارج الاتحاد. وقد يتغيّر ذلك، ولكن ليس بين ليلة وضحاها. وإلى أن يتغيّر، ليس لتركيا احتمال كبير بالانضمام.

ونظرًا إلى هذا الواقع، تتطلّع تركيا إلى مكان آخر. وهي على أي حال تسعى ربّما إلى توسيع آفاقها، لكن جفاء أوروبا يعطيها مبررًا إضافيًّا للقيام بذلك. ودفع ذلك البعض إلى التخوف من أن تتخلى تركيا، وقد لدغتها الإهانة الأوروبية، عن توجهها الغربي لمصلحة توجه مختلف.

وعالج الرئيس باراك أوباما هذه الخشية في خطابه عام ٢٠٠٩ أمام الجمعية الوطنية الكبرى، جاعلًا من تركيا البلد الإسلامي الأول الذي يزوره بعد تولّيه السلطة. وأعاد التأكيد، في قوّة، على الدعم الأميركي لعضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، مشددًا على أنها «كانت حليفًا ثابت العزم وشريكًا مسؤولًا في المؤسسات الأوروبية والعابرة للأطلسي»، وعلى أن «عضويتها ستوسّع المؤسسة الأوروبية وتعزّزها». ثم توجّه إلى «أولئك الذين يودّون مناقشة مستقبل تركيا»، قائلًا «إنهم يتساءلون هل يُدفع بكم في هذا الاتجاه أو الآخر. سوى أنني أعتقد أن ما لا يفهمونه هو أن عظمة تركيا تقع في قدرتكم على أن تكونوا في قلب الأمور، لأن ليس هذا المكان الذي يفترق فيه الشرق عن الغرب، بل إنه المكان حيث يتلقيان»[١].

تنتشر العوائق على طريق تركيا إلى عضوية الاتحاد، فبعضها ينبع من قصر نظر أوروبا والبعض الآخر من صنع تركيا نفسها. وقد تقبل تركيا عام ٢٠٢٣ عندما تحتفل بالذكرى المئوية الأولى على وجودها كدولة ذات سيادة. غير أنها تستطيع، في

(١) http://www.whitehouse.gov/thepressoffice/Remarks-By-President-Obama-To-The-Turkish-Parliament/.

غضون ذلك، أن تساعد الولايات المتحدة في تحقيق أهدافها الأكثر إلحاحًا. وقد أشار الرئيس أوباما إلى أحدها – ويمكن القول إنه الأكثر إلحاحًا – في خطابه أمام الجمعية الوطنية الكبرى.

وقال لمضيفيه الأتراك: «لدينا هدف مشترك في السلام الدائم بين إسرائيل وجيرانها... ويمكن الولايات المتحدة وتركيا مساعدة الفلسطينيين والإسرائيليين على القيام بهذه الرحلة».

تتوافق المصالح الأميركية البعيدة الأمد مع مصالح تركيا. ولكل دولة من الدولتين مجموعة الوسائل الخاصة بها والتي تمكّنها من تعزيز تلك المصالح. وتكفي هذه وحدها لأن تحوّل الأمر شِرْكة واعدة. ولكن يوجد المزيد.

يتناسب هذان البلدان، أحدهما مع الآخر، لسبب آخر هو أن لشعبيهما مقاربة ديمقراطية مشتركة للسياسة وللحياة. فقد استوعبت القيم الديمقراطية التي يعتنقها الأميركيون أيضًا: حقوق الإنسان، والانتخابات الحرّة، وحق الناس في أن يعيشوا حياتهم كما يريدون. وترسّخت الديمقراطية في تركيا إلى حدّ أن حتى الانقلابات العسكرية عجزت عن هزّها. ويدرك الأتراك أنهم لا يسعهم تحقيق التقدّم إلا بالاقتراب أكثر من أفكار الحداثة والحرّية الغربية.

وترتكز الشِّرْكة المثالية بين أي بلدين على أساسين. إذ عليهما أوّلًا أن يمتلكا أهدافًا استراتيجية مشتركة. ويجب أن تتوافر لهما، ثانيًا، مثل مشتركة لأن الشِّرْكات المرتكزة على العلاقات بين النخب الحاكمة فحسب، هي بطبيعتها غير مستقرّة. وتركيا مؤهّلة في الحالين لأن تصبح أفضل شريك يمكن الولايات المتحدة أن تجده في المنطقة الأكثر اضطرابًا في العالم.

من شأن أي حكومة تواجه خطرًا خارجيًا أن تغتنم أي فرصة لتسريع الشعور القومي في داخل البلاد[1].

ـ شيرين عبادي، الحائزة جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٣

ثمة واقع يقفز إلى العين في أي خارطة للشرق الأوسط، وهو أن إيران هي الدولة الكبيرة في الوسط، وتبرز بالطريقة التي تبرز فيها ألمانيا على أي خارطة لأوروبا.

ينظر الكثيرون من الأميركيين إلى إيران بالطريقة نفسها التي نظر فيها جدودهم إلى ألمانيا، لاعبًا سيّئًا لا يتسبّب إلا بالمشكلات. وأدرك جدودهم، بعد الحرب العالمية الثانية، أن أوروبا لن تستقر أبدًا إذا لم يتم التوصّل بطريقة من الطرق إلى تهدئة ألمانيا. ويدرك الأميركيون اليوم الأمر نفسه بالنسبة إلى إيران والشرق الأوسط.

نظر قادة الحلفاء، لبعض الوقت في منتصف عقد الأربعينات، في خيار معاقبة ألمانيا بتجزئتها وبهدم معاملها وبإجبارها على توفير معيشتها من الزراعة وحدها. وارتكزت هذه الخطة على الانفعال: الغضب من الهول الذي أنزلته ألمانيا بالعالم، والإصرار على جعل شعبها يعاني. إلا أن الغلبة تحققت للأكثر هدوءًا بينهم وظهرت خطّة معاكسة. سبق للحرب الباردة أن قسّمت ألمانيا، ولكن تم احتواء ألمانيا الغربية في الأسرة الأوروبية. وبمرور أربعة عقود استعادت ألمانيا وحدتها سلمًا، وأضحت بلدًا طبيعيًا يشجّع على السلام بدلًا من صنع الحرب.

إلا أن المقارنة مع إيران أيامنا هذه ليست دقيقة، بما أن ألمانيا هُزمت في الحرب، فيما إيران سليمة وتتمتع بالثقة بالنفس. ومع ذلك فإن المعضلة المتأصلة هي نفسها. فهل من الأفضل مجازاة المشاكس ومعاقبته، أو إغراؤه ليصبح طبيعيًا؟

يقبع تحت هذا السؤال سؤال آخر أكثر عمقًا: هل تصوغ الولايات المتحدة سياستها بتأثير من انفعالاتها، أو بالحساب البارد لمصالحها الذاتية؟

هذا جوهر المعضلة التي حوّلت العلاقات بين واشنطن وطهران إحدى المواجهات

(١) *Time*, May 8, 2006.

الأطول في العالم. ولا يزال بعض الأميركيين الأقوياء أسرى غضبهم على إيران النابع من أزمة الرهائن الصادمة جدًّا بين العامين ١٩٧٩ و١٩٨١، ومن الجهود الناجحة إلى حد كبير التي بذلتها إيران، طوال الأعوام الثلاثين التالية، في إثارة المشكلات للولايات المتحدة كلّما أمكنها ذلك. وأمضى هؤلاء الأميركيون عقودًا وهم يحاولون معاقبة إيران. وعدُّوا أن التفاوض والمصالحة، بل وربما بناء شركة مع إيران، شكل من أشكال الاستسلام. وقد بلور هنري كيسنجر هذه النظرة عندما سئل كيف يجب على الولايات المتحدة التعامل مع أعدائها المسلمين.

قال: «يريدون إذلالنا. ونريد إذلالهم»[1].

ولكن يجب ألا يكون هدف الدبلوماسية – أو تفادي الدبلوماسية – المعاقبة وإلحاق الألم واستخراج الجزية أو تعويض الانفعالات المتقيّحة. كذلك يجب عدم النظر إليها كوسيلة للحصول على أصدقاء. بل إن هدفها الأساس هو تقديم المصالح. وتكمن مأساة الجفاء الأميركي الطويل لإيران في أنه قوّض مصالح أميركا الخاصة.

وثمة طائفة من الأسباب المجرّدة للتفاوض مع إيران توازي عدد أسباب عدم التفاوض. وليست لأي منها أهمية حقيقية. وما يهم هو تعذر تحقيق أي من الأهداف الأميركية الرئيسة في الشرق الأوسط – تهدئة الوضع في العراق، واستقرار لبنان، وإنهاء المأزق الإسرائيلي ـ الفلسطيني، وإضعاف الأصولية الإسلامية، والقضاء على القاعدة، والحد من المنافسة النووية، وخفض خطر الحروب المستقبلية ـ من دون تعاون إيران. وقد أثبتت الأعوام الثلاثون الماضية، في شكل واف، أن إيران المعزولة مُخرِّبة. ويمكن إيران الهادئة والمزدهرة أن تصبح للشرق الأوسط ما هي عليه ألمانيا الهادئة والمزدهرة لأوروبا، أي قوة استقرار، وموفّرًا للأمن، ومحركاً للتنمية الاقتصادية.

تضاعفت قوة إيران في الشرق الأوسط في شكل دراماتيكي خلال السنوات

(١) Bob Woodward, *State of Denial: Bush at War, part 3* (New York: Simon and Schuster, 2007), p. 408.

الأولى من القرن الواحد والعشرين. ومردّ ذلك، إلى حد كبير، إلى أفعال غير مدروسة في شكل مذهل قامت بها الدولة التي طرحت نفسها بصفة كونها العدو الأكبر لإيران، وهي الولايات المتحدة. وتبين أن العقوبات الاقتصادية المقعدة ليست في النهاية مقعدة إلى هذا الحد، إذ إنها أفقرت الإيرانيين العاديين، وأثرت طبقة من المهرّبين المرتبطين بالنظام، ودفعت إيران إلى إقامة شبكة من العلاقات الاقتصادية مع دول أكثر براغماتية، بما فيها روسيا والصين واليابان والهند. ثم إن الولايات المتحدة أطاحت، خلال رئاسة جورج و. بوش، نظامين في بلدين مجاورين هما من ألد أعداء إيران: صدام حسين في العراق والطالبان في أفغانستان. وسارعت إيران، في غياب منافسيها، إلى البروز كدولة إقليمية تطمع بالهيمنة.

أسدت إطاحة صدام حسين خدمة إلى إيران أكبر من مجرّد إزالة عدو قوي، إذ أدت أيضًا إلى إقامة حكومة عراقية يسيطر عليها الشيعة وتربطها علاقات حارة بإيران. ولمّا زار الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد بغداد عام ٢٠٠٨، جال في المدينة بسيّارة مكشوفة ملوّحًا للحشود الهاتفة. وهزئ بالرئيس بوش لاضطراره إلى التسلل إلى العراق في زيارة لم تُعلن مسبقًا خشية تعرّضه للهجوم. وشكّلت تلك إشارة قويّة في شكل مؤلم إلى أن إيران، العدو الذي يزعم بوش أنه يكرهه، خرجت من هذا الغزو للعراق بصفة كونها الرابح الكبير.

«بدا لنا بقيامكم بذلك أنكم من خارج هذا العالم»، تعجّب وزير الخارجية السعودية سعود الفيصل، وقد أعياه الأمر. «إننا نسلّم البلاد بكاملها إلى إيران»[1]!

ارتكز سوء الحسابات الاستراتيجية الأميركية جزئيًا على الجهل. وأكّد بروس ريدل، محلل الـ«سي. آي. إي.» السابق ومستشار ثلاثة رؤساء في الشأن الإيراني، أن «الولايات المتحدة حاولت طوال ثلاثين عامًا التعاطي مع إيران وأيديولوجيتها

(١) Suzanne Maloney, *Iran's Long Reach: Iran as a Pivotal State in the Muslim World* (Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 2008), pp. 46– 47.

الثورية من دون فهم عميق لما يحرّك الإيرانيين ويلهمهم»(١). وأدت السياسات الأميركية الهادفة إلى عزل إيران، إلى عكس المراد منها تحديدًا، فعزلت الأميركيين عن المعلومات والاتصالات التي يحتاجون إليها للتعامل، في فاعلية، مع إيران. واستذكر نائب وزيرة الخارجية السابق نيكولاس بيرنز قائلًا: «كنت المسؤول الرئيس عن إيران من العام ٢٠٠٥ إلى العام ٢٠٠٨، ولم ألتق مرّة مسؤولًا إيرانيًّا»(٢). لقد أعمى الانفعال الولايات المتحدة فغرقت في الجهل المقصود. وكادت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس تفتخر بذلك. واعترفت، عندما سئلت عن احتمالات التغيير في العلاقة: «ليس لدينا في الحقيقة في داخل منظومتنا أناس على معرفة بإيران... ولا نمتلك حقًّا صدقية كبيرة جدًّا أو أدراكًا بالمكان»(٣).

تعيد الولايات المتحدة النظر في مقاربتها مع سعي الرئيس الجديد إلى إعادة صياغة السياسة الخارجية الأميركية، ومع بروز مخاوف جديدة في شأن إيران وبخاصة برنامجها النووي. ولم تتبخّر الانفعالات التي منعت التقارب في السابق. ولكن توجد، وللمرة الأولى، إشارات إلى أن واشنطن تنظر في الميزات التي قد تنتج عن تفاهم جديد بين الولايات المتحدة وإيران:

- يمكن إيران، أكثر من أي دولة أخرى، بما في ذلك الولايات المتحدة، أن تقوم بما من شأنه ضمان السلام الطويل الأمد في العراق.

- يمكن إيران أن تساعد أيضًا في بسط الاستقرار في أفغانستان المنخرطة فيها منذ قرون.

- قد تتوقّف إيران المستقرة والآمنة، والتي لا تعود في حاجة إلى كبش فداء، عن تهديد إسرائيل.

---

(١) Bruce Riedel, "America and Iran: Flawed Analysis,Missed Opportunities, and Looming Dangers,"*Brown Journal of World Affairs* 15, no. 1 (Fall– Winter 2008): 101.

(٢) Ali Gharib, "Iran: Misreading the Protests in Tehran," IPS, June 25, 2009, accessible at http://ipsnews.net/news.asp?idnews=47375.

(٣) Wall *Street Journal*, June 8, 2007.

- يمكن إيران أن تكبح منظمات مجاهدة مثل حماس وحزب الله مما سيسهم في أمن إسرائيل ويساعد في استقرار لبنان ويعزز في شكل كبير احتمالات السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب.

- ستحسّن المصالحة بين إيران والولايات المتحدة في شكل حاسم العلاقات بين أميركا والعالم الإسلامي.

- ستصبح لإيران دوافع أقل في دعوة القوة الروسية إلى الشرق الأوسط، وهو أمر تسعى الولايات المتحدة عن حق إلى تفاديه.

- إيران عدوة للقاعدة وستتعاون مع الجهد الأمني للقضاء عليها.

- تمتلك إيران سبعة في المئة من احتياطي العالم من النفط و١٦ في المئة من غازه الطبيعي؛ وإذا لم تستثمره الولايات المتحدة وتشترِه، فستقوم روسيا والصين بذلك، ما يعزّز بالتالي من رافعتهما الاستراتيجية في المنطقة.

- حال البنى التحتية النفطية الإيرانية تعيسة وتحتاج يائسة إلى التحديث الذي سيكلّف مليارات الدولارات؛ والشركات الأميركية في موقع مثالي للقيام بهذا العمل.

- تصبح إيران مستعدة للتسوية في المسائل النووية عندما تشعر بانتفاء التهديد الأميركي لها.

ماذا على الولايات المتحدة فعله لضمان هذه النتائج؟ عليها، قبل كل شيء، أن تعترف بإيران كقوّة مهمة تمتلك مصالح أمنية مشروعة. وقد رفض الرؤساء الأميركيون المتعاقبون فكرة التسوية لهذا السبب بالتحديد. إذ رغبوا في معاقبة إيران واحتوائها وعزلها، وليس مكافأتها بترقيتها إلى مرتبة القوة الإقليمية. وفي هذا تجاهل لحقيقة أن إيران لا تحتاج إلى ترقية، فهي قوة إقليمية بالفعل. ربما تتمنى الولايات المتحدة ألا تكون هذه هي الحال، غير أن خداع الذات لا يشكّل قاعدة سليمة للسياسة الخارجية.

لم يثر أي ملمح من ملامح السلوك الإيراني في العقد الأول من القرن الجديد إزعاج الجهات الخارجية أكثر مما أثارته متابعتها برنامجها النووي. وليس سعي إيران إلى الحصول على قدرة إنتاج الطاقة النووية بالأمر غير العقلاني. ويعتقد معظم الإيرانيين أن هذا حقهم الطبيعي. وقد بدأوا في الواقع ببرنامجهم النووي الأول بتشجيع أميركي في عهد محمد رضا شاه.

غير أن ما يزعج العالم هو إحاطة المسعى الإيراني النووي بالسرّية والتضليل، مما أدى إلى بروز الشكّ المعقول في أن هدفها الحقيقي ليس الطاقة النووية بل السلاح النووي. وما يوازي مضي إيران قدمًا في برنامجها النووي إثارة للقلق، هو واقع توسّع طموحاتها الإقليمية وتهديدها المتهوّر لإسرائيل. وقد لا يخشى الزعماء الإسرائيليون حقًّا أن تهاجم إيران بلدهم بالأسلحة النووية، لأن من شأن ذلك أن يؤدي إلى ردّ فوري يؤدي إلى القضاء على إيران كأمة. بيد أن الإسرائيليين، وغيرهم، يدركون أن في وسع إيران، وقد امتلكت السلاح النووي، أن تخيف جيرانها بطرق تؤدي في النهاية إلى تشكيل خطر على أمن إسرائيل. كذلك يمكن إيران المسلحة نوويًّا أن تُطلق سباقًا على التسلّح في المنطقة تسعى فيه مصر والسعودية وتركيا، وربما دول غيرها، في إلحاح، للحصول على أسلحة نووية خاصة بها – وهو سباق يمكنه أيضًا أن يشكّل تهديدًا كبيرًا لإسرائيل. وإذا بدا أن إيران توشك أن تختبر سلاحًا نوويًا، أو إذا اختبرت واحدًا بالفعل، فقد تعمد إسرائيل أو السعودية إلى مهاجمتها، بموافقة من أميركا أو من دونها. وهو ما سيشعل بدوره انفجارًا إقليميًّا. وبالتالي فإن السعي إلى كبح البرنامج النووي الإيراني، أو على الأقل إخراجه إلى العلن كما تقضي بذلك متطلّبات المعاهدة مع إيران، يشكّل مهمة شرعية وعاجلة للعالم الخارجي.

ومن غير المرجّح أن يؤدي الهجوم على إيران أو قصفها إلى وقف هذا البرنامج، بل إنه قد يؤدّي إلى عكس المراد منه، أي إلى إقناع إيران بأن الرادع النووي وحده سيمنع وقوع هجمات في المستقبل. وكان وزير الدفاع الأميركي روبرت غايتس محقًّا في تأكيده عام ٢٠٠٩ أن «لا خيار عسكريًّا يؤدّي إلى أكثر من شراء الوقت».

يريد العالم من إيران أن تقدّم تنازلًا أمنيًّا مهمًّا، تمامًا كما يريد من إسرائيل تقديم تنازلات أمنية. ولكن لا يمكن أي دولة تقديم مثل هذه التنازلات إلا إذا شعرت بالأمان. ويجب على صانعي السلام في الشرق الأوسط أن يهدفوا إلى صياغة اتفاقات أمنية إقليمية تعيد طمأنة كل من إيران وإسرائيل إلى أن بقاءهما ليس في خطر. وإلى أن يتحقق ذلك، ستستمر إيران في الاعتقاد أنها تحتاج إلى الأسلحة النووية – مما يعني أنها ستواصل السير في برنامج نووي مزعزع جدًّا للاستقرار.

من غير المؤكد قط أن يتمكّن التفاوض من إنتاج تصميم أمني جديد للشرق الأوسط. ثم إن القيام بجهد شامل لا يصب في خانة من يريدون زيادة حدّة التوترات الإقليمية. وكل يوم تستمر فيه الولايات المتحدة وإيران في المواجهة، هو يوم تواصل فيه أجهزة الطرد المركزي في المعامل النووية الإيرانية الدوران. وفي السنوات التي تلت رفض الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣ الرد على العرض الإيراني بالتفاوض، زاد عدد أجهزة الطرد المركزي في هذه المعامل عشرة أضعاف؛ ولا يمكن عدُّ ذلك سياسة ناجحة.

لا يشكّل الخطر المتزايد الذي يمثّله برنامج إيران النووي على الأمن الإقليمي والدولي سببًا للاستمرار في عزل إيران، بل سبب للقيام بالعكس: التعاطي في شكل مستعجل مع حكومتها أملًا في تفادي بروزها كقوّة نووية كاملة. ولن تحقق التهديدات والعقوبات ذلك، وكذلك الهجوم العسكري. كذلك يمكن التفاوض أن يفشل، إلا أن الرهانات كبيرة إلى حدٍ أن من الحماقة رفض المحاولة.

ولا يحتاج العثور على طريقة للشِّرْكة إلى وجود خاسرين في الولايات المتحدة وفي إيران. إلا أن هذا لا يعني أن الجميع سيبتهجون. فقد تشعر السعودية أن إيران المستقرّة والمزدهرة قد تأخذ مكانها كمحظية واشنطن في الشرق الأوسط. وإذا تحرّرت إيران من العقوبات وتمكنت من استعادة دورها القديم، أي المركز التجاري للمنطقة، فقد تخسر دبي من أعمالها. وقد لا تحب أذربيجان التي يحكمها ديكتاتور موال لأميركا، ظهور مركز جديد للقوة على حدودها الجنوبية. وقد تخشى إسرائيل أن يهدد أي كسب لإيران مستقبلها.

هذه المخاوف كلّها معقولة. إلاّ أن من شأن اتفاق واسع المدى بين الولايات المتحدة وإيران أن يعزز كثيرًا أمن الشرق الأوسط ويستفيد منه كل بلد في المنطقة. فللدول المنضوية في نظام أمني مصلحة في الحفاظ عليه وتعزيزه؛ أما تلك التي خارجه فلها مصلحة معاكسة. وقد أعلن ليندون جونسون هذه المبادئ في شكل لاذع لدى شرحه سبب قراره عدم طرد المدير المزعج لـ«أف. بي. آي.» ج. إدغار هوفر، بقوله: «من الأفضل ربما وجوده داخل الخيمة وتبويله خارجها، من أن يصبح خارج الخيمة ويبول فيها»[1].

من الأفضل الانطلاق، في بطء، في بعض المفاوضات الدبلوماسية والسعي إلى اتفاقات على نطاق صغير وإلى «إجراءات لبناء الثقة» قبل التطرّق إلى المسائل الأكثر أهمية. غير أن هذه المقاربة لن تنجح مع إيران، بل إن العكس هو المطلوب. يجب على الولايات المتحدة أن تهدف إلى اتفاق شامل يعطي إيران كل حق يؤهلها له حجمها، على أن تضمن الحصول منها، في المقابل، على تنازلات في كل مسألة تعدُّها الولايات المتحدة مهمة. فلا شيء يدفع إيران إلى التعاون مع الولايات المتحدة في مسائل منفصلة؛ ولماذا تعمد، مثلًا، إلى تحقيق استقرار في العراق ما دامت تخشى استخدام الولايات المتحدة العراق المستقر قاعدة تهاجمها منها؟

تتشابك مخاوف العالم المتعلّقة بإيران. وكذلك الأمر بالنسبة إلى مخاوف إيران من العالم. ولا يمكن إيجاد حلّ لها إلا من خلال اتفاق شامل.

في الأشهر التي أعقبت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر الإرهابية، طلبت واشنطن المساعدة من إيران في التعامل مع أفغانستان وأعطتها إيران الكثير. بيد أن إدارة بوش انشغلت بفكرة إطاحة صدام حسين وربما من بعده بالتحرّك لإطاحة النظام في إيران. ورفضت الحكومة الأميركية، بدفع من أوهام النصر هذه، اليد التي مدّتها إيران

(١) *New York Times*, October 31, 1971.

للمصافحة، على سبيل التجربة. وشكّلت هذه إحدى الفرص الضائعة الأكثر مدعاة للأسف في التاريخ الحديث[1].

لا يغيّر العنف الذي استخدمه الزعماء الإيرانيون لخنق احتجاجات أعقبت انتخابات العام ٢٠٠٩ الرئاسية في منطق استراتيجية المصالحة بين واشنطن وطهران. غير أن عليه أن يذكّر الأميركيين بأنهم لا يمكنهم السقوط في الفخ الذي نكّد علاقاتهم مع بعض الدول الأخرى: أي اتفاقات بين النخب الحاكمة يُستثنى منها المواطنون. وعلى الولايات المتحدة، وهي تعمل على تحقيق مصالحها الاستراتيجية من خلال السعي إلى تسوية خلافاتها مع إيران، ألا تقوم بما من شأنه أن يقوّض الحركة الديمقراطية الإيرانية.

تشكّل إيران البلد الإسلامي الوحيد في العالم الذي يؤيّد شعبه أميركا في شكل وثيق. ويُعدُّ هذا الشعور المؤيد لأميركا في إيران ركيزة استراتيجية للولايات المتحدة لا تُقدّر بثمن. وعلى المفاوضين الأميركيين، للأسباب العملية والأخلاقية، ألا يقدّموا تنازلات إلى النظام الإيراني تضعف الإيرانيين الذين يدافعون عن القيم الديمقراطية.

تجد شخصيات المعارضة في إيران نفسها في موقف صعب لا توجد فيه خيارات جيّدة. سوى أن أفضل أسوأ الخيارات هو أن يندمج النظام بالعالم الخارجي وأن يُستَدرج للتخلي عن مخاوفه، ويبني جسورًا مع بلدان يُعدُّ فيها النقاش والاعتراض والاحتجاج دليلًا صحّيًا إلى الاستقرار. وإذا غيّر ديمقراطيو إيران رأيهم في ذلك الشأن – كأن يشرعوا في الطلب من دول أخرى قطع اتصالاتها مع النظام – فينبغي للولايات المتحدة أن تعيد النظر في منطق التعاطي. وعليها، حتى ذلك الوقت، المضي قدمًا.

تعكس القساوة التي قمع بها الزعماء الإيرانيون احتجاجات العام ٢٠٠٩ ضعفًا

---

(١) Flynt Leverett and Hillary Mann Leverett, "Obama's Iranian Lifeline,"Politico, October 6, 2009; Riedel, "America and Iran,"p. 107.

في البصيرة. غير أن ما يوازي ذلك أهمية، على الأقل، هو رمزية هذه الاحتجاجات نفسها. فلا تقع أبدًا احتجاجات تلي الانتخابات في مصر، لأن المصريين يتوقعون تزوير هذه الانتخابات، كذلك لا تحدث في السعودية حيث لا انتخابات عامة على الإطلاق. وتعكس شهور الاحتجاج في إيران إرث مسيرتها ذات المئة عام إلى الديمقراطية. ويعتقد الإيرانيون اليوم أن تصويتهم وصوتهم حق لهم. فهم ورثة خمسة أجيال من مقاتلي الحرّية بمن فيهم أولئك الذين بذل هوارد باسكرفيل حياته دعمًا لهم بعد ثورة العام ١٩٠٦ الدستورية، وأولئك الذين دافعوا عن محمد مصدق بعد نحو نصف قرن على ذلك. وتظهر تضحيتهم كم أن لهب الحرية لا يزال يشتعل، في قوّة، في إيران، على الرغم من أنه لا يُسمح له، على عكس تركيا، أن يحترق في العلن.

تشكّل إيران على المدى الطويل، على رغم تيوقراطيتها، شريكًا محتملًا للولايات المتحدة للأسباب نفسها التي لتركيا. فللبلدين أهداف استراتيجية مشتركة، وكذلك لمجتمعيهما قيم ديمقراطية مشتركة.

لم ينتهِ تطوّر إيران الديمقراطي. فالنظام الممسك بالسلطة الآن لن يبقى فيها إلى الأبد. وعندما يتغيّر أو يتطوّر أو يسقط سيطالب الإيرانيون بالديمقراطية التي يتوق إليها جدًّا الكثيرون منهم. ولا ينطبق هذا على بلدان المنطقة الأخرى لأنها لا تمتلك تقاليد ديمقراطية عريقة.

لا يمكن الديمقراطية أن تظهر بين ليلة وضحاها. ولا يمكنها أن تُزهر إلا بعد سنوات وعقود، بل وحتى أجيال، من الخبرة. وإيران إحدى دولتين مسلمتين في الشرق الأوسط تمتلكان هذه الخبرة. ولديها مجتمع مدني نابض بالحياة، ولو مُحاصرًا، ويعجّ بالاحتمالات الديمقراطية. بل إنه، إذا سنحت الظروف، قد يخرج من نصف قرن من الديكتاتورية ديمقراطيًّا أكثر من تركيا. ويجب على شعبها أن يُدرك، عندما يفعل ذلك، أو إذا فعل، أن الولايات المتحدة وقفت دومًا إلى جانبه.

تشكّل المفاوضات المباشرة، الثنائية وغير المشروطة، الأمل الوحيد في تحقيق

اختراق دبلوماسي بين إيران والولايات المتحدة. وتوجد حوافز تحمل إيران على إبرام صفقة، فهي تتوق إلى المشروعية؛ ولديها احتياجات أمنية لا يمكن إلا الولايات المتحدة تلبيتها؛ وحكومتها غير شعبية، واقتصادها يترنّح جراء تركيبة من التضخم المرتفع وأسعار النفط المتدنية، ومجتمعها يتذمّر تحت وطأة طائفة من العلل الاجتماعية، وجيلها الشاب غاضب جدًّا وقد هاجر الكثيرون من أبنائه وبناته الموهوبين أو هم يأملون في القيام بذلك.

فهل يكفي هذا لضمان أن تعمد إيران إلى التفاوض جدّيًا؟ لا يمكن أحدًا القول في شكل مؤكّد، إلا أن الاحتمالات مُشرِقة إلى حد كبير. وقد يتوجّب على خطب ود إيران أن ينتظر إلى حين بروز نظام جديد، أو أقلّه مجموعة جديدة من الزعماء في طهران. بيد أن المكاسب المحتملة كبيرة جدًّا إلى حد أن الأمر سيصبح بمثابة هزيمة للذات، إذا لم تقم الولايات المتحدة بالمحاولة.

إذا بذلت الولايات المتحدة جهدًا حقيقيًّا لخطب ودّ إيران وفشلت، فإنها على الأقل تكون قد أظهرت للشعب الإيراني أن الأميركيين ليسوا معادين لهم في شكل متصلّب. ويجب ألا تهدف إلى الوصول إلى اتفاق بأي ثمن، بل بالأحرى عليها أن تدرك أنها كلّما أمكنها التوصّل في شكل أسرع إلى اتفاق – سواء في ظل النظام القائم أو غيره – فسيكون من مصلحتها أن تبرمه. وعلى الولايات المتحدة أن تدرك، حتى مع استحالة الوصول إلى اتفاق الآن، أن في إمكان إيران أن تصبح شريكًا ذا قيمة كبيرة سواء في المستقبل المتوسّط أو البعيد.

ستتميّز المفاوضات مع إيران، بغض النظر عن أي مجموعة من الإيرانيين تأتي إلى الطاولة، بالصعوبة بسبب الهوة الكبيرة في المفاهيم والتاريخ التي تفصل بين البلدين. لكن ثمة عائقًا آخر أيضًا تفرضه السيكولوجيا. فسيسعى الأميركيون إلى تنازلات عملية من إيران، بينما يسعى الإيرانيون إلى ما هو أكثر استفاضة: الاحترام والكرامة واستعادة الكبرياء. فهم يرعون إحساسًا جماعيًّا بالظلامة، وثقافة المقاومة،

واعتقادًا راسخًا أن باقي العالم أمضى قرونًا يحاول كبحهم. وقد تأصّلت مواضيع الخيانة والتخلي في ثقافتهم الدينية كما في ثقافتهم السياسية.

لا يودّ الكثيرون من الدبلوماسيين الأميركيين البارعين، وبعضهم قد تقاعد الآن، ما هو أكثر من فرصة لرؤية ما يمكنهم تحقيقه في المفاوضات مع إيران. ويتوجّب عليهم، إذا أُطلقوا لاختبار مهاراتهم، أن يجلبوا معهم شخصًا على دراية بالبلدين وذا خبرة في علمي النفس والفلسفة – شخص مثل ناصر غائمي مدير برنامج الخلل المزاجي في قسم علم النفس في مركز تافتس الطبي في بوسطن. وهاكم بعض ما كتبه عن الفوارق بين الذهنيتين الأميركية والإيرانية:

- الأميركيون مستعدون للتسوية على المبادئ في سبيل النتائج؛ الإيرانيون على استعداد للتضحية بالنتائج في سبيل المبادئ.

- الأميركيون يعبدون المستقبل، والإيرانيون الماضي... وشكّل تاريخ أميركا قوسًا متجهًا إلى أعلى مما يبرر، ربما، اعتقادهم أن المستقبل سيكون أفضل من الماضي. ويمتلك الإيرانيون شكًّا تاريخيًّا عميقًا: هل يمكن الغد أن يكون يومًا أفضل.

- يقدّر الأميركيون الصراحة المباشرة، والإيرانيون التعقيد... وتقيم الثقافة الإيرانية للتهذيب وزنًا يفوق أي شيء: فحتى لو اختلف أحدهم مع شخص آخر، فإن جملًا طويلة من التقدير تسبق أي تعبير عن القنوط. ونادرًا ما يعلن المرء دوافعه في صراحة ووضوح.

- تشرّب الأميركيون العلوم، والإيرانيون الآداب... للأميركيين عقلية وضعية: يبدو أنهم يعتقدون أن حل كل المشكلات ممكن بالطريقة نفسها التي يمكن فيها تحديد حصيلة رقمين. وللإيرانيين رهافة شاعرية: لديهم شعور عميق، وأحيانًا مؤلم، بالمشكلات الواقعية، لكنهم يجدون صعوبة في تحديد ما الذي يجب فعله في شأنها.

- في النهاية يتشارك الإيراني العادي والأميركي العادي في أمور أكثر بكثير

من تلك الذي لا يتشاركان فيها. فهما يتشاركان بالفعل في الكثير من المصلحة الشخصية المتنوّرة. لكن الأمر يتطلب، للانتقال من هنا إلى هناك، الإبحار عبر تيارات متخبّطة من الانفعال[1].

وليست هذه «التيارات المتخبّطة» مجرّد نتاج للجهل الأميركي أو التحامل. وللإيرانيين سبب وجيه للغضب من الولايات المتحدة، إلا أن للغضب الأميركي ما يبرّره أيضًا. فقد احتفظ النظام في إيران بروابط مباشرة أحيانًا، مع مجموعات ارتكبت جرائم دامية مثل اغتيال المعارضين الإيرانيين في أوروبا، أو ضد الإنسانية مثل تفجير مركز للطائفة اليهودية في الأرجنتين عام ١٩٩٤، أودى بحياة ٨٧ شخصًا، بل ضد أميركيين أيضًا. فقد أقدمت ميليشيات موالية لإيران عام ١٩٨٥ على تعذيب رئيس محطة الـ«سي. آي. إي.» في بيروت وليام باكلي وقتله، ويُعتقد أنها نفذّت تفجير مجمّع أبراج الخبر في السعودية عام ١٩٩٦. وساندت إيران مجموعات مسؤولة عن هجمات إرهابية في داخل العراق. وبدت، في محطّات كثيرة في تاريخها الحديث، توّاقة إلى إنزال ما أمكن من الضرر بالولايات المتحدة. وقد حققت في حملتها هذه نجاحات قاتلة عدة.

صاغت الرغبة في الانتقام – الرغبة في معاقبة إيران على أخذها الدبلوماسيين الأميركيين رهائن عام ١٩٧٩ وعلى سلسلة من الفظائع الأخرى – في شكل حاسم السياسة الأميركية حيال إيران. ووجدت واشنطن، أخيرًا، ثلاثة أسباب إضافية لعدائها:

- نفّذت إيران برنامج تطوير نوويًا سرّيًا في انتهاك لبنود ما وقّعته من معاهدات. ويضيف هذا البرنامج عاملًا جديدًا مزعزعًا للاستقرار في منطقة هي بالفعل غير مستقرّة جدًّا، مما يثير قلق دول أخرى في المنطقة ويهدد بإطلاق سباق على التسلح النووي قد يؤدّي إلى إبادة.

(١) Nasser Ghaemi, "ThePsychology of Iranian- American Relations: Delving into the Psyches ofIran and America,"*Psychology Today,* February 2, 2009, accessible athttp://www.psychologytoday.com/blog/mood-swings/200902/the-psychology-iranian-american-relations.

- استخدمت إيران سلطاتها الرسمية في حق مواطنين يسعون إلى استخدام الحقوق الأساسية التي يضمنها لهم القانون الإيراني. وما قمع التظاهرات التي أعقبت انتخابات العام ٢٠٠٩. وقد أصبحت مظاهر المحاكمات والاعترافات بالإكراه والتعذيب في السجون وإغلاق الصحف وضرب المتظاهرين مظاهر شائعة.

- نفى الزعماء الإيرانيون، وأشهرهم الرئيس أحمدي نجاد، حقيقة المحرقة وشهّروا بطريقة كريهة باليهود. وهم يطالبون باحترام ثقافتهم والاعتراف بالفظائع التاريخية التي ارتكبت في حق أمتهم، لكنهم يرفضونها لليهود.

وهذا ليس بنظام مسالم يعاني العزلة الدولية بسبب إساءة فهمه، بل هو عامل مقلق في السياسة العالمية. ومن الحماقة الاستخفاف بقدراته. ولا يخدع الزعماء الحكماء أنفسهم في شأن أعدائهم، لكنهم يقاومون أيضًا تأثير الانفعال ويصوغون سياساتهم وفقًا لمصالحهم الوطنية.

كيف يجب أن يتصرّف الأميركيون لو أدركوا أن ليس من المحتم لإيران أن تبقى عدوتهم إلى الأبد، وأنها قد تصبح بالفعل شريكًا لهم؟ سيتوقّفون بداية عن توجيه المطالب العلنية والتهديدات بما فيها تلك التي تكاد تكون مخفية مثل «كل الخيارات مفتوحة». ويجب أن يتخلّوا عن ذهنية العصا والجزرة التي قد تكون صالحة للحمير ولكن ليس للتعامل مع أمة أقدم عشر مرات من أمتهم. ثم يجب أن يتأملوا في طريقة قيام الرئيس نيكسون باختراقه الدبلوماسي مع الصين.

شكّل «بيان شانغهاي» عام ١٩٧٢ أول وثيقة تصدر عن عملية التطبيع هذه. وقد تم التوقيع عليه في وقت انخرطت الصين في «سلوك سيّئ» جدًّا، وهو تزويد الجنود الفيتناميين الشماليين الذين يقتلون الأميركيين يوميًّا، السلاح. لم يحدّد نيكسون السلوك الحسن شرطًا للتفاوض، لأنه أدرك أن الدبلوماسية تعمل في الاتجاه المعاكس تمامًا، فيأتي الاتفاق أوّلًا ثم يليه التغيير في السلوك.

لم يكن بيان شانغهاي اتفاقًا – جاء ذلك لاحقًا – بل مجرّد بيان يتعلّق بمخاوف

كل طرف. وانتهى بإعلان مشترك يؤكّد أن «من المرغوب فيه توسيع التفاهم بين الشعبين»؛ وأن «العلاقات الاقتصادية المرتكزة على المساواة والمنفعة المتبادلة تصب في مصلحة شعبي البلدين»؛ وأن الطرفين «سيبقيان على اتصال عبر مختلف القنوات»؛ وأنهما يأملان في «أن تفتح المكاسب التي تحققت في هذه الزيارة آفاقًا جديدة في العلاقات بين البلدين».

إذا أوحى بيان شانغهاي كيف يمكن الدبلوماسيين أن يشرعوا في بناء شِرْكة بين الولايات المتحدة وإيران، فإن اتفاقات هلسنكي التي وقّعتها، عام ١٩٧٥، خمس وثلاثون دولة من جانبي الستار الحديدي، توحي أين يمكن العملية أن تنتهي. تميّزت هذه الاتفاقات بأنها معقّدة وشاملة، وجاءت نتيجة مفاوضات طويلة وجدّية. فرح السوفيات جدًّا بالنتيجة لأن الاتفاقات اعترفت بشرعيتهم وطلبت من الغرب التوقف عن التدخل في شؤونهم. كذلك أدرك الأميركيون وحلفاؤهم أنهم أيضًا حققوا أمرًا كبيرًا، وهو أن الحكومات الشيوعية تعهدت إظهار «الاحترام لحقوق الإنسان وللحريات الأساسية». والتزم جميع الموقعين تسوية الخلافات المستقبلية سلمًا.

وإذا أمكن وضع شعار للمحادثات الإيرانية ـ الأميركية المستقبلية فقد يكون «من شانغهاي إلى هلسنكي». ويمكن أن يُطبع على صدر القمصان التي سيوزعها المفاوضون في اجتماعهم الأول، على أن يُطبع على ظهرها بيت شعر من شكسبير قد يدفعهم إلى الاتفاق. إذ يقول هاملت:

"لست أدري لماذا أعيش وأقول لنفسي «لا بد لي من أن أفعل هذا»، ومع ذلك فإن لدي الأسباب والإرادة والقوة والوسائل للقيام به»[1].

يحظى المؤرخون ببيئة غنيّة بالأهداف عندما ينظرون في الأخطاء التي ارتكبتها الولايات المتحدة في التعاطي مع الشرق الأوسط. إلا أن التحدّي الأكبر يتمثّل في التوصّل إلى مقاربة جديدة للمستقبل. ولن ينتج عن البقاء في أسر السياسات

(١) William Shakespeare, *Hamlet* 4.4., 48– 51.

القديمة والتحالفات القديمة والافتراضات القديمة إلا تكرار للإخفاقات القديمة. فالرهانات أضحت عالية جدًّا ليقبل الأميركيون هذا الخيار. قد تتبين استحالة جعل الولايات المتحدة من إيران شريكًا، ما بقي النظام القائم اليوم في السلطة، إلا أن على الأميركيين تحاشي القيام بما يزيد في صعوبة قيام هذه الشِّرْكة عندما تتوافر الشروط لذلك. وعليهم، بدلًا من ذلك، أن يطرحوا السؤال الذي طرحه شاعر القرن الثالث عشر الفارسي، جلال الدين الرومي: «لماذا تمكثون في السجن وبابه مفتوح على مصراعيه؟»[١]

(١) Coleman Barks, trans., *The Essential Rumi* (New York: Harper One, 1997), p. 3.

شكر

فتحت لي طائفة من الناس قلوبها وأذهانها، وأنا أجول في الشرق الأوسط وأجري الأبحاث لهذا الكتاب. غير أنني قررت، بعد التفكير ومشاورة الكثيرين منهم، ألا أشكرهم بالاسم. قد لا يلقى بعض الأفكار والاستنتاجات التي أعرض لها في هذا الكتاب الترحيب من بعض الأوساط. ومن شأن تسمية من ساعدوني أن يوحي أنهم يؤيدون ما كتبته. وفضّلت أن أشكرهم جماعيًّا بدلًا من وضعهم في موقع حرج. فإلى أصدقائي الإيرانيين والسعوديين والإسرائيليين: تعرفون أنفسكم. شكرًا لكم بغض النظر عن رأيكم في ما كتبته.

الدولة الوحيدة التي قد لا تضع من تحاوروا معي في أوضاع غير مريحة هي تركيا. وهو ما يعطيني الحرّية في توجيه الشكر إلى ثلاثة باحثين ثاقبي النظر سخوا عليَّ بساعات من وقتهم وهم: غوكهان ستينسايا، وضيا أونيش، وإرغون أوزبودون. وقد تلقّيت كذلك مساعدة خاصة من أحصف المعلقين الحديثين على الشؤون التركية صديقي العزيز شاهين ألباي.

أبدى لي صديقان آخران أحر الضيافة التي يشتهر بها جزؤهما من العالم: آن وسم كوزلو في اسطنبول، وحسام الغيلاني في الرياض. وأنا مدين لهما بالكثير.

قدّم جايمس ستون وديفيد شومان وفريبا أميني وجايمس لينكين تعليقات

شاملة وغير متحفّظة مع بروز كل واحد من فصولي. وكذلك فعلت المحرّرة المتعدّدة المواهب إلميرا بايراسلي. وما إن انتهى العمل بالمخطوطة حتى خضعت لمزيد من الصقل بقلم بول غولوب المدير التحريري لمكتب التايمز.

وتبيّن أن شقيقتي جاين هي أكثر منتقديَّ الخاصين غير المتوقعين، وقد فاجأتني لمّا شرعتُ في هذا المشروع بإخباري أن موهبتها الحقيقية وغير المُكتشفة هي تحرير المخطوطات. وتبيّن أنها محقّة. طرحتْ تعليقات قاطعة ومفصّلة جدًّا وغير متسامحة على كتابتي، لتقترح بعد ذلك أن يتم تسويقي على الشكل التالي: «راوية من الطراز الأول، خصوصًا بعدما عملت شقيقته الحريصة على الحصول على رواية جيّدة، على تحويل المُضجر في الصفحة إلى ما هو مملوء بالحياة».

عمل واحد من طلاّبي المتفوّقين في جامعة نورثوسترن، بنجامين أرمسترونغ، مساعدًا لي في أبحاثي وأثبت أنه لا يُقدّر بثمن. ولم تتفوّق على تمكّنه التام من قاعدة البيانات إلا حماسته لهذا المشروع واهتمامه بالمواضيع التي يركّز عليها. وساعد جيسون جوفن، بنجامين في إيجاد الصور والاجتهاد في رسم الخرائط المنورة.

أثبتت وكيلتي الأدبية المخلصة نانسي لاف، مرة أخرى، احترافها بالمساعدة في توجيه هذا الكتاب من تصوّره وحتى ولادته. كذلك وفّر أمينا المكتبة في أوك بارك في إيلينويز، وفي ترورو في ماساتشوستس، المساعدة بلا كلال، وتمتعا بسعة الحيلة.

تلقّيت مساعدة سخية من صندوق عائلة كايمان الذي يديره مركز بوفيت للدراسات الدولية والمقارنة في جامعة نورثوسترن. ثم إنني شاكر أيضًا لعائلة كايمان ولكل من جعل من مركز بوفيت محورًا نابضًا بالحياة للنقاش المتعلّق بالشؤون الدولية، وهم: أندرو واتشل، وهندريك سبرويت، وبرايان هانسون، وريتا كوريان.

قدّم إلي زملائي الأساتذة في جامعتي نورثوسترن وبوسطن كل اعتبار، وأنا منكب على العمل في هذا الكتاب. وكذلك فعل أنسبائي القريبون وأصدقائي البعيدون. شكرًا لكم جميعًا.

BIBLIOGRAPHY

Aarts, Paul, and Gerd Nonneman, eds. *Saudi Arabia in the Balance: Po liti cal Economy, Society, Foreign Aff airs*. London: Hurst, 2005.

Abdo, Geneive, and Jonathan Lyons. *Answering Only to God: Faith and Freedom in Twenty- First- Century Iran*. New York: Henry Holt, 2003.

Abrahamian, Ervand. *A History of Modern Iran*. New York: Cambridge University Press, 2008.

———. *Iran Between Two Revolutions*. Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1982.

Abramowitz, Morton, ed. *Turkey's Transformation and American Policy*. New York: Century Foundation, 2000.

Abukhalil, As'ad. *The Battle for Saudi Arabia: Royalty, Fundamentalism, and Global Power*. New York: Seven Stories Press, 2004.

Aburish, Said K. *The Rise, Corruption and Coming Fall of the House of Saud*. New York: St. Martin's Press, 1995.

Afary, Janet. *The Iranian Constitutional Revolution, 1906– 1911: Grassroots Democracy, Social Democracy and the Origins of Feminism*. New York: Columbia University Press, 1996.

———. *Sexual Politics in Modern Iran*. New York: Cambridge University Press, 2009.

Ahmad, Feroz. *Th e Making of Modern Turkey*. London: Routledge, 1993.

———. *The Turkish Experiment in Democracy, 1950– 1975*. Boulder, Colo.: Westview Press, 1977.

———. *Th e Young Turks: Th e Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908– 1914*. Oxford: Clarendon Press, 1969.

Akçan, Taner. *A Shameful Act: Th e Armenian Genocide and the Question of Turkish Responsibility*. New York: Holt Paperbacks, 2007.

Akşin, Sina. T*urkey from Empire to Revolutionary Republic: The Emergence of the Turkish Nation from 1789 to Present*. New York: New York University Press, 2007.

Alexander, Yonah, and Alan Nanes, eds. *Th e United States and Iran: A Documentary History.* Frederick, Md.: University Publications of America, 1980.

Allen, Harry S., and Ivan Volgyes, eds. *Israel, the Middle East, and U.S. Interests* New York: Praeger, 1983.

Al- Rasheed, Madawi. *A History of Saudi Arabia*. Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

Al- Saltana, Taj. *Crowning Anguish: Memoirs of a Persian Princess from the Harem to Modernity*. Washington, D.C.: Mage, 2003.

Alteras, Isaac. *Eisenhower and Israel: U.S.- Israeli Relations*, 1953– 1960. Gainesville: University Press of Florida, 1993.

Altinay, Hakan, et al., eds. *Reflections of EU- Turkey Relations in the Muslim World.* Istanbul: Open Society Foundation, 2009.

Altunişik, Meliha Benli. "The Possibilities and Limits of Turkey's Soft Power in the Middle East," *Insight Turkey* 10, no. 2 (2008): 41– 54.

Altunişik, Meliha Benli, and Özlem Tür Kavli. *Turkey: Challenges of Continuity and Change*. New York: Routledge Curzon, 2005.

Anderson, Irvine H. *Aramco, the United States, and Saudi Arabia: A Study of the Dynamics of Foreign Oil Policy, 1933– 1950.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1981.

Anderson, Jon Lee. "Loose Cannons: On the Trail of Israel's Gunrunners in Central America," *New Outlook,* February 1989.

Anderson, Perry. "Aft er Kemal," *London Review of Books*, September 25, 2008.

Ansari, *Ali M. Confronting Iran: The Failure of American Foreign Policy and the Next Great Crisis in the Middle East.* London: Hurst, 2006.

———. *Modern Iran Since 1921: The Pahlavis and After*. London: Pearson, 2003.

Arakie, Margaret. *The Broken Sword of Justice: America, Israel and the Palestine Tragedy*. London: Quartet Books, 1973.

Aras, Bülent. "Turkey and the Rus sian Federation: An Emerging Multidimensional Partnership," *SETA Policy Brief* no. 35, August 2009.

Arfa, Hassan. *Under Five Shahs.* London: John Murray, 1964.

Arjomand, Said Amir. *The Shadow of God and the Hidden Imam.* Chicago: University of Chicago Press, 1984.

———. *The Turban for the Crown: The Islamic Revolution in Iran.* New York: Oxford University Press, 1988.

Armstrong, H. C. *Grey Wolf: An Intimate Study of a Dictator.* London: Arthur Barker, 1932.

———. *Lord of Arabia: Ibn Saud, An Intimate Story of a King.* Beirut: Khayats, 1966.

Atabaki, Touraj, and Erik J. Zürcher, eds. *Men of Order: Authoritarian Modernization Under Atatürk and Reza Shah.* London: I. B. Tauris, 2004.

Avery, Peter. *Modern Iran.* New York: Praeger, 1965.

Axworthy, Michael. *A History of Iran: Empire of the Mind.* New York: Basic Books, 2008.

Ayoob, Mohammed, and Hasan Kosebalaban, eds. *Religion and Politics in Saudi Arabia: Wahhabism and the State.* London: Lynne Rienner, 2009.

Azimi, Fakhreddin. *Iran: Th e Crisis of Democracy.* London: I. B. Tauris, 1989.

———. *The Quest for Democracy in Iran: A Century of Struggle Against Authoritarian Rule.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2008.

Badeau, John S. *The American Approach to the Arab World.* New York: Harper & Row, 1968.

Baer, Robert. *See No Evil: Th e True Story of a Ground Soldier in the CIA's War on Terrorism.* New York: Th ree Rivers Press, 2002.

———. *Sleeping with the Devil: How Washington Sold Our Soul for Saudi Crude.* New York: Th ree Rivers Press, 2003.

Bahbah, Bishara. *Israel and Latin America: The Military Connection.* New York: Palgrave Macmillan, 1986.

Bain, Kenneth R. *The March to Zion: American Policy and the Founding of Israel.* College Station: Texas A&M University Press, 1979.

Bakhash, Shaul. *The Reign of the Ayatollahs: Iran and the Islamic Revolution.* London: I. B. Tauris, 1985.

Ball, George W. *Error and Betrayal in Lebanon: An Analysis of Israel's Invasion of Lebanon and the Implications for U.S.- Israeli Relations.* Washington, D.C.: Foundation for Middle East Peace, 1984.

Banani, Amin. *The Modernization of Iran, 1921– 1941.* Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1961.

Bani- Sadr, A. H. *My Turn to Speak: Iran, the Revolution & Secret Deals with the U.S.* London: Brasseys, 1991.

Bard, Mitchell Geoff rey. *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Infl uence on United States Middle Eastern Policy.* New Brunswick, N.J.: Transaction, 1991.

Barks, Coleman, trans. *The Essential Rumi.* New York: Harper One, 1997.

Barrett, David M. *Th e CIA and Congress: The Untold Story from Truman to Kennedy.* Lawrence: University Press of Kansas, 2005.

Barsamian, David. *Targeting Iran.* San Francisco: City Lights Books, 2007.

Bass, Warren. *Support Any Friend: Kennedy's Middle East and the Making of the U.S.- Israel Alliance.* New York: Oxford University Press, 2003.

Beeman, William. *The "Great Satan" vs. the "Mad Mullahs": How the United States and Iran Demonize Each Other.* Chicago: University of Chicago Press, 2008.

Beilin, Yossi. *Israel: A Concise Po liti cal History.* New York: St. Martin's Press, 1992.

Beit- Hallahmi, Benjamin. *Th e Israeli Connection: Who Israel Arms and Why.* New York: Pantheon Books, 1987.

Beling, Willard A., ed. *King Faisal and the Modernisation of Saudi Arabia.* London: Croom Helm, 1980.

———. *The Middle East: Quest for an American Policy.* Albany: State University of New York Press, 1973.

Ben- Ami, Shlomo. “A War to Start All Wars: Will Israel Ever Seal the Victory of 1948?” *Foreign Aff airs* 87, no. 5 (September– October 2008): 148– 56. Ben- Zvi, Abraham. *Alliance Politics and the Limits of Influence: The Case of the U.S. and Israel, 1975– 1983.* Tel Aviv: Jaff ee Center for Strategic Studies, 1984.

Bergen, Peter L. *Holy War, Inc.: Inside the Secret World of Osama bin Laden* New York: Free Press, 2001.

Bernstein, Mark F. “An American Hero in Iran,” *Princeton Alumni Weekly*, 2007.

Bialer, Uri. *Between East and West: Israel's Foreign Policy Orientation, 1948–1956.* Cambridge: Cambridge University Press, 1990.

Bill, James A. *Th e Ea gle and the Lion: Th e Tragedy of American- Iranian Relations.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988.

Bill, James A., and Carl Leiden. *Politics in the Middle East.* Boston: Little, Brown, 1979.

Bill, James A., and William Roger Louis, eds. *Mussadiq, Ira ni an Nationalism and Oil.* London: I. B. Tauris, 1988.

Birand, Mehmet Ali. *Shirts of Steel: An Anatomy of the Turkish Armed Forces.* London: I.B. Tauris, 1991.

Birger, D. M. “The Psychoanalytic Study of Society: ‘Immortal’ Atatürk—Narcissism and Creativity in a Revolutionary Leader”, *Psychoanalytic Quarterly* no. 53 (1984): 221– 55.

Bligh, Alexander. *From Prince to King: Royal Succession in the House of Saud in the 20th Century.* New York: New York University Press, 1984.

Bodurgil, Abraham. *Kemal Atatürk: A Centennial Biography.* Washington,D.C.: Library of Congress, 1984.

Bradley, John R. *Saudi Arabia Exposed: Inside a Kingdom in Crisis.* New York:Palgrave Macmillan, 2005.

Brock, Ray. *Ghost on Horse back: The Incredible Atatürk.* New York: Duell, Sloan and Pearce, 1954.

Bronson, Rachel. *Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia.* New York: Oxford University Press, 2006.

Brown, Anthony Cave. *Oil, God and Gold: The Story of Aramco and Saudi Kings* Boston: Houghton Miffl in, 1999.

Brysac, Shareen Blair. “A Very British Coup: How Reza Shah Won and Lost His Throne,” *World Policy Journal* 24, no. 2 (Summer 2007): 90– 103.

Brzezinski, Zbigniew. *The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives.* New York: Basic Books, 1997.

Brzezinski, Zbigniew, et al. *Iran: Time for a New Approach.* New York: Council on Foreign Relations, 2004.

Bulloch, John. *Th e Making of a War: The Middle East from 1967 to 1973.* London: Longman, 1974.

Bumiller, Elisabeth. *Condoleezza Rice: An American Life.* New York: Random House, 2009.

Burgener, Robert D. “Iran’s American Martyr,” *The Iranian,* August 31, 1998

Çağaptay, Soner. “The Turkish Prime Minister Visits Israel: Whither Turkish- Israeli Relations?” Policywatch 987. Washington, D.C.: Washington Institute for Near East Policy, April 27, 2005.

Carpenter, Ted Galen, and Malou Innocent. “The Iraq War andIrani an Power,”*Survival* 49, no. 4 (Winter 2007– 8): 67– 82.

Çetinsaya, Gökhan. “Essential Friends and Natural Enemies: The Historic Roots of Turkish- Iranian Relations,” *Middle East Review of International Affairs* 7, no. 3 (September 2003): 116– 32.

———. “The New Iraq, the Middle East and Turkey: A Turkish View,” *SETA Report,* April 2006, www .setav .org/ lang _en/ ?option = com _content & task = view & id= 15 & Itemid= 6 .

———. “Rethinking Nationalism and Islam: Some Preliminary Notes on the Roots of ‘Turkish- Islamic Synthesis’ in Modern Turkish Political Thought.” *The Muslim World* 89, no. 3– 4 (July– October 1999): 350– 76.

Champion, Daryl. *The Paradoxical Kingdom: Saudi Arabia and the Momentum of Reform.* New York: Columbia University Press, 2003.

Chomsky, Noam. *Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians.* New Delhi: India Research, 2004.

Churchill, Winston S. *The World Crisis.* New York: Scribner, 1928.

———. *The World Crisis: The Aftermath.* London: Library of Imperial History, 1974.

Citino, Nathan J. *From Arab Nationalism to OPEC: Eisenhower, King Sa'ud, and the Making of U.S.- Saudi Relations.* Bloomington: Indiana University Press, 2002.

Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror.* New York: Free Press, 2004.

Cockburn, Andrew, and Leslie Cockburn. *Dangerous Liaison: The Inside Story of the U.S.- Israeli Covert Relationship.* Toronto: Stoddart, 1991.

Cohen, Michael J. *Truman and Israel.* Berkeley: University of California Press,1990.

Cohen, Naomi W. *American Jews and the Zionist Idea.* New York: Ktav, 1975.

Cohen, Stephen P. *Beyond America's Grasp: A Century of Failed Diplomacy in the Middle East.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009.

Colhoun, Jack. "Israel and the Contras," *Race & Class* 28, no. 3 (1987): 61– 66.

Coll, Steve. *Ghost Wars: Th e Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001.* New York: Penguin Press, 2004.

Commins, David. *The Wahhabi Mission and Saudi Arabia.* London: I. B. Tauris, 2006.

Committee on Foreign Aff airs, Subcommittee on Europe, U.S. House of Representatives. *The United States and Turkey: A Model Partnership.* Washington, D.C.: U.S. Government Printing Offi ce, 2009.

Conant, Melvin. *The Oil Factor in U.S. Foreign Policy, 1980– 1990.* Lexington, Mass.: Lexington Books, 1982.

Cordesman, Anthony H. *Saudi Arabia: Guarding the Desert Kingdom.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1997.

Cornell, Erik. *Turkey in the 21st Century: Opportunities, Challenges, Th reats.* Richmond, Surrey: Curzon, 2001.

Cottam, Richard W. *Iran and the United States: A Cold War Case Study.* Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1988.

———. *Nationalism in Iran.* Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1979.

Crile, George. *Charlie Wilson's War: Th e Extraordinary Story of the Largest Covert Operation in History.* New York: Atlantic Monthly Press, 2003.

Cronin, Stephanie, ed. *The Making of Modern Iran: State and Society Under Riza Shah 1921– 1941.* London: RoutledgeCurzon, 2003.

Curzon, Lord G. N. *Persia and the Persian Question.* London: Frank Cass, 1966.

Dabashi, Hamid. *Iran: A People Interrupted.* New York: New Press, 2007.

Davison, Roderick H. *Turkey: A Short History.* Beverly, En gland: Eothen Press, 1981.

De Gaury, Gerald. *Faisal: King of Saudi Arabia.* London: Arthur Barker, 1966.

DeLong- Bas, Natana J. *Wahhabi Islam: From Revival and Reform to Global Jihad.* New York: Oxford University Press, 2004.

Deringil, Selim. *Turkish Foreign Policy During the Second World War: An Active Neutrality.* Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

Diba, Farhad. *Mohammad Mossadegh: A Po liti cal Biography.* London: Croon Helm, 1986.

Dismorr, Ann. *Turkey Decoded.* London: Saqi, 2008.

Donovan, Robert. *Confl ict and Crisis: Th e Presidency of Harry S. Truman, 1945–1948.* Columbia: University of Missouri Press, 1996.

Dorril, Stephen. *MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service.* New York: Free Press, 2000.

Douglas, William O. *Strange Lands and Friendly People.* New York: Harper & Brothers, 1951.

Dowty, Alan. *Middle East Crisis: U.S. Decision- Making in 1958, 1970 and 1973.* Berkeley: University of California Press, 1984.

Draper, Theodore. *A Very Thin Line: The Iran- Contra Affairs.* New York: Hil and Wang, 1991.

Eban, Abba. *An Autobiography.* New York: Random House, 1977.

Eddy, William A. *FDR Meets Ibn Saud.* New York: American Friends of the Middle East, 1954.

Edib, Halide. *House with Wisteria: Memoirs of Turkey Old and New.* New York: Century, 1926.

Elm, Mostafa. *Oil, Power, and Principle: Iran's Oil Nationalization and Its Aftermath.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1992.

Eren, Nuri. *Turkey Today and Tomorrow: An Experiment in Modernization.* New York: Praeger, 1963.

Erlich, Reese. *The Iran Agenda: Th e Real Story of U.S. Policy and the Middle East Crisis.* Sausalito, Calif.: PoliPointPress, 2007.

Eveland, Wilbur Crane. *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East.* New York: W. W. Norton, 1980.

Ezrahi, Yaron. *Rubber Bullets: Power and Conscience in Modern Israel.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 1977.

Fallaci, Oriana. *Interview with History.* Boston: Houghton Miffl in, 1976.

Fandy, Mamoun. *Saudi Arabia and the Politics of Dissent.* New York: St. Martin's Press, 1999.

Farman Farmaian, Sattareh, and Dona Munker. *Daughter of Persia: A Woman's Journey from Her Father's Harem Th rough the Islamic Revolution.* New York: Crown, 1992.

Fatany, Samar. *Saudi Perceptions and Western Misconceptions.* Riyadh: Ghainaa, 2005.

Fayazmanesh, Sasan. *The United States and Iran: Sanctions, Wars and the Policy of Dual Containment.* London: Routledge, 2008.

Feuerwerger, Marvin C. *Congress and Israel: Foreign Aid Decision- Making in the House of Representatives, 1969– 1976.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 1970.

Finkel, Caroline. *Osman's Dream: The History of the Ottoman Empire.* New York: Basic Books, 2007.

Finkelstein, Norman H. *Friends Indeed: The Special Relationship of Israel and the United States.* Brookfi eld, Conn.: Millbrook Press, 1998.

Forbes- Leith, F. A. C. *Checkmate: Fighting Tradition in Central Asia.* London: G. G. Harrap, 1927.

Forbis, William H. *Fall of the Peacock Th rone: Th e Story of Iran.* New York: McGraw- Hill, 1981.

Foreign and Commonwealth Offi ce. *Documents on British Foreign Policy 1919–1939*. First Series, vol. 4. London: Government Printing Press, 1971.

Fregosi, Paul. *Jihad in the West: Muslim Conquests from the 7th to the 21st Centuries*. Amherst, N.Y.: Prometheus Books, 1998.

Friedman, George. *America's Secret War: Inside the Worldwide Struggle Between America and Its Enemies*. New York: Doubleday, 2004.

———. *The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century*. New York: Doubleday, 2009.

Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East, 1914– 22*. New York: Henry Holt, 1989.

Frye, Richard N., and Lewis V. Th omas. *The United States and Turkey and Iran*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1951.

Fuller, Graham E. *The New Turkish Republic: Turkey as a Pivotal State in the Muslim World*. Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 2008.

Fuller, Graham E., et al. *Turkey's New Geopolitics: From the Balkans to Western China*. Boulder, Colo.: Westview Press, 1993.

Gabor, Zsa Zsa, with Gerold Frank. *Zsa Zsa Gabor: My Story*. Cleveland, Ohio: World, 1960.

Gabriel, Richard A. *Operation Peace for Galilee: The Israeli- PLO War in Lebanon*. New York: Hill and Wang, 1984.

Ganji, Akbar. *The Road to Democracy in Iran*. Cambridge, Mass.: MIT Press, 2008.

Gardner, David. *Last Chance: The Middle East in the Balance*. London: I. B. Tauris, 2009.

Gardner, Lloyd C. *The Long Road to Baghdad: A History of U.S. Foreign Policy from the 1970s to the Present*. New York: The New Press, 2008.

Gasiorowski, Mark J. *Mohammad Mossadeq and the 1953 Coup in Iran*. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 2004.

———. *U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran*. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991.

Geller, Doron. "The Lavon Aff air," Jewish Virtual Library, http:// www .jewish virtuallibrary .org/ jsource/ History/ lavon .html .

Ghaemi, Nassir. "The Psychology of Iranian- American Relations: Delving into the Psyches of Iran and America," *Psychology Today*, February 2, 2009,

accessible at http:// www .psychologytoday .com/ blog/ mood -swings/ 200902/ the -psychology-iranian-american-relations .

Ghani, Cyrus. *Iran and the Rise of Reza Shah: From Qajar Collapse to Pahlavi Power.* London: I. B. Tauris, 1998.

Gilbert, Martin. *Israel: A History.* London: Black Swan, 1999.

Gilboa, Eytan. *American Public Opinion Toward Israel and the Arab- Israeli Conflict.* Lexington, Mass.: D. C. Heath, 1987.

Gilboa, Eytan, and Efraim Inbar, eds. *US- Israeli Relations in a New Era: Issues and Challenges After 911/.* London: Routledge, 2009.

Giragosian, Richard. "Redefi ning Turkey's Strategic Orientation," *Turkish Policy Quarterly* 6, no. 4 (Winter 2008): 33– 40.

Golan, Matti. *The Road to Peace: A Biography of Shimon Peres.* New York: Warner Books, 1989.

Goode, James. *The United States and Iran: In the Shadow of Mussadiq.* London: Macmillan, 1997.

Gorenberg, Gershom. *The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967– 1977.* New York: Times Books, 2006.

Graham, Robert. *Iran: The Illusion of Power.* London: Croom Helm, 1978.

Grose, Peter. *Israel in the Mind of America.* New York: Knopf, 1983.

Güney, Nurşin Ateşoğlu. *Contentious Issues of Security and the Future of Turkey* Burlington, Vt.: Ashgate, 2007.

Gunther, John. "King of Kings: The Shah of Iran— Which Used to Be Persia," *Harper's*, December 1938, pp. 60– 69.

Hale, William. *Turkish Politics and the Military.* London: Routledge, 1994.

Hanioğlu, M. Sükrü. *Young Turks in Opposition.* New York: Oxford University

Press, 1995.

Hart, Parker T. *Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership.* Bloomington: Indiana University Press, 1998.

———. *Two NATO Allies at the Th reshold of War: Cyprus: A Firsthand Account of Crisis Management, 1965– 1968.* Durham, N.C.: Duke University Press, 1990.

Hedayat, Sadeq. *The Blind Owl.* New York: Grove Press, 1994.

Hegghammer, Thomas. *Jihad in Saudi Arabia: Violence and Pan- Islamism Since 1979.* Cambridge: Cambridge University Press, 2009.

Heiss, Mary Ann. *Empire and Nationhood: Th e United States, Great Britain, and Ira ni an Oil, 1950– 1954.* New York: Columbia University Press, 1997.

Heller, Deane Fons. *Ataturk: Hero of Modern Turkey.* New York: Julian Messner, 1972.

Heller, Joseph. *The Stern Gang: Ideology, Politics, and Terror, 1940– 1949.* London: Frank Cass, 1995.

Helms, Christine Moss. *The Cohesion of Saudi Arabia: Evolution of Political Identity.* London: Croon Helm, 1981.

Heper, Metin. *The State Tradition in Turkey.* Beverley, North Humberside, En gland: Eothen Press, 1985.

Hersh, Seymour M. *The Samson Option: Israel's Nuclear Arsenal and American Foreign Policy.* New York: Random House, 1991.

Hertzberg, Arthur. *The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader.* New York: Atheneum, 1973.

Holden, David, and Richard Johns. *The House of Saud: The Rise and Rule of the Most Powerful Dynasty in the Arab World.* London: Holt, Rinehart and Winston, 1981.

House pian, Marjorie. *Smyrna 1922: Th e Destruction of a City.* London: Faber and Faber, 1972.

Howard, Harry N. *The Partition of Turkey: A Diplomatic History, 1913– 1923.* Norman: University of Oklahoma Press, 1931.

Howarth, David. *The Desert King: A Life of Ibn Saud.* Beirut: Librairie du Liban, 1964.

Hunter, Jane. *Israeli Foreign Policy: South Africa and Central America.* Boston: South End Press, 1987.

Ide, Arthur Frederick. *Jihad, Mujahideen, Taliban, George W. Bush & Oil: A Study in the Evolution of Terrorism and Islam.* Garland, Tex.: Tanglewild Press, 2002.

Ikbal, Sirdar Ali Shah. *The Controlling Minds of Asia.* London: H. Jenkins, 1937.

International Crisis Group. "Saudi Arabia Backgrounder: Who Are the Islamists?" *ICG Middle East Report*, no. 31, September 21, 2004.

Ironside, Edmund. *High Road to Command: Th e Diaries of Sir Edmund Ironside, 1920– 1922.* London: Leo Cooper, 1972.

Janin, Hunt. *The Pursuit of Learning in the Islamic World, 610– 2003.* Jeff erson, N.C.: McFarland, 2005.

Jung, Dietrich. "The Sèvres Syndrome: Turkish Foreign Policy and Its Historical Legacies," www .unc .edu/ depts/ diplomat/ archives_roll/ 2003 _07 -09/ jung _ sevres/ jung _sevres .html, January 5, 2009.

Katouzian, Homa. *Iranian History and Politics: Th e Dialectic of State and Society.* London: Routledge, 2007.

———. *Mussadiq and the Struggle for Power in Iran.* London: I. B. Tauris, 1990.

———. *Sadeq Hedayat: Th e Life and Literature of an Iranian Writer.* London: I. B. Tauris, 1991.

Kazemzadeh, Firuz. *Rus sia and Britain in Persia, 1864– 1914: A Study in Imperialism* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1968.

Keddie, Nikki R. *Modern Iran: Roots and Results of Revolution.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 2006.

———. *Qajar Iran: The Rise of Reza Khan, 1796– 1925.* London: I. B. Tauris, 1999.

———. *Roots of Revolution: An Interpretive History of Modern Iran.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1981.

Kedourie, Sylvia, ed. *Seventy- Five Years of the Turkish Republic.* London: Frank Cass, 2000.

Kenen, L. L. *Israel's Defense Line: Her Friends and Foes in Washington.* Buffalo, N.Y.: Prometheus Books, 1981.

Khalidi, Rashid. *Sowing Crisis: The Cold War and the American Search for Dominance in the Middle East.* Boston: Beacon Press, 2009.

Khouri, Fred J. *The Arab - Israeli Dilemma.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1968.

Kinross, Lord. *Atatürk: The Rebirth of a Nation.* New York: William Morrow, 1965.

Kinzer, Stephen. *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror.* New York: Wiley, 2003.

———. "Inside Iran's Fury," *Smithsonian,* October 2008.

Kissinger, Henry. *Th e White House Years.* Boston: Little, Brown, 1979.

———. *Years of Upheaval.* Boston: Little, Brown, 1982.

Kramer, Gudrun. *A History of Palestine: From the Ottoman Conquest to the Founding of the State of Israel.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 2008.

Kramer, Heinz. *A Changing Turkey: Challenges to Eu rope and the United States.* Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2000.

Kuniholm, Bruce. *The Origins of the Cold War in the Near East: Great Power Conflict and Diplomacy in Iran, Turkey and Greece.* Prince ton, N.J.: Princeton University Press, 1980.

Lacey, Robert. *Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia.* New York: Viking, 2009.

Laçiner, Sedat, et al. *European Union with Turkey: Th e Possible Impact of Turkey's Membership on the European Union.* Ankara, Turkey: ISRO, 2005.

Landau, Jacob M., ed. *Atatürk and the Modernization of Turkey.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1984.

Lengyel, Emil. *They Called Him Atatürk: Th e Life Story of the Hero of the Middle East.* New York: John Day, 1962.

Lesch, David W., ed. *The Middle East and the United States: A Historical and Political Reassessment.* Boulder, Colo.: Westview Press, 2003.

Lesser, Ian O. *Beyond Suspicion: Rethinking U.S.- Turkish Relations.* Washington, D.C.: Woodrow Wilson Center, 2007.

Lewis, Bernard. *The Emergence of Modern Turkey.* London: Oxford University Press, 1961.

———. *The Jews of Islam.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1987.

Limbert, John W. *Iran: At War with History*. Boulder, Colo.: Westview Press, 1987.

———. *Negotiating with Iran: Wrestling the Ghosts of History*. Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 2009.

Lippman, Thomas W. *Inside the Mirage: America's Fragile Partnership with Saudi Arabia*. Boulder, Colo.: Westview Press, 2004.

Long, David E. *The United States in Saudi Arabia: Ambivalent Allies*. Boulder, Colo.: Westview Press, 1985.

———. "US- Saudi Relations: Evolution, Current Conditions, and Future Prospects," *Mediterranean Quarterly* 15, no. 3 (Summer 2004): 24– 37.

Lorentz, John H. *Historical Dictionary of Iran*. Lanham, Md.: Scarecrow Press, 2007.

Lytle, Mark. *The Origins of the Iranian- American Alliance, 1941– 1953*. New York: Holmes & Meier, 1987.

MacFarquhar, Neil. *The Media Relations Department of Hizbollah Wishes You a Happy Birthday: Unexpected Encounters in the Changing Middle East*. New York: Public Affairs, 2009.

Mackey, Sandra. *The Iranians: Persia, Islam, and the Soul of a Nation*. New York: Dutton, 1996.

———. *The Saudis: Inside the Desert Kingdom*. Boston: Houghton Miffl in, 1987.

Majd, Mohammad Gholi. *Great Britain and Reza Shah: The Plunder of Iran, 1921–1941*. Gainesville: University Press of Florida, 2001.

———. *The Great Famine and Genocide in Persia, 1917– 1919*. Lanham, Md.: University Press of America, 2003.

Maloney, Suzanne. *Iran's Long Reach: Iran as a Pivotal State in the Muslim World*. Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 2008.

Mango, Andrew. *Atatürk: The Biography of the Found er of Modern Turkey*. London: John Murray, 1999.

———. *Turkey: The Challenge of a New Role*. New York: Praeger, 1994.

———. *The Turks Today*. Woodstock, N.Y.: Overlook Press, 2006.

Mangold, Peter. *Superpower Intervention in the Middle East.* New York: St. Martin's Press, 1978.

Mansel, Philip. *Constantinople: City of the World's Desire 1453– 1925.* London: John Murray, 1995.

Mansfield, Peter. *A History of the Middle East.* London: Penguin, 1991.

Marlowe, Christopher. *Tamburlaine.* London: Ernest Benn, 1971.

McAlister, Melani. *Epic Encounters: Culture, Media, and U.S. Interests in the Middle East, 1945– 2000.* Berkeley: University of California Press, 2001.

McCullough, David. *Truman.* New York: Simon and Schuster, 1992.

McDowall, David. *A Modern History of the Kurds.* London: I. B. Tauris, 1996.

Ménoret, Pascal. *The Saudi Enigma: A History.* London: Zed Books, 2005.

Meyer, Karl E., and Shareen Blair Brysac. *Kingmakers: Th e Invention of the Modern Middle East.* New York: W. W. Norton, 2009.

Middle East Institute. *The Iranian Revolution at 30.* Washington, D.C.: Middle East Institute, 2009.

———. *The Seizure of the Grand Mosque.* Washington, D.C.: Middle East Institute, 2009.

Milani, Abbas. *Th e Persian Sphinx: Amir Abbas Hoveyda and the Riddle of the Iranian Revolution.* Washington, D.C.: Mage, 2001.

Millspaugh, Arthur C. *American in Persia.* Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 1946.

Montagu, Mary Wortley. *The Turkish Embassy Letters.* London: Virago Press, 1994.

Morison, Samuel Loring, and Norman Polmar. *Th e American Battleship.* Osceola, Wis.: Zenith Press, 2003.

Morris, Chris. *The New Turkey: Th e Quiet Revolution on the Edge of Eu rope.* London: Granta, 2005.

Mottahedeh, Roy. *The Mantle of the Prophet: Religion and Politics in Iran.* New York: Pantheon Books, 1985.

Neff , Donald. *Warriors at Suez: Eisenhower Takes America into the Middle East.* New York: Linden Press, 1981.

———. *Warriors for Jerusalem: The Six Days That Changed the Middle East.* New York: Simon and Schuster, 1984.

New York University Center for Dialogues. "Iran- U.S. Relations: Imagining a New Paradigm," March 2009, accessible at http:// islamuswest .org/ events _ Islam _and _the _West/ Iran -US -relations/ IranUSRelations .pdf .

Niblock, Tim. *Saudi Arabia: Power, Legitimacy, and Survival.* London: Routledge, 2006.

Ojanen, Hanna, and Igor Torbakov. "Turkey: Looking for a New Strategic Identity," *Europe's World*, May 12, 2009, accessible at http:// www .europes world .org/ NewEnglish/ Home _old/ CommunityPosts/ tabid/ 809PostID/ 396/ Default .aspx.

Olson, Robert W., and William F. Tucker. "The Sheik Sait Rebellion in Turkey (1925): A Study of the Consolidation of a Developed Uninstitutionalized Nationalism and the Rise of Incipient (Kurdish) Nationalism," *Die Welt des Islams* 18, no. 3– 4 (1978): 195– 211.

Öniş, Ziya. "Between Europeanization and Euro- Asianism: Foreign Policy Activism in Turkey During the AKP Era," *Turkish Studies* 10, no. 1 (2009): 7– 24.

———. "Conservative Globalism at the Crossroads: The Justice and Development Party and the Thorny Path to Democratic Consolidation in Turkey," *Mediterranean Politics* 14, no. 1 (March 2009): 21– 40.

Oren, Michael B. *Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present.* New York: W. W. Norton, 2007.

Ottaway, David. *The King's Messenger: Prince Bandar bin Sultan and America's Tangled Relationship with Saudi Arabia.* New York: Walker, 2008.

Özel, Soli. "The Back and Forth of Turkey's 'Westernness,' " *On Turkey*, January 29, 2009, accessible at http:// www .gmfus .org// doc/ Soli _Analysis _Turkey _0209 _Final .pdf .

———. "Committed to Change, or Changing Commitments? Turkish- American Relations Under a New U.S. President," *On Turkey*, November 17, 2008, accessible at http:// www .gmfus .org/ template/ bio _pubs .cfm ?id = 5009 .

———. “Divining Davutoğlu: Turkey’s Foreign Policy Under New Leadership,” *On Turkey*, June 4, 2009, accessible at http:// www .gmfus .org// doc/ Soli _ Analysis _Turkey _0609 _Final _new .pdf .

Özel, Soli, and Şuhnaz Yilmaz. *Rebuilding a Partnership: Turkish- American Relations for a New Era: A Turkish Perspective.* Istanbul: Tusiad, 2009.

Pahlavi, Mohammad Reza. *Answer to History.* New York: Stein and Day, 1980.

———. *Mission for My Country.* London: Hutchinson, 1961.

Palmer, Alan. *Kemal Atatürk.* London: Sphere, 1991.

Parsi, Trita. *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the U.S.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 2007.

Parsons, Anthony. *The Pride and the Fall: Iran, 1974– 1979.* London: J. Cape, 1984.

Perlmutter, Amos. *Politics and the Military in Israel.* London: Frank Cass, 1978.

Peters, Joan. *From Time Immemorial: The Origins of the Arab- Jewish Conflict over Palestine.* New York: Harper & Row, 1984.

Petras, James. *The Power of Israel in the United States.* Atlanta, Ga.: Clarity Press, 2006.

Philby, St. John. *Arabia of the Wahhabis.* London: Constable, 1928.

———. *Saudi Arabia.* New York: Praeger, 1955.

Polk, William R. *The Elusive Peace: The Middle East in the Twentieth Century.* London: Croom and Helm, 1979.

———. *Understanding Iran: Everything You Need to Know, from Persia to the Islamic Republic, from Cyrus to Ahmadinejad.* New York: Palgrave Macmillan, 2009.

Pollack, Kenneth M. *The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America.* New York: Random House, 2004.

Pollock, David. *The Politics of Pressure: American Arms and Israeli Policy Since the Six Day War.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 1982.

Pollock, David, et al. *Which Path to Persia? Options for a New American Strategy Toward Iran.* Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2009.

Pope, Hugh. *Sons of the Conquerors: The Rise of the Turkic World.* New York: Overlook Duckworth, 2005.

Pope, Hugh, and Nicole Pope. *Turkey Unveiled: Atatürk and After.* London: John Murray, 1997.

Porter, Gareth, "Burnt Offering," *The American Prospect*, May 21, 2006.

Posner, Gerald. *Secrets of the Kingdom: The Inside Story of the Saudi- U.S. Connection.* New York: Random House, 2005.

Pouton, Hugh. *Top Hat, Grey Wolf and Crescent: Turkish Nationalism and the Turkish Republic.* New York: New York University Press, 1997.

Prados, Alfred B. "Saudi Arabia: Current Issues and U.S. Relations." Washington, D.C.: Congressional Research Ser vice, 2003.

Public Broadcasting System. "The Arming of Saudi Arabia." *Frontline* 1112, February 16, 1993.

Pushel, Karen L. *US- Israeli Strategic Cooperation in the Post– Cold War Era An American Perspective.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1993.

Quandt, William B. *Decade of Decisions: American Policy Toward the Arab- Israeli Conflict, 1967– 1976.* Berkeley: University of California Press,
1977.

Rabin, Yitzhak. *The Rabin Memoirs.* Berkeley: University of California Press, 1996.

Radosh, Allis, and Ronald Radosh. *A Safe Haven: Harry S. Truman and the Foundation of Israel.* New York: HarperCollins, 2009.

Randal, Jonathan C. *After Such Knowledge, What Forgiveness?: My Encounters with Kurdistan.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1998.

Rashid, Nasser Ibrahim. *Saudi Arabia and the Gulf War.* Joplin, Mo.: International Institute of Technology, 1992.

Raviv, Dan, and Yossi Melman. *Friends in Deed: Inside the U.S.- Israel Alliance.* New York: Hyperion, 1994.

Ray, James Lee. *The Future of American- Israeli Relations: A Parting of the Ways?* Lexington: University of Kentucky Press, 1985.

Reich, Bernard. *Quest for Peace: United States– Israel Relations and the Arab- Israeli Conflict.* New Brunswick, N.J.: Transaction, 1977.

———. *Securing the Covenant: United States– Israel Relations After the Cold War.* Westport, Conn.: Praeger, 1995.

———. *The United States and Israel: Influence in the Special Relationship.* New York: Praeger, 1984.

Reisman, Arnold. *Turkey's Modernization: Refugees from Nazism and Ataturk's Vision.* Washington, D.C.: New Academia, 2006.

Rentz, George S. *The Birth of the Islamic Reform Movement in Saudi Arabia: Muhammad Ibn Abd al- Wahhab (17031792 –4/) and the Beginnings of Unitarian Empire in Arabia.* London: Arabian, 2004.

Rezun, Miron. *The Soviet Union and Iran.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1988.

Riedel, Bruce. "America and Iran: Flawed Analysis, Missed Opportunities, and Looming Dangers," *Brown Journal of World Affairs* 15, no. 1 (Fall– Winter 2008): 101– 11.

Roberts, Samuel J. *Survival or Hegemony? Th e Foundation of Israeli Foreign Policy.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973.

Robins, Philip J. *Suits and Uniforms: Turkish Foreign Policy Since the Cold War.* Seattle: University of Washington Press, 2003.

Roosevelt, Kermit. *Arabs, Oil and History.* New York: Harper & Brothers, 1949.

———. *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran.* New York: McGraw-Hill, 1979.

Rubenberg, Cheryl. *Israel and the American National Interest: A Critical Examination.* Urbana: University of Illinois Press, 1986.

Rubin, Barry. *The Arab States and the Palestinian Conflict.* Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1981.

———. *Paved with Good Intentions: The American Experience and Iran.* New York: Oxford University Press, 1980.

Sachar, Howard M. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time.* New York: Knopf, 1976.

Safran, Nadav. *Israel, the Embattled Ally.* Cambridge, Mass.: Belknap Press, 1978.

———. *Saudi Arabia: The Ceaseless Search for Security.* Cambridge, Mass.: Belknap Press, 1985.

Sandler, Stanley. *The Korean War: No Victors, No Vanquished.* Lexington: University Press of Kentucky, 1999.

Schoenbaum, David. *The United States and the State of Israel.* New York: Oxford University Press, 1983.

Schwartz, Stephen. *The Two Faces of Islam: The House of Sa'ud from Tradition to Terror.* New York: Anchor, 2003.

Sciolino, Elaine. *Persian Mirrors: The Elusive Face of Iran.* New York: Free Press, 2000.

Segev, Tom. *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate.* New York: Metropolitan Books, 2000.

Shadid, Mohammad K. *The United States and the Palestinians.* London: Croom and Helm, 1981.

Shafagh, S. R. *Howard Baskerville 1885– 1909, Fiftieth Anniversary: The Story of an American Who Died in the Cause of Iranian Freedom and Independence.* Tabriz, Iran: Keyhan, 1959.

Shaw, Stanford J., and Ezel Kural Shaw. *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.* Vol. 2: *Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808– 1975.* Cambridge: Cambridge University Press, 1977.

Shawcross, William. *The Shah's Last Ride: The Fate of an Ally.* New York: Simon and Schuster, 1988.

Shlaim, Avi. *The Iron Wall: Israel and the Arab World.* New York: W. W. Norton, 2001.

Shulman, David. *Dark Hope: Working for Peace in Israel and Palestine.* Chicago: University of Chicago Press, 2007.

Shultz, George. *Turmoil and Triumph: Diplomacy, Power, and the Victory of the American Ideal.* New York: Scribner, 1995.

Shuster, Morgan. *The Strangling of Persia: A Record of European Diplomacy and Oriental Intrigue.* London: T. Fisher Unwin, 1912.

Sicherman, Harvey. *Broker or Advocate? The U.S. Role in the Arab- Israeli Dispute, 1973– 1978.* Philadelphia: Foreign Policy Research Institute, 1978.

Sick, Gary. *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran.* New York: Random House, 1985.

———. "The Republic and the Rahbar," *The National Interest Online*, www .nationalinterest .org/ PrinterFriendly .aspx ?id = 20482, January 6, 2009.

Sicker, Martin. *The Bear and the Lion: Soviet Imperialism and Iran.* New York: Praeger, 1988.

Simpson, William. *The Prince: The Secret Story of the World's Most Intriguing Royal, Prince Bandar bin Sultan.* New York: Regan Books, 2006.

Slavin, Barbara. *Bitter Friends, Bosom Enemies: Iran, the U.S., and the Twisted Path to Confrontation.* New York: St. Martin's Press, 2007.

Smith, Dan. *Th e State of the Middle East: An Atlas of Conflict Resolution.* Berkeley: University of California Press, 2008.

Snetsinger, John. *Truman, the Jewish Vote, and the Creation of Israel.* Stanford, Calif.: Hoover Institution Press, 1974.

Spiegel, Steven L. *The Other Arab- Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy from Truman to Reagan.* Chicago: University of Chicago Press, 1985.

Stookey, Robert W. *America and the Arab States: An Uneasy Encounter.* New York: Wiley, 1975.

Taheri, Amir. *Nest of Spies: America's Journey to Disaster in Iran.* New York: Pantheon Books, 1988.

Takeyh, Ray. *Hidden Iran: Paradox and Power in the Islamic Republic.* New York: Times Books, 2006.

Taylor, Gordon. *The Pasha and the Gypsy: Writings on Turkey, Kurdistan, and the Eastern Mediterranean,* part 4, April 6, 2008, accessible at http:// pashagypsy .blogspot .com/ 2008/ 04/ pasha -and -gypsy -part -iv .html .

Teicher, Howard, and Gayle Radley Teicher. *Twin Pillars to Desert Storm: America's Flawed Vision in the Middle East from Nixon to Bush.* New York: William Morrow, 1993.

Telhami, Shibley. *The Stakes: America in the Middle East: The Consequences of Power and the Choice for Peace.* Boulder, Colo.: Westview Press, 2002.

Temperley, H. W. V., ed. *A History of the Peace Conference of Paris*, vol. 4. New York: Oxford University Press, 1969.

Tezel, Yahya Sezai. *Transformation of State and Society in Turkey: From the Ottoman Empire to the Turkish Republic.* Ankara, Turkey: Roma, 2005.

Tillman, Seth P. *The United States in the Middle East: Interests and Obstacles.* Bloomington: Indiana University Press, 1982.

Tirnan, John. *A New Approach to Iran: A Need for Transformative Diplomacy.* Cambridge, Mass.: MIT Center for International Studies, 2009.

Toktaş, Şule, and Ümit Kurt. "The Impact of EU Reform Process on Civil- Military Relations in Turkey," *SETA Policy Brief*, www .setav .org/ document/ Policy _ Brief _No _26 _Sule _Toktas _Umit _Kurt .pdf, no. 26, November 2008.

Touval, Saadia. *The Peace Brokers: Mediators in the Arab- Israeli Conflict.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1982.

Troeller, Gary. *The Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Sa'ud.* London: Frank Cass, 1976.

Turkish Ministry of Press Broadcasting and Tourism. *The Life of Atatürk.* Istanbul: Dizerkonca Matbaazi, 1961.

Tyler, Patrick. *A World of Trouble: The White House and the Middle East— From the Cold War to the War on Terror.* New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009.

Ullman, Richard. *The Anglo- Soviet Accord*, vol. 3 of *Anglo- Soviet Relations 1917–1921.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1973.

Unger, Craig. *House of Bush, House of Saud: Th e Secret Relationship Between the World's Two Most Powerful Dynasties.* New York: Scribner, 2004.

Urofsky, Melvin. *A Voice Th at Spoke for Justice: The Life and Times of Stephen S. Wise.* Albany: State University of New York Press, 1982.

Vassiliev, Alexei. *The History of Saudi Arabia.* New York: New York University Press, 2000.

Vitalis, Robert. *America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier.* Stanford, Calif.: Stanford University Press, 2007.

Volkan, Vamik D., and Norman Itzkowitz. *The Immortal Atatürk: A Psychobiography.* Chicago: University of Chicago Press, 1984.

Walker, Barbara K., et al. *To Set Them Free: The Early Years of Mustafa Kemal Atatürk.* Grantham, N.H.: Tompson & Rutter, 1981.

Washington Institute for Near East Policy. *Enduring Partnership: Report of the Commission on U.S.- Israel Relations.* Washington, D.C.: Washington Institute for Near East Policy, 1993.

Wehrey, Frederic, et al. *Dangerous But Not Omnipotent: Exploring the Reach and Limitations of Iranian Power in the Middle East.* Santa Monica, Calif.: Rand, 2009.

Weiker, Walter F. *The Modernization of Turkey: From Atatürk to the Present Day.* New York: Holmes & Meier, 1981.

Weiner, Tim. *Legacy of Ashes: Th e History of the CIA.* New York: Doubleday, 2007.

Weissbrod, Rachel. "Exodus as a Zionist Melodrama," *Israel Studies* 4, no. 1 (1999): 129– 52.

White, Jenny. *Islamic Mobilization in Turkey: A Study in Vernacular Politics.* Seattle: University of Washington Press, 2002.

———. "State Feminism, Modernization and the Turkish Republican Woman," *NWSA Journal* 15, no. 3 (2003): 149– 59.

Wilber, Donald N. *Iran Past and Present.* Prince ton, N.J.: Prince ton University Press, 1975.

———. *Reza Shah Pahlavi: The Resurrection and Reconstruction of Iran.* Hicksville, N.Y.: Exposition Press, 1975

Wilson, Evan M. *Decision on Palestine: How the U.S. Came to Recognize Israel.* Stanford, Calif.: Hoover Institution Press, 1979.

Woodard, Kathryn. "Music Mediating Politics in Turkey: The Case of Ahmed Adnan Saygun," *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27, no. 3 (2007): 552– 62.

Wood house, C. M. *Something Ventured.* London: Granada, 1982.

Woodward, Bob. *Bush at War.* New York: Simon and Schuster, 2002.

———. *The Commanders*. New York: Simon and Schuster, 1991.

———. *State of Denial: Bush at War*, part 3. New York: Simon and Schuster, 2007.

———. *Veil: The Secret Wars of the CIA, 1981– 1987*. New York: Simon and Schuster, 1987.

Wortham, H. E. *Mustafa Kemal of Turkey*. Boston: Little, Brown, 1931.

Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al- Qaeda and the Road to 911/*. New York: Knopf, 2006.

Wynbrandt, James. *A Brief History of Saudi Arabia*. New York: Facts on File, 2004.

Yavuz, M. Hakan, ed. *The Emergence of a New Turkey: Democracy and the AK Party*. Salt Lake City: University of Utah Press, 2006.

Yergin, Daniel. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power.* New York: Simon and Schuster, 1991.

Zaman, Amberin. "Turkey and Obama: A Golden Age in Turkey- U.S. Ties?" *On Turkey*, March 20, 2009, accessible at http:// www .gmfus .org// doc/ Amberin _Analysis _Turkey031909 .pdf .

———. "Turkey and the United States Under Barack Obama: Yes They Can," *On Turkey*, November 13, 2008, accessible at http:// www .gmfus .org// doc/ Amberin _Analysis _Turkey _US1108 _FINAL .pdf .

Zonis, Marvin. *Majestic Failure: The Fall of the Shah*. Chicago: University of Chicago Press, 1991.

Zuhur, Sherifa. "Saudi Arabia: Islamic Threat, Political Reform, and the Global War on Terror," Strategic Studies Institute, March 2005, accessible at http:// www .strategicstudiesinstitute .army .mil/ pdffi les/ PUB598 .pdf .

Zürcher, Erik J. *Turkey: A Modern History*. London: I. B. Tauris, 1993.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة
- قِطاف من التجارب

وليد رضوان

- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

جوزيف أبو خليل

- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر

كريم بقرادوني

- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود

شكري نصرالله

- مذكرات قبل أوانها
- السنوات الطيبة

شادي خليل أبو عيسى

- □ **الولايات غير المتحدة اللبنانية**
- □ **رؤساء الجمهورية اللبنانية**
- □ **قيود تتمزق**

مريم البسّام

- □ **حقيقة ليكس**
- □ **وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)**
- □ **وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)**

غادة عيد

- □ **سوكلين وأخواتها**
- □ **. . .؟! أساس الملك**
- □ **الخلوي أكبر الصفقات**

موريال ميراك - فايسباخ

- □ **عبر جدار النار**
- □ **مهووسون في السلطة**

جيمي كارتر

- □ **ما وراء البيت الأبيض**
- □ **السلام ممكن في الأراضي المقدسة**

◆ ◆ ◆

- □ **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن)** - عمر زين
- □ **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- □ **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- □ **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- □ **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- □ **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- □ **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- □ **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- □ **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- □ **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- □ **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- □ **اللوبي** - إدوار تيفنن
- □ **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- □ **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- □ **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- □ **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- □ **الأسد** - باتريك سيل
- □ **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- □ **طريق أوسلو** - محمود عباس
- □ **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- □ **النفط** - د. هاني حبيب
- □ **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- □ **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- □ **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- □ **الحصاد** - جون كوولي
- □ **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- □ **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- □ **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- □ **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- □ **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
- □ **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- □ **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- □ **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- □ **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- □ **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- □ **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- □ **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان

- **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف
- **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- **المال إن حكم** - هنري إده
- **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- **إرث من الرماد** - تيم واينر
- **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- **حروب الأشباح** - ستيف كول
- **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- **لبنان بين ردّة وريادة** - ألبير منصور
- **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
- **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
- **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- **الطبقة الخارقة** - دايفيد ج. روثكوبف
- **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي
- **الأُخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية** - علي وهب
- **الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام** - زهوة مجذوب
- **أوباما.. والسّلام المستحيل** - سمير التنّير
- **الأحزاب السياسية في العراق** - عبد الرزاق مطلك الفهد
- **صيف من نار في لبنان** - الجنرال ألان بيلليغريني
- **غزّة في أزمة** - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- **صراع القوى الكبرى على سوريا** - جمال واكيم
- **محو العراق** - مايكل أوترمان وريتشارد هيل
- **مصر على شفير الهاوية** - طارق عثمان
- **وهم السلم الأهلي** - حسين يعقوب
- **حركات ثورية** - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- **أمبراطورية الإرهاب** - اليهاندرو كاسترو اسبين
- **قصور من الرمل** - أندريه جيروليماتوس
- **الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال** - راضي شحادة
- **نظرية الاحتواء** - إيان شابيرو
- **ويليس من تونس** - ناديا خياري
- **العودة إلى الصّفر** - ستيفن كينزر
- **ديبلوماسيّة إسرائيل السريّة في لبنان** - كيرستين شولتزه

International
Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**